جامعة سعد دحلب بالبليدة

كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

قسم اللغة العربية وآدابها

مذكرة ماجستير

التخصص: أدبي

تطور نص الخطابة في العصر الأموي
دراسة تحليلية وصفية

من طرف

باية بن مشيه

أمام اللجنة المشكلة من

حفيظ ملواني	أستاذ محاضر، جامعة البليدة	رئيسا
بلمحجوب محجوب	أستاذ محاضر، جامع ة البليدة	مشرفا ومقررا
فاتح علاق	أستاذ محاضر، جامعة الجزائر	عضوا مناقشا
عمر عروة	أستاذ التعليم العالي، جامعة الجزائر	عضوا مناقشا

البليدة،مارس 2011

شكر

يستوجب علي العرفان بالجميل وإلا أراني جحودة بفضل الآخرين على إن لم أتوجه إليهم بالشكر الجزيل والاعتراف بأن هذه المذكرة ما كان لها أن ترى النور لولا مساعدتهم لي. وفي مقدمة هؤلاء الأستاذ د. بلمحجوب محجوب الذي شملني بعطف ورعاية لا غنى عنهما بالنسبة لباحثة تتلمس بداية الطريق، والذي تتبع هذا العمل خطوة خطوة مبديا فيه الرأي الصائب والملاحظات الدقيقة، فكان كريما بعلمه و بوقته جزاه الله عنا كل خير. و من أساتذتي الكرام د. علي ملاحي، فقد أفادني بعلمه الذي زانه تواضعه فزاده رفعة عند طلبته. كما أتوجه بالشكر إلى السيد / يحي مسعودي الأديب الذي لم يبخل علي بالكتب و الخال العطوف الذي طالما شجعني .

إلى الأستاذ طالب علي، من أخذ بيدي في طريق طلب العلم منذ كنت تلميذة في المتوسط.

إلى أولادي حفظهم الله الذين أخذت من حقهم الكثير فانشغلت عنهم، وكانوا يسألون الله لي دوما التوفيق، فكم تحملوا معي مشاق هذا البحث، بارك الله فيهم وأسعدني وأباهم بهم.

إلى كل أفراد عائلتي وأخص بالشكر ابنة أختي سميرة التي حملت معي عبء المسؤولية جزاها الله عني كل خير .

وإلى كل من أعانني من قريب أو من بعيد لا سيما الأخت الكريمة حميدي زوبيدة، ففضائلها علي كثيرة وكلمة شكر لا تفيها كل حقها.

وختامها مسك فصدقت يا رسول الله -عليك ألف صلاة وسلام - وأنت دوما الصادق، إذ تقول:

<< لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لغير الله لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها >> فشكري وامتناني واحترامي لزوجي الذي كان نبراسا في ظلمة الليل أخذا بيدي دافعا بي إلى الأمام دائما، هون علي الأمر كلما صعب و خفف عني العبء كل ما ثقل، ورسم على شفتي الابتسامة كلما مسحاتها كثرة المسؤوليات الملقاة على عاتقي. بارك الله فيك وجزاك عنى كل خير.

الفهرس

الملخص

شكر

الفهرس

مقدمة 8

مدخل 11

1. مميزات النص الخطابة في العصر الجاهلي..... 17

1.1. الخطبة لغة 17

2.1.الخطبة إصطلاحا: الكلام المؤلف، المتضمن وعظا وإبلاغا..... 17

3.1. نشأتها..... 18

4.1.الدواعي والأهداف..... 18

5.1.بين الخطابة والشعر..... 19

6.1.الخطابة بين لغة المنطق ولغة الإنشاد..... 20

7.1.صلة الخطابة بالأخلاق والسياسة..... 20

8.1.أسس الخطابة..... 20

1.8.1.الإيجاز 20

2.8.1.التركيز في التعبير 20

3.8.1.وضوح الفكرة..... 21

9.1.بناء الخطبة 21

1.9.1.المقدمة..... 21

2.9.1.موضوع الخطبة – العرض – 22

3.9.1.خاتمة الخطبة..... 22

10.1.أنماط نص الخطابة في العصر الجاهلي..... 23
1.10.1.المحاورات والمنافارات 23
2.10.1. الحض على القتال وإصلاح ذات البين..... 24
3.10.1.خطب الزواج (الإملاك)..... 25
4.10.1. خطب الوفود..... 25
5.10.1.سجع الكهان..... 26
11.1.أعلام الخطابة في العصر الجاهلي: نماذج من خطبهم..... 26
1.11.1.مرثد الخير..... 26
2.11.1.نص خطبة قس بن ساعدة..... 28
3.11.1.نص خطبة أكثم بن صيفي..... 30
12.1.الخصائص الفنية في نصوص الخطبة الجاهلية..... 31
1.12.1.انعدام وحدة الموضوع..... 31
2.12.1.التوسل بالإيقاع (السجع)..... 31
3.12.1.التكرار والإطناب 32
4.12.1. التمثل بالشعر 33
5.12.1.الاعتماد على العقل..... 33
6.12.1. البديهة والارتجال 34
7.12.1.التقديم و التأخير وأثرهما في الخطبة 34
8.12.1.الإيجاز..... 35
9.12.1.قصر الجمل 35
10.12.1.المجاز..... 36
13.12.1.صورة الخطيب في الجاهلية..... 36
2.تطور نص الخطبة في العصر الإسلامي (صدر الإسلام و العصر الأموي)..... 39
1.2.تطور نص الخطبة في صدر الإسلام..... 43
1.1.2.تأصيل قواعد الخطابة..... 43
2.1.2.موضوعات الخطابة في عصر صدر الإسلام 45
3.1.2. نصوص مختارة من خطابة العصر الإسلامي..... 48
4.1.2.الخصائص الفنية والأسلوبية في هذه النصوص..... 53

2.2.تطور نص الخطبة في العصر الأموي..... 63
1.2.2. بواعث ازدهار الخطابة في العصر الأمـــوي..... 63
2.2.2.أعلام الخطابة في العصر الأموي ونماذج من خطبهم..... 65
3. اتجاهات الخطابة في العصر الأموي وخصائصها الفنية..... 75
1.3.تحديد التوجهات المختلفة للخطباء..... 75
2.3. الخصائص الفنية في هذه النصوص 87
1.2.3. تأصل نصوص الخطابة في ثوابت منهجية..... 87
1.1.2.3.تقسيم نص الخطبة 87
2.1.2.3.قوة العارضة عند الخطباء..... 90
3.1.2.3.السلامة و الوضوح في عرض الأفكار و الترويج لها 91
4.1.2.3.اللغة المتفجرة القادرة على الإلمام بالأفكار مهما دقت..... 93
5.1.2.3.منهجية في المعالجة و قوة في المنطق..... 98
6.1.2.3.الأساليب والأدوات التي طوعها الخطباء لخدمة أهدافهم..... 100
2.2.3.الاستعانة بمختلف العلوم الدينية والدنيوية لتحقيق الأمر الإيجابي في المتلقي مهما كان مستواه..... 114
الخاتمــة..... 118
قائمة المراجع..... 120

ملخص

لا يختلف اثنان في كون فن الخطابة من أبرز الفنون النثرية وأوسعها مجالا للتعبير، عرفت منذ أول عصر يؤرّخ لنشأة الأدب العربي- العصر الجاهلي- فلم تكن تخلو قبيلة من خطيب، خاصة وأنّ البيئة بيئة مفاضلات ومنازعات ومنافرات يقابل ذلك الصلح، وفيها تظهر ملكات العرب البيانية، من فصاحة وحضور بديهة. وهي كذلك في العصر الإسلامي مع اكتسابها لمعاني دينية إسلامية تناسب مقتضى الحال.

إلا أنها عرفت تطورا بالغا في العصر الأموي لا سيما الخطبة السياسية وإن كنا لا نستطيع فصلها عن الناحية الاجتماعية، فهي وليدة تمخض المجتمع في تيارات متضاربة، أنتجت خطباء مفوهين، فإضافة إلى مواهبهم البيانية هناك دوافع قوية أخرى كمعارضة الخلافة هل تقتصر على بني أمية أم تكون حقا شائعا للمسلمين جميعا أو ترد إلى بني هاشم وأبناء علي خاصة أو تكون حقا للعرب فلا تختص بها قريش..

فكثرت الأحزاب السياسية وكذلك الدينية، مما أدى إلى نشاط واسع في الخطابة، وازدهار هذا الفن وتعدد الخطباء. إذا الخطبة أداة تعبيرية جد مهمة لا يمكن التخلي عنها - حتى في عصرنا الحالي- لا سيما إن كانت الظروف مهيئة لازدهارها، في أبرز وسيلة وأداة للتعبير النثري إلى جانب الشعر، يقول: الجاحظ : << كان الشاعر أرفع قدرا من الخطيب وهم إليه أحوج لردّه مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم، فلما كثر الشعراء، صار الخطيب أعظم قدرا من الشاعر >> وملاحظة الجاحظ هذه تنطبق على العصر الأموي خاصة، ووجود مادة ثرية جدا في هذا الباب – باب فن الخطابة في العصر الأموي- حفّزني لدراسته واكتشاف العوامل الداخلية والخارجية التي جعلته يرتقي إلى هذه المكانة، وأقصد بالعوامل الداخلية نص الخطبة وما اختصّ به من مميزات جعلته يختلف عنه في العصرين السابقين- الجاهلي وصدر الإسلام – وهنا يظهر الجانب البلاغي في الدراسة. أما العوامل الخارجية فهي الظروف المحيطة بنص الخطبة فجعلته يتوجه توجهات لم يعرفها إلا في العصر الأموي ونخصّ بالذكر التوجّه السياسي على وجه التحديد. إضافة إلى الظروف الاجتماعية والفكرية والدينية. فكانت منهجية الدراسة تحليلية وصفية حتى تفي بالغرض، وأثناء ذلك راعيت منهجا تاريخيا مرتبا، إذ انطلقت دراسة نص

الخطبة من العصر الجاهلي، مركزة في ذلك على سمات نص الخطبة الجاهلية حتى أمرّ إلى دراسة نص الخطبة في العصر الإسلامي، فأبرز الفرق البيّن بين النصّين عبر العصرين، مظهرة التطور الذي اعترى نص الخطبة في العصر الإسلامي مع ذكر الظروف التي ساعدت على ذلك، لينتهي بي البحث إلى الهدف المنشود وهو مميزات نصّ الخطبة في العصر الأموي لذلك كان التوسع في الدراسة واضحا حتى نلمّ بقدر أكبر بكل ما يتعلق بالموضوع ونكشف عن العوامل التي جعلت الخطبة فنّا راقيا واسع الاستعمال. واقتضى أن يكون البحث في ثلاثة فصول مع مقدمة وتمهيد. وفي كل فصل اخترت نماذج للدراسة لنلمس خصائص نص الخطبة في كل عصر من العصور الثلاثة، وبالتالي يتسنى لنا التمييز بينها واكتشاف مدى تطورها خاصة في العصر الأموي.

في التمهيد أحطت بمفهوم النصّ في المعاجم العربية القديمة كما أشرت إلى مفهومه عند الغربيين، خاصة وأن هذا المصطلح – نص- قد اختلفت حوله، الشروحات، فأردت أن أثبت من خلال ذلك أن المعاجم العربية تلتقي حول مفهوم واحد بعكس تعدد مفاهيمه عند الغرب. ومفاد ذلك أن تتسنى لنا دراسته فيما بعد كنص خطبة.

ثم تحدثت عن الخطابة كمظهر من مظاهر النثر الفني في الأدب العربي، لها صياغة وجمال أداء، تؤثر في نفوس السامعين لتكون النقطة الأخيرة في التمهيد أنواع النثر الأخرى واخترت الوصايا والحكم والأمثال في العصر الجاهلي.

أمّا في الفصل الأول تناولت مميزات نص الخطابة في العصر الجاهلي، لأستهله بتعريف الخطابة لغة واصطلاحا، ثم الحديث عن نشأتها ودواعيها وأهدافها. ومن دون شك أن الحديث عن الشعر كان واسع المجال في هذا العصر، فرأيت أن أبين مكانة الخطابة من خلال بيان منزلة الشعر، وكانت النقاط الموالية: مدى تأثر الخطابة بالمنطق وبالأخلاق والسياسة، لأصل إلى تأسيس الخطابة. وعلى أساس تنوع موضوعات نص الخطبة اخترت ثلاثة نماذج من خطب العصر الجاهلي: مرثد الخير- قس بن ساعدة- أكثم بن صيفي.

مشيرة إلى هيئة الخطيب لما لذلك من إسهام في قوة التأثير على الملتقى وبالتالي اشتراك هذه العوامل في تحقيق الغاية من الخطبة في هذا العصر.

ونظرت في الفصل الثاني- تحت عنوان: تطور نص الخطبة في العصر الإسلامي- إلى الظروف السياسية والاجتماعية والفكرية، وخلصت إلى ما طرأ على نص الخطبة من تطور من حيث بناؤها به تأصلت قواعدها، ومن حيث موضوعاتها واخترت نماذج ثلاثا تمثلت في:

نص خطبة للرسول- صلى الله عليه وسلم-

نص خطبة لأبي بكر الصديق- رضي الله عنه-

نص خطبة لعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه-

فكان النموذج الأول لإظهار الجانب التشريعي وتحديد المبادئ، والنموذج الثاني لشرح نمط الحكم في الخلافة الإسلامية، والثالث للكشف عن بذور السياسة في نص الخطبة، لأخلص إلى الخصائص الفنية في هذه النصوص مستنتجة الجديد الذي ميّز نص الخطبة في العصر الإسلامي عن نص الخطبة في العصر الجاهلي، وفي ختام هذا الفصل سجلت نصوصا مختارة من خطابة العصر الأموي.

وانتقلت في الفصل الثالث إلى بيان اتّجاهات الخطابة في العصر الأموي وخصائصها الفنية معتمدة على تحليل النصوص المختارة، موضحة الثوابت المنهجية التي تأصلت في نصوص الخطابة في هذا العصر، وكذا تأثرها بمختلف العلوم، لتحصد الغاية منها، وهي التأثير في الملتقى.

وكانت الحوصلة أن نص الخطبة في العصر الأموي، كان أداة على ألسن الخطباء، عبرت عن واقع العصر، وعكست شخصيات الخطباء، وحددت خصائص فنية متنوعة، ليظهر نص الخطبة متكاملا بحلّة بلاغية لم يعرفها في العصرين السابقين.

مـقدمـة

موضوع هذا البحث يتعلق بتطور نص الخطابة في العصر الأموي، والسبب الذي جعلني أختار هذا الموضوع كون الخطابة حظيت بمكانة عالية واهتمام بالغ في العصر الأموي. لكن كيف وصلت إلى هذه المنزلة و ما الظروف التي ساعدتها على ذلك؟ و كيف كانت قبل هذه الفترة ؟ أذكر أن الدكتور الفاضل المشرف على هذا البحث قد أشار إلى فكرة الموضوع خلال محاضرة ألقاها علينا، فاختمرت وتطورت وصارت موضوع المذكرة.

ولعلّ العنوان أدق من أن يكون كلاما عاما واسعا في هذا الفن النثري، إذ يتعلق بنص الخطبة، ومن هنا كانت دراسته دراسة وصفية فنية أظهرته بين التأثر والتأثير، إذ تأثر بعوامل وظروف جسام غيرت وجه التاريخ ونهضت بالعرب في ظل الإسلام، فكانت الخطابة لهذا الدين الحنيف عمادا وسببا من أقوى الأسباب في تحقيق أهدافه العظمى في الدين، وبلوغ غايته القصوى في السياسة. فما أتى به الإسلام كان من بواعث التأثير في نص الخطبة وبالتالي صار هذا الأخير مؤثرا في الواقع الاجتماعي والديني والسياسي لاعتماد هذا الواقع على ما تجود به نصوص الخطب من خدمة له في مجالات مختلفة، فنشر الدين وأسست الدولة بالخطابة والسلاح.

وبتطور أحداث الواقع تطور نص الخطبة. وإن تعلق عنوان البحث بفترة زمنية محددة وهي العصر الأموي إلا أن الدراسة تتناول نص الخطبة من حيث تطوره، ولا يمكن أن نصل إلى نتيجة ذلك إلا إذا بينا الخصائص الفنية إلى جانب الظروف المحيطة به انطلاقا من منهج تاريخي نستطيع من خلاله أن نكمل رسم صورة له توضع عليها اللمسات الأخيرة والمميزة في العصر الأموي. فكانت الانطلاقة في هذا البحث المتواضع من نص الخطبة في العصر الجاهلي بما توفر عليه من خصائص وأنماط وأشهر أسماء الخطباء، لأصل إلى خلاصة حددت فيها مكانة الخطابة في هذا العصر والأسباب التي أوجدتها لها، لأنتقل إلى العصر الإسلامي بدءا بصدر الإسلام، الذي انقلبت فيه حياة العرب انقلابا جذريا مما أثر في نص الخطبة تأثيرا إيجابيا ملحوظا، وأول ما جسد ذلك خطابة النبي -عليه الصلاة والسلام- وصار ذلك أثرا يقتفى فيما بعد إلى أن أخذت صبغة واضحة بمعالم محددة تكاد تكون دينية إلى عهد عثمان - رضي الله عنه – حيث تغيرت الظروف وبدأت تأخذ الطابع السياسي، ليظهر ذلك جليا في العصر

الأموي مما أكسب نص الخطبة حلة فنية بلاغية تعكس واقعا يعج بالفتـــن والأحداث السياسية، فصارت لسان الخليفة والوالي و الحزب السياسي، حدته تضاهي حدة السيف إن لم نقل أشد فتكا منه.

وقد اقتضى منهج البحث أن أفصل الدراسة على الصورة الآتية: تمهيد و ثلاثة فصول وخاتمة.

اقتضاء لدراسة منهجية، فقد بنيت على أساس العنوان لذلك كان التمهيد عبارة عن إحاطة بمفهوم النص في المعاجم العربية القديمة وإشارة إلى مفهومه عند الغربيين خاصة وأن هذا المصطلح -نص- قد اختلفت حوله الشروحات، فأردت أن أثبت من خلال ذلك أن المعاجم العربية تلتقي حول مفهوم واحد بعكس تعدد مفاهيمه عند الغرب. ومفاد ذلك أن تتسنى لنا دراسته فيما بعد كنص خطبة.

ثم تحدثت عن الخطابة كمظهر من مظاهر النثر الفني في الأدب العربي، لها صياغة وجمال أداء، تؤثر في نفوس السامعين. لتكون النقطة الأخيرة في التمهيد أنواع النثر الأخرى واخترت الوصايا والحكم والأمثال في العصر الجاهلي وهو أول عصر يؤرخ لنشأة الأدب العربي .

أما في الفصل الأول تناولت مميزات الخطابة في العصر الجاهلي، لأستهله بتعريف الخطبة لغة واصطلاحا ثم الحديث عن نشأتها ودواعيها وأهدافها. ومن دون شك أن الحديث عن الشعر كان واسع المجال في هذا العصر، فرأيت أن أبين مكانة الخطابة من خلال بيان منزلة الشعر، وكانت النقاط الموالية مدى تأثر الخطابة بالمنطق وبالأخلاق والسياسة، لأصل إلى تأسيس الخطابة ولخص في ثلاثة عوامل. وعلى أساس تنوع موضوعات نص الخطبة اخترت ثلاثة نماذج من خطب العصر الجاهلي: مرثد الخي، قس بن ساعدة، اكثم بن صيفي. لأستنتج من نصوص خطبهم الخصائص الفنية لنص الخطبة في العصر الجاهلي، مشيرة إلى هئية الخطيب لما لذلك من اسهام في قوة التأثير على المتلقي وبالتالي اشتراك هذه العوامل في تحقيق الغاية من الخطبة. وختمت هذا الفصل بخلاصة حوصلت فيها خصائص نص الخطبة في العصر الجاهلي .

ونظرت في الفصل الثاني - تحت عنوان تطور نص الخطبة في العصر الإسلامي – إلى الظروف السياسية والاجتماعية والفكرية في هذا العصر، وخلصت إلى ما طرأ على نص الخطبة من تطور من حيث بناؤها به تأصلت قواعدها ومن حيث موضوعاتها واخترت نماذج ثلاثا تمثلت في :

نص خطبة للرسول – عليه الصلاة والسلام-، نص خطبة لأبي بكر الصديق – رضي الله عنه- ونص خطبة لعلي -رضي الله عنه-. فكان النموذج الأول لإظهار الجانب التشريعي وتحديد المبادئ، والنموذج الثاني لشرح نمط الحكم في الخلافة الإسلامية، والثالث للكشف عن بذور السياسة في نص الخطبة، لأخلص إلى الخصائص الفنية في هذه النصوص مستنتجة الجديد الذي ميز نص الخطبة في العصر الإسلامي عن نص الخطبة في العصر الجاهلي. وفي ختام هذا الفصل سجلت نصوصا مختارة من خطابة في العصر الأموي.

وانتقلت في الفصل الثالث لبيان اتجاهات الخطابة في العصر الأموي وخصائصها الفنية معتمدة على تحليل النصوص المختارة موضحة الثوابت المنهجية التي تأصلت فيها نصوص الخطابة في هذا العصر وكذا تأثرها بمختلف العلوم لتحصد الغاية منها وهي التأثير في المتلقي جاعلة في نهاية الفصل خلاصة وضحت من خلالها الفرق بين نصوص الخطابة في العصرين الجاهلي والإسلامي.

وكانت الخاتمة حوصلة لما طرأ على نص الخطبة إلى أن أخذت الصورة التي أصبحت عليها في العصر الأموي فكان بذلك العصر الذهبي لهذا الفن النثري في الأدب العربي .

لقد رجعت في هذا البحث إلى مصادر ومراجع هامة أشرت إليها في مواضعها من هذه الدراسة، وأثبتها في بيان ألحقته بالبحث. وأرجوا أن أكون قد اقتربت من تحقيق الهدف بأقل قدر من التقصير وأيسر نصيب من الهفوات، فمجال الإحسان واسع ونشدان الكمال عسير، والحصول عليه مستحيل، فإن الكمال لله وحده ، وهو المستعان، وهو نعم المولى ونعم النصير، بعده سبحانه وتعالى وبعد حمده.

مدخل:

أ - في المعجم العربي القديم: النص في اللغة العربية يدور على عدة معاني هي: الرفع والإظهار وجعل بعض الشيء فوق بعضه وبلـوغ الشيء أقصاه ومنتهاه، والتحـريك، والتعييـن على شيء ما والتوفيـق فقد ورد في لسان العرب لابن منظور في مادة "نصص" ما يأتي: "نصص: النص: رفعك الشيء نص الحديث ينصه نصا : رفعه وكل ما أظهر فقد نص . وقال عمرو بن دينار: ما رأيت رجلا أنص للحديث من الزهري أي أرفع له وأسند. يقال: نص الحديث إلى فلان أي رفعه، وكذلك نصصته إليه. ونصت الظبية جيدها: رفعته و أصل النص أقصى الشيء وغايته ، ثم سمى به ضرب من السير سريع. [1] ص 97-99، ويبدو أنه لا اختلاف يذكر في معنى (نص) بين المعاجم العربية القديمة، فما نجده عند الزمخشري المتوفي سنة 538 هـ نجده عند ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة 852 هـ في شرحه لكتاب الزمخشري الذي عنوانه: غراس الأساس [2] ص 457، ونجده عند الزبيدي المتوفي سنة 205 هـ في كتابه تاج العروس.

ومفهوم النص عند علماء الأصول مثل الإمام الشافعي وهو أول من تطرق إلى مفهوم النص في نظريته عن البيان، حيث ذكر عن النص أنه " ما أتى الكتاب على غاية البيان فيه، فلم يحتج مع التنزيل فيه إلى غيره. [3] ص 32، و يقول الشيرازي: " النص ما لا يحتمل إلا معنى واحدا" [4] ص 128، كما يستعمل الأصوليـون هذا اللفـظ فيما ورد في بحوثهم من اصطلاحـات مثل: عبـارة النص وإشارة النص " يفهم منها أنهم يطلقونه على كل ملفوظ مفهوم المعنى من الكتاب والسنة سواء أكان ظاهرا أو نصا أو مفسرا، أي أن كل ما ورد عن صاحب الشرع فهو نص " [5] ص 146.

ويبدو أن الدلالة كانت المعيار الوحيد الذي احتكم إليه الأصوليون لأول وهلة، ولكن تلك الدلالة تكون مرتبطة باللفظ المركب سواء أكان منطوقا أم مكتوبا.

ويوضح نصر حامد أبو زيد نظرة الأصوليين إلى النص جاعلا النص جزءا من العلاقة بين المنطوق اللفظي والـدلالة، << النص هو الواضح وضوحا بحيث لا يحتمـل سوى معنى واحد ويقابل النص المجمل الذي يتساوى فيه معنيان يصعب ترجيح أحدهما، ويكون الظاهر، أقرب إلى النص من حيث المعنى الراجح فيه هو المعنى القريب>> [6] ص 180.

ب - بين التراث العربي والتراث الغربي: حين نعود إلى الأصل اللاتيني لكلمة – نص- في اللغات الأوربية، فإننا نجد كلمتي texte– text: مشتقتين من " textus " بمعنى النسيج "tissu " المشتقى بدورها من texere بمعنى نسج [7] ص610.

فالأصل اللاتيني يحـيل على النسج ويوحي بالجهد والقصـد وبمعناه الواسع الإنشـاء والتنسيق في ضم الشتات والتنضيد بينما يحيل الأصل في اللغة العربية على الاستواء والكمال وعلى النسيج أيضا، على الرغم من أن ابن منظور في مادة (نصص) لم يشر إلى ذلك، ولكن إذا عدنا إلى مادة (ن. س.ج)

نجد ما يحيل على ذلك نسج: النسج ضم الشيء إلى شيء، هذا هو الأصل. والريح تنسج الماء إذا ضربت متنه فإنتسجت له طرائق كالحبك ونسجت الريـح الربو إذا تعاورته ريحـــان طولا وعرضا.

ونسج كذاب الزور: لفقه و نسج الشاعر الشعر: نظمه ونسج الغيث النبات: أنماه حتى التف [1] مج 6 ص 624.

وإذا ما بحثنا عن تعريفات – النص- في العربية المعاصرة نجد محاوله طه عبد الرحمن في هذا الميدان: << كل بناء يتركب من عدد من الجمل السليمة مرتبطة فيما بينها بعدد من العلاقات >>[8] ص 35.

ومن المحاولات الأخرى لتعريفه، محاولة محمد مفتاح فقد عرف النص منطلقا من منطلقات ثلاثة:

1 -تجاوز ثنائية الحقيقة والاحتمال ومن خلال ذلك ينبغي تجنب الرؤية التقليدية للنص باعتبار أحادية معناه وشفافيته، وحقيقته وصدقه، فيكون النص كل ما دل على الحقيقة وعلى الاحتمال، وعلى الممكن.

2 - تدرج المفهوم حيث النص يطلق على الحقيقة على المكتوب المتحقق في كتابته علاقات متواجشة بين المكونات المعجمية والنحوية والدلالية والتداوليـــة في زمان ومكان معينين.

3- ويعتمد المنطلق الثالث على تدريج المعنى، وينبغي أن يؤخذ لذلك في الحسبان حجم النص نفسه. [9] ص 83-88.

أما إذا سلطنا الضوء على تعريف النص من خلال بعض الدراسات الغربية، فنجد أن تعريفه غير مستقر، فهذا رولان بارت يرفض تعريف تودوروف للنص ويعيب عليه تأثره بالبلاغـة وينتهي إلى القول: << نفهم الآن أن نظرية النص موضوعة في غير مكانها المناسب في المجال الحالي لنظرية المعرفة ولكنها تستمد قوة معناها من تموضعها اللا مناسب بالنسبة للعلوم التقليدية للأثر الفني، تلك العلوم التي كانت ولا تزال علوما للشكل أو المضمون>> نظرية النص، رولان بارت، ت: محمد خير البقاعي، مجلة العرب والفكر العالمي ع/3 1988. [10] ص 52.

ونجد تعريفات للنص ذات اتجاه بنيوي: << النص بناء لمعنى مأخوذ من معجم ليس لمفرداته معان خارج البناء الذي يضمها >> المرايا المحدبة عبد العزيز حمودة ، سلسلة عالم المعرفة ع 232 ، الكويت ، ذو الحجة 1418 هـ ابريل نيسان 1998م / [11] ص 160 .

ويعرف الباحث السيمولوجي الروسي يوري لوتمان (النص) انطلاقا من ثلاثة معايير هي: التعبير، حيث يتم التعبير من خلال علامات اللغة الطبيعية. والمعيار الثاني هو التحديد. أما المعيار الثالث فهو الخاصة البنيوية. بلاغة الخطاب وعلم النص / د صلاح فضل / الشركة العالمية للنشر القاهرة 1996. [12] ص 233 -234، والحقيقة أن تعريفات – النص- كثيرة جدا، ويصعب تحديد مفهوم له من حيث المنهجية يري أحمد الجنيدي أن هذه الصعوبة تتمثل في خضوع عملية ما هو نص وما ليس نصا إلى ثقافة الأمة، وصيغة تصورها للأشياء، وفق ما تمليه المنظومة اللغوية.

فالكلام الذي تعتبره ثقافة ما نصا. قد لا يعتبر نصا من قبل ثقافة أخرى من النص إلى الجنس الأدبي م.الفكر العربي المعاصر، ع: 100-101 س 1988. [13] ص 41-42

ومن التعريفات التي يمكن أن نصفها بالشمولية كونه وحدة كلامية مكونة من جملتين فأكثر، تحقيقا أو تحقيقا وتقديرا، منطوقة أو مكتوبــة، لا بداية ونهاية تتحدد بها، وتتداخل مع منتجـها ولغتها في علاقة عضويـــة ثابتة، وهي تتجه إلى مخاطب معيــن أو مفترض.

ويمكن أن تصاحب تلك الوحدة الكلامية بعض الإشارات السيميائية غير اللغوية التي قد تؤثر فيها.

ويأتي هذا التعريف متوافقا مع الفهم اللغوي (للنص) في العربية المعاصرة، ومنسجما مع الاتجاهات الحديثة في التحليل النصي، إضافة إلى أنه يعطي كل لغة نوعا من الخصوصية في بنيان نصوصها. فالنص الإنجليزي على سبيل المثال لا يمكن أن يكون النص العربي مهما حاولت الترجمة التقريب بينهما.

فلا يمكن المقاربة بين أي نصين مترجمين من لغتين مختلفتين إلا بإضافة حواشي وتعليقات إضافية، لأن النص علاوة على اختصاصه بروابط خاصة في كل لغة، فإنه يحمل رصيدا ثقافيا مقصورا على ناطقيه الأصليين، ثم إن علاقة النص بمنتجه علاقة عضوية تداولية، ولكل منتج للنص روابطه الخاصة به في نصه، وطريقته التي يمكن كشفها من خلال نصوصه الأخرى، فنص فلان من الناس يختلف عن نص آخر ثم لابد من أخذ متلقي النص في الاعتبار، فالنصوص تتأثر، بل تختلف باختلاف المخاطبين، فقد يؤدي وجود مخاطبين بصفة ما إلى إيجاد نصوص معينة بسمة ما تناسب أحوال تلقيهم النص.

الخطابة: مظهر من مظاهر النثر الفني في الأدب العربي:

عرف العرب النثر مثلما عرفوا الشعر، وفن الخطابة من أبرز الفنون النثرية شيوعا بينهم لكثرة دواعيها المتمثلة في تواجد العرب في شكل قبائل متنافرة ومتنازعة، وكانت تربطهم صلات مختلفة بالأمم المجاورة بعضها تجاري وبعضها ديني ... وكانت حياتهم الدينية مضطربة يغلب عليها عبادة الأصنام والأوثان لهذه الأسباب مجتمعة كان للخطابة شأنها الكبير في مجال المفاخرة بالمآثر ووصم الخصوم بالمثالب والمعايب، أو في مجال الحرب، وكذلك كانت الوفود التي ترسل إلى ملوك الأمم المجاورة بحاجة إلى خطباء لعرض قضاياهم أو طلب حاجاتهم ، كما أنه كان للخطابة دورها في المجال الديني وفي مجال المصاهرة والزواج والنصح والإرشاد وغيرها وساعدهم على ذلك تأصل ملكة البيان فيهم وقدرتهم على التصرف في وجوه القول .

إذا فالحاجة شديدة إلى الخطبة إلى جانب الحاجة إلى الشعر يقول أبو عمرو بن العلاء : << كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم، ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم ، و يهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم، فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة وتسرعوا إلى أعراض

الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر>> [14] ج1ص 241، وعلى هدى هذا القول مضى الجاحظ يقول: << كان الشاعر أرفع قدرا من الخطيب وهم إليه أحوج لرده مآثرهم عليهم وتذكرهم بأيامهم فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قــدرا مـــن الشاعر >>[14] ج3 ص 83.

بل وقد اشتهرت الخطابة كفن نثري إلى درجة أن بعض الخطب صارت مثلا يحتذى في هذا الفن كخطبة : << العجوز – وهي خطبة لآل رقبة، ومتى تكلموا فلابد لهم منها أو من بعضها والعذراء – وهي خطبة قيس بن خارجة لأنه كان أب عذرها والشوهاء – وهي خطبة سحبان وائل وقيل ذلك لها من حسنها >> [14] ج1 ص 205.

أنواع النثر الآخرى:

أ -الأمثال والحكم : إن الأمثال والحكم تحمل صورة دقيقة للنثر الجاهلي إذ يسهل حفظها لإيجازها وكثرة دوارنها على الألسنة. وألفت فيها كتب كثيرة أشهرها -جمهرة الأمثال- لأبي هلال العسكري ومجمع الأمثال للميداني – والمثل قول موجز العبارة صائب الفكرة يصدر عن عامة الناس <<وأكثر حكمهم وأمثالهم لا يعينون قائلها، وهذا طبيعي لأنها تنبعث غالبا من أناس مجهولين من عامة القبائل ممن لا يمجدون ولا يحفل بهم الناس وهم أيضا لا يحفـلون بأنفســهم لأنهم من العامة والعامـــة عادة لا يهتمـــون بنسبـة فضل إليهم >> [15] ص 480.

وللمثل مورد ومضرب فأما المورد فهو الحادثة التي قيل فيها لأول مرة وأما المضرب فهو القصة التي يقال فيها المثل لمشابهتها للحادثة الأولى، والفرق بين المثل و الحكمة أن هذه الأخيرة تصدر عن خاصة الناس ويقصد بذلك الشخص الذي حنكته التجارب فيقــدم زبدتها لمن يريد النصح والتوجيه ولا مضرب ولا مورد للحكمة.

وقد اشتهر بهذا اللون النثـــري كثيرون في العصر الجاهلي ووصف هؤلاء بالبلغـــــاء << ومن الخطباء البلغاء و الحكام الرؤساء أكثم بن صيفي و ربيعة بن حذار وهرم بن قطبة وعامر بن الظرب ولبيد بن ربيعة >>.[14] ج1 ص 365.

وكان أكثرهم شهرة أكثم بن صيفي حتى أتخذ حكما بين العرب تحتكم إليه وهذا ما يعكسه افتخار ذي الأصبع العدواني به في بعض شعره. [16] ج3 ص 90.

و منا حكم يقضي فلا ينقض ما يقضي

وتنسب إليه حكم ووصايا كثيرة لقومه [14] ج1 ص 401.

ولقد كان خطباء الجاهلية المفوهون كثيرا ما يعمدون إلى حشد الأمثال في خطابتهم يقول الجاحظ <<كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة، ولم يكن الناس جميعا يتمثل بها إلا لما فيها من المرفق و الانتفاع >>.[14] ج1 ص 271.

وحتى يتبين لنا سبب اعتماد الخطباء على هذا الفن النثري في خطبهم نأتي بنماذج منها ثم نوضح الجانب الجمالي الفني فيها:

طائفة من الأمثال:

تجوع الحرة ولا تأكل بثديها (وهذا يضرب في صيانة الرجل الكريم نفسه عن المكاسب الخسيسة).

مقتل الرجل بين فكيه (أي لسانه و ما يتكلم به).

المرء بأصغريه قلبه ولسانه . من استرعى الذئب ظلم . في الجريرة تشترك العشيرة.

و قد يأتيك بالأخبار من لم تزود.

استنوق الجمل (أصبح الجمل ناقة يضرب مثلا لمن يظهر أن عنده رأيا ثم يتضح عجزه).

كالمستجير من الرمضاء بالنار. حلب الدهر أشطره (يضرب مثلا لمن عرف الدهر).

يخبط خبط عشواء (يضرب مثلا في التعثر).

تحت الرغوة اللبن الصريح

طائفة من الحكم:

رب عجلة تهب ريثا.

مصارع الرجال تحت بروق الطمع.

خير الموت تحت ظلال السيوف.

حسبك من شر سماعه.

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم

وإن سفاه الشيخ لا حلم بعــده وإن الفتى بعد السفاهة يحلم

إن خير العلم ما نفع. و من لا يكرم نفسه لا يكرم.

نلاحظ في عبارات هذه الأمثال والحكم اختلافا بتوازن الكلمات توازنا ينتهي بها إلى السجع كما نلاحظ في بعض جوانبها اهتماما بالتصوير، لذلك يقول الميداني << نهاية البلاغة لما تشمل عليه من حسن التشبيه و جودة الكناية >> [17] ج1 ص 5.

فحين سماع هذه الأمثال والحكم أو قراءتها تحس جمال الصياغة لا سيما إذا عمد صاحب المثل والحكمة إلى ضرب من التنغيم الموسيقي للفظة، فيسجع فيه أي ينظمه شطرا من بيت، وقد يعمد استعمال الخيال ليجسم المعنى ويزيده حدة وقوة. ويعلق الدكتور شوقي ضيف مبينا مقدرة العرب البلاغية في العصر الجاهلي بقوله: << إن العرب في الجاهلية عنوا بمنطقهم واستظهار ضروب من الجمال فيه، سواء ضربوا أمثالهم أو تحدثوا أو خطبوا، وقد وصفهم جل وعز أو وصف فريقا منهم بقوله: (ولتعرفنهم في لحن القول). وقوله: (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا). وكأنما أصبحت المقدرة البيانية عندهم سليقة من سلائقهم، ولذلك لم يكن عجبا أن تكون آية الرسول - صلى الله

عليه وسلم- على صدق رسالته معجزة بلاغية لا يستطعون أن يجاروها هي القرآن الكريم (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) >>[15] ج1 ص 409.

ب - الوصايا:<< الوصايا جمع وصية و الوصية ما توجه إلى إنسان أثير لديك من ثمرة تجربة وحكمة أو إرشاد وتوجيه فهي بمعنى النصيحة وقد يطرح السؤال ما علاقة الوصية بالخطبة ؟

فنجيب بالقول إن الوصية لون من ألوان الخطابة، قاصر على الأهل والأقارب والأصدقاء والفرق بينهما أن الوصية تكون من المرأة لابنتها ومن الرجل لقومـــه أو أبنائه عند الارتحـــال أو الشعور بدنو الأجل أو نحو ذلك، والخطابة تكون في المشاهد والمجامع العامة والحروب والمعارك وفي المفاخرة والمنافرة والوفادة على ملك أو أمير - وهذا ما سنراه لاحقا- وفي المواسم والحوادث الجسام >>[18] ص 158.

ومن المشهورين بالوصايا : ذو الأصبع العدواني من وصيته لابنه أسيد قوله :

<< ألن جانبك لقومك يحبوك، وتواضع لهم يرفعوك وابسط لهم وجهك يطيعوك ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك ... وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم، ويكبر على مودتك صغارهم>>[19] ج6 ص 80- 83.

ومن وصية أوس بن حارثة لابنه مالك وفيها كثير من روية الشيوخ ، فضلا عن تلك النفحة العربية التي تقدس الشرف ، وتدعو للدفاع عن الحريم ...

<< يا مالك، المنية ولا الدنية، والعتاب قبل العقاب والتجلد لا التبلد، واعلم أن القبر خير من الفقر وخير الغني القناعة وشر الفقر الضراعة والدهر يومان يوم لك ويوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر وإن كان عليك فاصبر فكلاهما سينحسر >> [19] ج6 ص 80- 83، وهذه الوصية تدل على خبرة في الحياة وبخاصة في ذكره لتقلبات الدهر وذل الفقر وغنى القناعة.

أما من وصايا أكثم بن صيفي لرهطه: << يا بني تميم الصبر على جرع الحلم أعذب من جني ثمر الندامة ، ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم وكلم اللسان أنكى من كلم السنان ، والكلمة مرهونة ما لم تنجم عن الفم فهي نار تلهب ورأي الناضج اللبيب دليل لا يجور، ونفاذ الرأي في الحرب، أجدى من الطعن والضرب >> [14] ج1 ص 408.

وخصت الوصية النساء أيضا كوصية امرأة عوف بن محلم الشيباني لابنتها حين حملها زوجها الحارث بن عمرو ملك كندة << أي بنية إن الوصية لو تركت لفضل أدب، تركت لذلك منك ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال... >> [17] ج1 ص 143، أما خطب الموعظة فأشهر من يمثلها - قس بن ساعدة- الذي سنأخذ خطبته كنموذج للدراسة لاحقا.

الفصل 1
مميزات النص الخطابة في العصر الجاهلي

1.1. الخطبة لغة:

الخطبـة لغة مصدر فعــل (خطب) من باب (قتـــل يتعدى بنفسه وبحــرف الجر).

قال ابن منظور في لسان العرب والخطبة مثل الرسالة التي لها أول وآخر وأما الخطبة بالكسر فهي طلب الزواج جاء في أساس البلاغة: يقال: خاطبه أحسن خطاب وهو المواجهة بالكـــلام.

وخطب الخطيــب خطبة حسنة: واختـــطب القوم فلانا أي دعـــوه إلى أن يخطــب إليهم.

ترددت مادة خ.ط.ب في القرآن الكريم إثنتي عشرة مرة موزعة على إثنتي عشرة ســـورة، و يصعب إحصاء مدى تواتر هذا المصطلح في كتب الحديث والسيرة.

ورد في اللسان لابن منظور في مادة (خ.ط.ب) أن الخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا وهما يتخاطبان. والمخاطبة صيغة مبالغة تفيد الاشتراك والمشاركة في فعل ذي شأن .

قال الليث: إن الخطبة مصدر الخطيب لا يجوز إلا على وجه واحد، وهو أن الخطبة اسم الكلام الذي يتكلم به الخطيب فيوضع موضع المصدر.

قال بعض المفسرين في قوله تعالى: وفصل الخطاب، قال: هو أن يحكم بالبينة أو اليمين، وقيل معناه أن يفصل بين الحق والباطل، ويميز بين الحكم وضده وقيل فصل الخطاب، الفقه في القضاء. [1] ج2ص 856.

أما الزمخشري يرى: أنه يجوز أن يراد بمعنى الخطاب في الآية : القصد الذي ليس فيه اختصار، مخل، ولا إشباع ممل>> [20] ج5 ص 125.

2.1.الخطبة إصطلاحا: الكلام المؤلف، المتضمن وعظا وإبلاغا

وهي فن من فنون الكلام يقصد به التأثير في الجمهور عن طريق السمع والبصر معا. فمما يدخل أثره عن طريق السمع وهو الأسلوب والإلقاء والصوت. وما يدخل أثره عن طريق البصر هو الهيئة والحركة والملامح وتلك المؤثرات هي قوام هذا الفن وملاكه وعرفت: بفن مخاطبة الجماهير بطريقة إلقائية تشتمل على الإقناع والاستمالة.

3.1. نشأتها

الخطابـــة فن قديم ، نشأ مع الإنسان، وصعد معه في مدارج الرقي، بحيث لا تكاد أمة عرفها التاريخ تخلو منها، << و في أثار المصريين القدامى خطب دونت الهيروغليفية كان يقـوم بها الملوك ورجال الديـــن >>[21] ج1 ص 3، وكذا الآشوريون لهم خطب كتبت باللغـــة المسمارية وكان لليونـــــان والرومان والعرب في جاهليتهم خطباء والكتب السماوية تشير إلى خطب الأنبياء في دعوة الناس إلى الله و الدين.

4.1.الدواعي والأهداف

<<الخطابة ضرورة من ضـرورات الحياة الاجتماعية فمصالح الناس متشابكة، والإستبداد والنزاع قائمان في المجتمع، فيحتكم إلى السيف حينا وإلى الحجة الدامغة والكلمة البالغة أحيانا، فنجد الإنسان قد جبل على الدفاع عن نفسه وقومه بلســانه. كما يدافع عنها بسيفه، وأن يسـوق كلمته قبل أن يسل حسامه، فقيل قديما رب قول أنفذ من صول >>[21] ج1 ص 4، فالخطابة أداة الدعوة إلى الرأي والعقيدة في الشؤون المختلفة سياسية واجتماعية واقتصادية ودينية، لها منزلتها في الأمم القديمة، فأنشأ اليونان في العصر الأخير مدارس البيان لتعليم الخطابة والمنطق الفصيح، و إعداد الشباب للحياة العملية بهذه الوسيلة << ومن أقدم هذه المـــدارس مدرسة سقـراط في القرنين، الخامس والرابع ق.م وأنشأ الرومان مثل هذه المدارس في القرن الثاني ق.م. وكان شيشرون من أكبر الخطباء والفلاسفة الرومبين>>[21] ج1 ص 5.

ولدى العرب مجال للخطابة منذ القديم << فيخطب كل خطيب مصقع كقس بن ساعدة وأكثم بن صيفي وكان لهم مجتمعات للمشاورة في تدارك الحرب، أو إغارة على قوم آخرين.

أو للنصيحة والموعظة كما كانت قريش تجتمع إلى جد النبي كعب بن لؤي، أو لعقد حلف وإبـرام عهد، وفي كل مجـــال من هذه المجـــالات متسع للقول والخطابة >> [21] ج1 ص 6، ويضيف محمد طاهر درويش مبينا علو منزلة الخطابة و شدة الحاجة إليها، معتمدا في ذلك على ما جاء في القرآن الكريم في أسلوب خطابي يلفت الانتباه، و يشد الأسماع << ونزداد شعورا بمنزلة الخطابة وشدة الحاجة إليها، إذا تأملنا ما كانت عليه الأمة العربية ونظرنا في القرآن نفسه وتدبرناه، فسنراه يتجه إلى قوم أميين لا يقرءون، يجتمعون له فيخاطبهم، ويصافح أسماعهم.

سنراه بمثابة الخطب تلقى فيهم، فينفعلون بها، وسنراه يتجه إليهم في أسلوب خطابي. فلا غرابة إذا في أن تكون الخطابة أداة السياسة والقيادة.ولسان الزعماء والقادة، وأن تكون في كل دعوة لسانها الناطق، وكانت سلاح الحرية في أثينا ولسان الديمقراطية في روما، وفصل الخطاب يوم السقيفة، وعماد الخلافة الأموية وملاك الخلافة العباسية في إثبات حقهم فيها بالـــوراثة والقرابة وهي اليوم ضرورة حيويـــة

للدول والشعوب والمجامع الدولية، لا يستغني عنها حاكم ولا زعيم ولا قائد ولا مصلح ولا نائب ولا معلم ولا محام ولا كاتب ولا ممثل >> [21] ج1 ص 8.

إن الدواعي سالفة الذكر من أسباب رقي الخطابة، أضف إلى ذلك حرية الفكر والرأي والقول:<< هذه أمة اليونان في عصرها الذهبي في القرن الخامس قبل الميلاد، قد ازدهرت فيها الآراء السياسية، ودافعت عن وجودها، بما قام فيها من صراع تجلى في مجتمعاتها على صورة الخطابة والمناظرات، و اشتهر الخطباء، فكان – بريكليس- في القرن الخامس ق.م و– ديموستين – في القرن الرابع و– أشينس وهيريدس. ونضرب مثلا آخر بأمة أخرى ألا وهي أمة الرومان، التي ثار شعبها على النظام الأرستقراطي والحكم الدكتاتوري، فانتعشت الخطابة عندهم << كشيشرون ويوليوس قيصر وسالوسيتس ولوكيرتس>>[21] ج1 ص 8.

وربما كانت أقل شأنا عند العرب منها عندهما، والسبب راجع إلى طبيعة نظام الحكم وتطور الحكومة، أما العرب فنجد حكمهم قبليا في منازعاتهم ومنافراتهم مثلما سنبين ذلك في الفصل الأول – ولم يكن مجال القول في الخطابة القضائية عندهم ذا سعة، لأنهم يحتكمون في تقاضيهم إلى الشهود أو التحكيم أو اليمين. ويبقى العرب في جاهليتهم أهل إباء واستقلال في عصر الفروسية.

ومع ذلك فإن اليونان كانت تهتم أكثر بالخطابة نظرا لازدهار الظروف السياسية عندها، لذلك نجد الخطابة اليونانية مثالا أقرب إلى الكمال والشمول بين الخطابات القديمة، قننها أرسطو ونقدها نقدا واضحا، فهو أول من دون أصول هذا الفن في كتابه <<الخطابة>> و جعل الكلام فيها على أسس فنية، فهو يحللها، ويبين منزلتها من البلاغة وأنواعها، وصلتها بالمنطق، وأجزاء الخطبة وكيف يؤثر الخطيب وكيف يكون.

5.1.بين الخطابة والشعر

يعتمد كل من الخطابة والشعر على اللغة الواضحة، دون إسفاف أو غلو يدعو إلى التعقيد، وكلاهما يخاطب العقل والعاطفة بقدر مشترك تختلف مقاييسه بينهما، وكلاهما ينبغي أن يصور المنظر ويبينه للعيون، إلا أن الخطيب يتخلى عن خاصيتين في الشعر وهما الوزن والقافية، وقد نجده يصوغ عباراته في إيقاع يثير الإنفعال، و يلاحظ في تقسيم الجمل و للخطابة صفتها الأدبية فغايتها الإقناع كما سبق وأن أشرنا. عن طريق تحريك الأفكار وإثارة المشاعر وللبلاغة في هذا المضمار الشأن الأول [21] ج1 ص 12.

ويستدل يليا الحاوي على صحة هذا الكلام بقول الشيباني: << إن البلاغة في ثلاثة أمور: أن تغوص لحظة القلب في أعماق الفكر، و نتأمل وجوه العواقب وتجمع بين ما غاب وما حضر، ثم يعود القلب إلى ما أعمل الفكر، فيحكم سياق المعاني والأدلة، ويحسن تنضيدها ثم يبديها بألفاظ رشيقة ومع تزيين معارضها >> [22] ص 13.

6.1.الخطابة بين لغة المنطق ولغة الإنشاد

يرى أرسطو أن الخطابة و الجدل ينفردان من بين الفنون بالإلتجاء إلى العكس، وافتراض وجود الأضداد وهما وحدهما من بين فنون القول يعالجان القضايا المتناقضة على حد سواء، وإلى هذا ترجع العلاقة بينهما فالخطابة والجدل متصلان [23] ج1 ص 96.

والخطابة كالجدل يستندان في منهجهما إلى الأدلة، والدليل وإن كان يقينيا قاطعا فهو البرهان، وإن كان ظنيا فهو الحجة، وعلى كليهما تعتمد الخطابة والجدل وهكذا تلتقي الخطابة والجدل بالمنطق، لأن غاية المنطق أن يوصل إلى التصديق يقينا أو ظنا، وهما يتجهان نحو هذه الغايـــة وكما أن براهين الخطابة في أكثر الأحيان معتمدة على المنطق وتختلف عنه في غرضها وهو الإقناع ولأنها لا تبحث عن الحقائق في ذاتها، وإنما تبحث في كيفية تقديم مجموعة من الحقائق إلى جمهور خاص بطريقة تضمن الاستجابة والإقناع [21] ج1 ص 11.

7.1.صلة الخطابة بالأخلاق والسياسة

يرى أرسطو أن الخطابة فرع من علم الأخلاق والسياسة معا، ويعلل ذلك بأن الأخلاق الفردية تقود إلى الأخلاق الاجتماعية، وأن للخطابة شأنا في تربية المواطن، إذ تيسر له الدفاع عن نظم الحكم، يقول: <<متى حصلنا على الأدلة (عوامل الإقناع) المتصلة بأخلاق الخطيب، وبالسامعين واستعدادهم، وبالخطبة نفسها كان استعمالها ميسرا لكل من يستطيع صوغ الأقيسة، ويقدر على النظر فيما يتصل بالأخلاق والفضيلة، ويعرف الميول والانفعالات معرفة تجعله يميز طبيعة كل ميل على حده، في خصائصه وظروف نشأته، و يتبع هذا أن تكون الخطابة بمثابة فرع من فروع الجدل، أو فرع من فروع دراسة الأخلاق، يستحق أن يطلق عليه إسم السياسة، ومن هنا نفهم لماذا تلبس الخطابة ثوب السياسة وتشكل بشكلها >> [23] ج1 ص 101- 102.

8.1.أسس الخطابة

1.8.1.الإيجاز

إعمال الفكر في استنباط المعاني الجديرة بالعرض والإقناع وحصرها. ومن وسائل الإقناع استعمال الأمثلة، قال ابن المقفع << إذا جعل الكـــلام مثلا كان أوضح للمنطـــق و أنق للسمع، وأوسع لشعب الحديث. >>

2.8.1.التركيز في التعبير

ترتيب تلك المعاني التي يقصد عرضها، وإحكام ترتيب الخطبة وربط أجزائها.

3.8.1.وضوح الفكرة

أي الكلام المفصح من هذه المعاني وما يتصل بها من حجج وبراهين والذي يجب أ ن يراعى فيه طبقات السامعين وأحوالهم وما يناسبهم، تأنق في القول أو سذاجة وتصريح أو تعريض. ويختلف التعبير باختلاف الموضوع إن كان جدا أو هزلا، شكرا أو زجرا>>[23] ج1ص101- 102.

9.1.بناء الخطبة

يعنى بناء الخطبة تنظيم الأقيسة والأدلة، و يوحد بينها بإحكام حتى تتوفر الوحدة العضوية تأتي الفكرة الثانية وليدة الفكرة الأولى، كما تأتي النتيجة وليدة السبب [22] ص 18.

وأرسطو أول من عرض لتقسيم مراحل بناء الخطبة، مميزا المقدمة والعرض والتدليل والنتيجة والحقيقة أن الخطبة اليونانية أشد إحكاما من الخطبة العربية – الجاهلية – في طبيعة بنائها لأن اليونانيين عرفوا الفلسفة والمنطق والهندسة مما أثر ذلك على خطبهم.

والأجزاء الثلاثة التي تعتمد عليها الخطبة عموما هي: المقدمة والعرض والخاتمة.

1.9.1.المقدمة

هي مدخل للخطبة هي فاتحة الكلام الغرض منها تنبيه السامعين إلى موضوع الخطبة، وترغيبهم في الاستماع، وإعدادهم للإقناع، وعلى نجاح المقدمة أو فشلها يتوقف نجاح الخطيب أو فشله. لهذا وجب أن تصرف العناية إلى تحسينها، واستخدام أسباب البراعة فيها، لا حظ ما يقوله ابن الأثير في هذا الشأن: << قد خص الافتتاح بالاختيار، لأنه أول ما يطرق السمع في الكلام، ويجب أن يراعى فيه سهولة اللفظ وصحة السبك، ووضوح المعنى، وتجنب الحشو، وينبغي أن يكون الافتتاح مرتبطا مع الخطبة ببراعة الاستهلال، فإن براعة الاستهلال من أخص أسباب النجاح في الخطبة >> [24] ص 64.

فوجب أن تكون الألفاظ سهلة والمعاني قريبة المنال، والخطيب الناجح هو الذي يحسن تخير الألفاظ والعبارات الموسيقية، لما لها من سلطان قوي على نفوس الجماهير.

ويجب أن تكون المقدمة مناسبة للخطبة من حيث القدر والنوع، ويستحسن فيها الإيجاز باعتبارها مفتاحا للموضوع ليس إلا.

وما يستهجن فيها الإسهاب الذي ينتج الملل، والابتذال، والبعد عن الموضوع فلا تحقق الترابط والالتحام المنشودين.

ويستطيع الخطيب أن يعتمد على موارد كثيرة ينهل منها لمقدمة خطبته مثل:

أ- الاستهلال بحكمة أو مثل أو بعض أقوال السالفين.

ب- الابتداء بعرض القضية وذكر الوقائع، كما فعل الأخنف بن قيس مع عمر بن الخطاب حين وفد عليه في أهل البصرة ، يطلبون أن يحضر لهم نهرا عذبا، قال الأحنف (الخير):

<< يا أمير المؤمنين. إن مفاتيح الخير بيدي الله و قد أتتك وفود أهل العراق، وإن إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازل الأمم الحالية، والملوك والجبابرة، ومنازل كسرى وقيصر وبني الأصفر، فهم من المياه العذبة والجنان المخصبة في مثل حولاء السلي وحدقة البعير، وإن نزلنا أرضا نشاشة، لا يجف ترابها، فإلا ترفع خسيستنا. وتأمر لنا بحفر نهر نستعذب به الماء هلكنا >> [19] ج1 ص 116.

ج- عرض القضية المخالفة لرأيه، وذكر أقوال الخصوم، أو ذكر القضية. بوجهها العام قبل التفصيل فيها.

د- استغلال أحوال الخطيب والسامعين وظروف الزمان والمكان والأخذ منها، فالخطب الدينية تبدأ بالبسملة أو بالآيات القرآنية.

إن المقـدمة ضرورة لا يستغني عنها الخطيب، لا سيما إذا كان السامـعون عازفين عن السماع إليه، وبخاصة إذا كان الخطيب مغمورا، أو يكون لدى الجمهور شعور عدائي أو تعصب ضده، أو يكون للموضوع فضل وأهمية ولكن السامعين لا يقدرون مدى أهميته .

ومع هذا قد يستغني الخطيب عن المقدمة إذا كان قد سبقه إلى الكلام في الموضوع خطباء أفسحوا له الطريق وهيئوا لمقاله الأذهان، أو كان السامعون في مستوى وعـــي وإدراك سليمين يغنيان عن التمهيد، أو كان الموضوع معروفا لديهم لا يحتاج إلى الكلام الكثير.

2.9.1.موضوع الخطبة – العرض –

يأتي بعد المقدمة بما يتبعه من الإثبات بشقيه: التدليل والتفنيد. وهو الجزء الأساسي من الخطبة، يفصح فيه الخطيب عن غرضه، ويواجه السامعين بما يريد أن يتحدث إليهم فيه، وإذا كان من الممكن الاستغناء عن المقدمة والخاتمة، فهذا الأصل لا يمكن الاستغناء عنه، وبدونه لا يقوم للخطبة بنيان. ولا بد لسلامته من أن يدور الكلام فيه حول مسألة واحدة، وألا يتناول إلا موضوعا واحدا، وأن يأخذ سبيل الترتيب المنطقي، فتبسط المسألة ويرقى فيها درجة بعد درجة أي يعتمد على التدرج. فلا يقدم ما حقه التأخير. ولا يؤخر ماحقه التقديم،بحيث يرتبط كل جزء بما قبله، ويسلم إلى ما بعده،مراعيا في ذلك الوضوح والابتغاء عن الغموض التعقيد، ليصل إلى النتيجة المطلوبة.

<< ومن عوامل نجاح الخطيب في هذه المرحلة، أن يلتزم الصدق وفي قوله، وأن يتحلى بالأدب اللائق في مناقشة خصمه، و يترفع عن السباب والإسفاف، معتمدا على الحق والحجة والمنطق في الإقناع والتأثير. >> [21] ج2 ص 26.

3.9.1.خاتمة الخطبة

لا شك أن خاتمة الخطبة لها أهميتها، لأنها تلخيص للموضوع، فإذا كانت المقدمة تعد السامع للتأثر، فإن الخاتمة هي التي تبقى من الخطبة في نفس السامع لأنها تكون آخر مرحلة يرتكز عليها انتباهه، فهي

الفرصة الأخيرة لاجتذاب العواطف. ولقد دأب الخطباء في نهاية خطبهم على إيجاز ما سبق لهم أن ألموا به، كما أن منهم من يعمد إلى استخلاص فكرة عامة رئيسية، توقظ سائر الأفكار التي عرضت. لهذا كان من الضروري ألا تتسع الخاتمة إلى الجدال والنقاش كالموضوع، فوجب أن تكون موجزة، لأن الإيجاز يزيدها قوة.

10.1.أنماط نص الخطابة في العصر الجاهلي

1.10.1.المحاورات والمنافارات

<< المحاورة هي التحاور والتراجع في الكلام والحديث وهي من ضرورات الاجتماع والحياة وكان العرب كثيري المحاورة لكثرة خصومهم ومفاخراتهم وتنازعهم على الشرف وسواه. وتشمل المحاورات: المنافرة والمفاخرة ونحوهما من المحاورات العامة في مختلف شؤون الحياة. فالمفاخرة هي مصدر فاخر وهي تفاخر القوم بعضهم على بعض وكانوا يفاخرون بالحب والشرف و الأخلاق الكريمة والعز والثروة وكثرة العدد .

والمنافرة هي المحاكمة في المفاخرة وأصلها من قولهم: أينا اعز نفرا، فهي التحاكم إلى الأشراف، ليفصلوا بينهم ويقضوا بالشرف لأحدهم >> [18] ص 161.

وأشهر المنافرات بين الجاهليين هي منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل وقد أورد صاحب ألاغاني نصها كما يلي:

لما أسن أبو براء: عامر بن مالك بن جعفر بن ملاعب الأسنة، تنازع في الرياسة عامر ابن الطفيل بن مالك بن جعفر وعلقمة بن علاثة بن عوف بن الاحوص بن جعفر .

فقال علقمة: كانت لجدي الأحوص وإنما صارت لعمك بسببه، وقد قعد عمك عنها، وأنا استرجعتها، فأنا بها منك أولى، فشرى الشر بينهما وسارا إلى المنافرة فقال علقمة: إن شئت نافرتك فقال عامر: قد شئت والله إني لأكرم منك حسبا ، وأثبت منك نسبا ، وأطول منك قصبا.

فقال علقمة: والله لأنا خير منك ليلا ونهارا فقال عامر والله لانا أحب إلى نسائك أن أصبح فيهن منك، وأنا انحر منك للقاح وخير منك في الصباح وأطعم منك في السنة الشياح فقال علقمة: أنا خير منك أثرا وأحد منك بصرا وأعز منك نفرا وأشرف منك ذكرا فقال عامر ليس لبني الأحوص فضل على بني مالك في العدد وبصري ناقص وبصرك صحيح ولكن أنافرك إني أسمى منك سمة وأطول منك قمة وأحسن منك لمة وأجعد منك جمة وأسرع منك رحمة وأبعد منك همة فقال علقمة: أنت رجل جسيم ، وأنا رجل قصيف، وأنت جميل، وأنا قبيح ولكني أنافرك بآبائي وأعمامي فقال عامر أباؤك أعمامي ولم أكن لأنافرك بهم، ولكن أنافرك، أنا خير منك عقبا وأطعم منك جدبا.

فقال علقمة: قد علمت أن لك عقبا و قد أطعمت طيبا ولكني أنافرك إني خير منك وأولى بالخيرات منك قال عامر: إني والله لأركب منك في الحماة، وأقتل منك للكماة، وخير منك للمولى والمولاة فقال علقمة:

والله إني لبر وانك لغادر ففيما تفاخرني يا عامر فقال عامر والله إني لأنزل منك للقفرة وأنحر منك للبكرة و أطعم منك للهبرة وخرجا حتي جعلا منافرتهما إلى هرم بن قطبة الفزاري فاحتال هرم للأمر لئلا ينفر أحدهما على صاحبه وجلس واجتمع الناس فقام فقال: يا بني جعفر قد تحاكمتما عندي، وأنتما كركبتي البعير الأدرم وليس فيكما أحد إلا وفيه ما ليس في صاحبه وكلاكما سيد كريم>> [16] ج15 ص 51.

وقد عمر هرم هذا إلى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.فقال عمر: أيهما كنت منفرا؟ فقال يا أمير المؤمنين لوقلتها الآن لعادت جذعة (أي الحرب أو الفتنة) فقال له عمر: أنك لأهل لموضعك من الرياسة .>> [18] ص 162.

2.10.1. الحض على القتال وإصلاح ذات البين

إن موضوعات الخطابة الجاهلية مستفادة من واقع العصر الذي عاشوا فيه، فهي تتناول- كموضوع رئيسي- الحماسة والشجاعة وما إلى ذلك من معان تتصل بالبطولة التي كانت تصور المثال الأعلى الذي يتوق إليه الجاهليون، وأفضل هذه الخطب خطبة هانئ بن قبيصة الشيباني يوم ذي قار إذ قال: << يا معشر بكر هالك معذور خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر. المنية ولا الدنية، يا معشر بكر، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحو، أكرم منه في الإعجاز والظهور يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا من بد >> [25] ج1ص 169، فالمجتمع الجاهلي مجتمع يقوم على الحرب والقبيلة مغيرة أو مغار عليها فلابد إذن من بعث الشجاعة في النفوس، إلى درجة << إن الموت على الفراش يسمى عندهم موت حتف الأنوف وقتيل الحرب لا تنح النساء عليه>>[26] .

كما كان يدعو خطباؤهم إلى الحرب وسفك الدماء كانوا يدعون إلى الصلح وإصلاح ذات البين إلى أن تضع الحرب أوزارها، يقول ربيعة بن مقروم الضبى:

ومتى تقم عند اجتماع عشيرة خطباؤنا بين العشيرة يفصل[15] ج1 ص 411.

ومن بين ما ورد من خطب إصلاح ذات البين إصلاح مرثد الخير، بين سبيع بن الحارث، وميثم بن مثوب بن ذي رعين اللذين تنازعا الشرف، حتى تشاحنا، وخيف أن يقع بين حييهما شر، فبعث إليهما مرثد الخير وكان قيلا فأحضرهما ليصلح بينهما ، فقال لهما: << لا تنشطوا عقل الشوارد ولا تلقحوا العون القواعد ولا تؤرثوا نيران الأحقاد ففيها المتلفة المستأصلة والجائحة والآليلة، وعفوا بالحلم أبلاد الكلم، وأنيبوا إلى السبيل الأرشد والمنهج الأقصد، فإن الحرب تقبل بزبرج الفرو وتدبر بالويل والبثور، ثم قال:

ألا هل أتى الأقوام بذلي نصيحـــة

صبوت بها من سبيعا وميثمـــا

وقلت اعلما إن التدابر غـــادرت

عــواقبه لذل والقل جرهمـــــا

فلا تقدحا زند العقوق وابقيـــا

على العزة القعساء إن تتهدمـــا

ولا تجنيا حربا تجر عليكمـــا

عواقبها يوما من الشر أشأمـــا

حذار، فلا تستنبثوها فإنهـــا

تغادر ذا الأنف الأشم مكثمـــا [25] ج1 ص 92.

3.10.1.خطب الزواج (الإملاك)

وهي أيسر خطب الجاهلية، وأضعفها قوة بيانية وأكثرها إيجازا، تكاد لا تتعدى سطورا مجزوءة، أهمها خطبة أبي طالب عم النبي -عليه الصلاة والسلام- في زواجه بالسيدة خديجة رضى الله عنها فقال: << الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع اسماعيل وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا، وجعلنا الحجام على الناس وإن محمد بن عبد الله لا يوزن به فتى من قريش، الأرجح به بركة وفضلا وعدلا، وان كان في المال مقلا فان المال عارية مسترجعة، وظل زائل وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك وما أردتم من الصداق فهو علي >> [25] ج2 ص 284.

4.10.1. خطب الوفود

ومن المناسبات التي كانت تستدعي حضور البديهة وفصاحة اللسان وقوة البيان في إلقاء الخطب: مناسبة الوفادة التي قال عنها صاحب العقد الفريد: << فإنها مقامات فضل ومشاهد حفل، يتخير لها الكلام وتستهذب الألفاظ ، وتستجزل المعاني >> [19] ج1 ص 227، ويعطي وصفا للخطيب الوافد فيقول : << ولابد للوافد عن قومه إن يكون عميدهم وزعيمهم الذي عن قوتـــه ينزعون، وعن رأيه يصـــدرون، فهو واحد يعدل قبيلة ولســـان يعرب عن ألسنة >> [19] ج1 ص 228. أي يجب أن يتصف الخطيب الوافد بقوة الشخصية ورجاحة العقل حتى يمثل قومه أحسن تمثيل.

يؤكد هذه الأهمية لخطب الوفادة رأي د زكي مبارك :<< ومن أهم ما نسب إلى العصر الجاهلي من آيات النثر الفني خطب وفود العرب عند كسرى وهي خطب طويلة فصيحة.>> [27] ص 40

ولعل أهم وأشهر هذه الخطب خطبة النعمان بن المنذر عند كسرى وقد حضر وفود الروم والهند والصين فذكروا من ملوكهم وبلادهم، فافتخر النعمان بالعرب، وفضلهم على جميع الأمم لا يستثني فارس ولا غيرها فقال كسرى – وأخذته عزة الملك :

" يا نعمان لقد فكرت في أمر العرب وغيرهم من الأمم، فوجدت للروم حظا في اجتماع لفتها وعظم سلطانها ورأيت للهند نحوا من ذلك في حكمتها وظنها وكذلك الصين في اجتماعها وكثرة صناعات أيديها ولم أر للعرب شيئا من خصال الخير في أمر دين و لا دنيا..."

وقد رد النعمان بخطبة وفى فيها بغرض المقام، ثم جمع حكماء العرب ووفد بهم على كسرى، ومن بينهم أكثم بن صيفي الذي تلا عليه بعض حكمه العميقة مثيرا إعجابه وحاجب بن زرارة والحارث بن عباد وعمرو بن الشريد وخالد بن جعفر الكلابي وعلقمة بن علاثة العامري وقيس بن مسعود الشيباني وعامر بن الطفيل وعمرو بن معدي كرب والحارث بن ظالم المري.

5.10.1.سجع الكهان

الكهانة هي الإخبار عن الأمور الغيبية ماضية كانت أو مستقبلية، ولقد كان العرب الجاهليون يغرقون في الخرافات والأساطير وينصرفون في أحيان كثيرة إلى الفحش والمنكر فكان بعض الكهان والزعماء ينبرون لزجرهم وحدهم عن غيهم بهذه الخطب ، وأحيانا أخرى يفزع العرب إلى كهانهم في كل ما يطرأ عليهم من أمر أو يستعصى عليهم من مشكلات وأزمات وشدائد ويستطبونهم في الأدواء .ولعل تسمية هذه الخطب بسجع الكهان راجع إلى كون كلام الكهان مسجوع، يقول الجاحظ : <<...كانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد رئيا، من الجن مثل جازي جهنية ومثل شق وسطيح وعزى سلمة وأشباههم كانوا يتكهنون ويحكمون بالاسجاع كقوله : << و الأرض والسماء والعقاب والصقعاء واقعة ببقعاء لقد نفر المجد بني العشراء للمجد والسناء >> [14] ج1 ص 176- 177.

ولم تقتصر هذه الخطب على الكواهن بل هناك كاهنات مثل زبراء التي تنذر قومها وتنبئهم بمباغتة عدوهم لهم << واللوح الخافق والليل الغاسق والصباح الشارق والنجم الطارق إن شجر الوادي ليأدو ختلا ويحرق أنيابا عصلا وإن صخر الطود لينذر ثكلا لا تجدون عنه معلا>> [25] ج1 ص 126.

11.1.أعلام الخطابة في العصر الجاهلي : نماذج من خطبهم

1.11.1.مرثد الخير

كان مرثد الخير بن ينكف قيلا، وكان حدبا على عشيرته محبا لصلاحهم وكان سبيع بن الحرث وميثم بن مثوب بن ذي رعين تنازعا الشرف حتى تشاحنا وخيف أن يقع بين حييهما شر فيتفانى جذماهما ، فبعث إليهما مرثد فأحضرهما ليصلح بينهما فقال لهما : [25] ج1ص 92.

إن التخبط وامتطاط الهجاج واستحقاب اللجاج، سيقفكما على شفا هــوة، في تــوردها بوار الأصيلة وانقطاع الوسيلة ، فتلافيا أمركما قبل انتكاث العهد وانحلال العقد وتشتت الألفة وتباين السمعة وأنتما في فسحة رافهة وقدم واطدة والمودة مثرية والبقيا معرضة فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب: ممن عصى النصيح، وخالف الرشيد وأصغى إلى التقاطع، ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم، وكيف كان

صيور أمورهم فتلافوا القرحة قبل تفاقم الثأي وإستفحال الداء وإعواز الدواء ، فإنه إذا سفكت الدماء استحكمت الشحناء وإذا استحكمت الشحناء تقضبت عرى الإبقاء وشمل البلاء .مقال سبيع بن الحرث: فقام سبيع بن الحرث، فقال:أيها الملك إن عداوة بني العلات لا تبرئها الأساة ولا تشفيها الرقاة ولا تستقل بها الكفاة والحسد الكامن هو الداء الباطن، وقد علم بنو أبينا هؤلاء، أنا لهم ردء إذا رهبوا وغيث إذا أجدبوا وعون إذا حاربوا وعضد ومفزع إذا نكبوا وإنا وآياهم كما قال الأول:

إذا ما علوا قالوا أبونا وأمنـــا [25] ج1 ص 92- 93 وليس لهم عاليـــن أم ولا أب

مقال ميثم بن مثوب: فقام ميثم بن مثوب فقال: << أيها الملك إن من نفس على ابن أبيه الزعامة، وجدبه في المقامة واستكثر له قليل الكرامة كان قرفا بالملامة ، ومؤنبا على ترك الاستقامة ، وإنا والله ما نعتد لهم بيد إلا وقد نالهم منا كفاؤها، ولا نذكر لهم حسنة إلا وقد تطلع منا إليهم جزاؤها ولا ينفيا لهم علينا ظل نعمة إلا وقد قوبلوا بشرواها ونحن بنو فحل مقرم لم تقعد بنا الأمهات ولا بهم، ولم تنزعنا أعراق السوء ولا إياهم، فعلام مط الخدود، وخزر العيون، والجخيف والتصعر والبأو والتكبر؟. [25] ج1 ص92-93. ألكثرة عدد، أم لفضل جلد، أم لطول معتقد ؟ وإنا وإياهم لكما قال الأول :

لاه ابن عمك، لا أفضلت في حسب

عني، ولا أنت دياني فتحزوني

ومقاطع الأمور ثلاثة: حرب مبيرة، أو سلم قريرة أو مجداة وغفيرة .

مقال مرثد الخير:

فقال الملك: <<لا تنشطوا عقل الشوارد، ولا تلقحوا العون القواعد ولا تورثوا نيران الأحقاد، ففيها المتلفة المستأصلة والجائحة والآليلة ، وعفوا بالحلم أبلاد الكلم وأنيبو إلى السبيل الأرشد والمنهج الأقصد فان الحرب تقبل بزبرج الغرور وتدبر بالويل والثبور فقالا: لا أيها الملك، بل نقبل نصحك ونطيع أمرك ونطفئ النائرة ونحل الضغائن ونثوب إلى السلم >> [25] ج1 ص 92- 93.

تحليل نص الخطبة:

إن نص هذه الخطبة المتمثل في الكلام المنسوب إلى مرثد الخير ليعكس جانبا من حياة العرب في ميلهم إلى الصلح ، وخاصة وأن بيئة العصر الجاهلي اشتهرت بكثرة الحروب واستمرارها لمدة زمنية طويلة كحرب - داحس وغبراء- وحرب – البسوس- فكثرت الخلافات بين العشائر مما استدعى الصلح بينها، وعلى غرار هذا يبدو مرثد الخير حكيما فيستهل كلامه بالأفكار والنصائح العامة ويقول أن من يمتطي رأسه ويمضي في غيه يِؤدي به ذلك إلى الهلاك و ضياع الأصل ويتعذر أمر النجاة، ثم يدعو الطرفين سبيع بن الحرث وميثم بن مثوب إلى أن يتجنبا الفرقة قبل أن ينتقض عهد الصفا بينهما ويحل الشقاق وتقطع الأرحام، واعظا إياهم بأخذ العبرة ممن سبقهم وينهي قوله بدعوتهم إلى الوئام والتوافق.

أما سبيع بن الحرث فقد رد ساخطا غاضبا وقال مخاطبا الملك إن عداوة ذوي الأرحام لا ينجع فيها دواء ولا ينهض بها الحكماء لإنهم متحاسدون والحسد داء كامن يضطرم في الأحشاء. ثم يفخر بنفسه وبرهطه ويقول أنهم يدافعون عن منافسيهم من الأقارب ويغدقون عليهم وقت الحاجة وينهي كلامه بنوع من الهجاء إذ يخفض من قدرهم ويجعلهم ذوي أصل وضيع بالرغم من إدعائهم الأصل الرفيع.

ورد ميثم بن مثوب يبدأ من حيث انتهى مقال سبيع بن الحرث وهو يخاطب الملك بأن من ينكر الزعامة على أخيه من أبيه ويضع منه في مجالس الناس ويحط من قدره يكون جديرا باللوم لتخليه عن مبادئ الاستقامة، وسفه قول خصمه لأنهم لا يقابلون الجميل بمثله، ثم يتفاخر بنجابة أصله وأنه و قومه لا يرون في انتسابهـــم إلى أمهاتهم غضاضة ويتعجب من تكبر خصمه عليه ويتمثل ببيت من الشعر ينكر فيه أن يكون وقومه تبعا لخصومهم. وينهي كلامه بالقول أن مقاطع الأمور ثلاثة: إما الحرب و السلم أو المسامحة. يأتي قول مرثد الخير دعوة إلى المسامحة والكف عن إستسعار الحرب ويحضهم على الأخذ بسنة الحلم والرشاد. وبالتالي فإننا نجد في نصوص الخطبة هذه ثلاثة أشخاص تتأدى عنهم ثلاثة مواقف فالشخص الأول هو مرثد الخير الذي يقف موقف المسالم الحكيم الناظر في عواقب الأمور، المتعظ مما رأى في أيامه، فيجعل العقل الأساس في تقديم النصح و الفصل فيما إلتبس من الأمور .أما سبيع بن الحرث الذي يظهر في البداية حكيما ولكن حكمته لا تخلو من هوى النفس الذي يظهر في رسم الصورة الجميلـــة لنفسه ولقومه بل تكاد تكـــون صورة مثاليـــة فهو يميل إلى الحقد والخصومة بعكس ميثم بن مثوب الذي يظهر أشد ميلا إلى الأخذ بالعقل وإن كان دون مرثد الخير في هذا إذ كان مدافعا أكثر منه مهاجما مما تقدم << نتبين أن خطبة إصلاح ذات البين تمثل بنوع من الحوار المتعدد المواقف والأصوات تنازع إنسان ذلك العصر بين الحـق والباطـــل والخيـــر والشر والمحـبة والحقد و الغيظ والتسامح وهو الموضوع الدائم الذي يتواقع فيه بنو البشر منذ أقدم العصور وهي تطلعنا كذلك على جانب من جوانب نزعة الفروسية التي تطغى على النفس وتحول بينها وبين الاعتدال فتصيب صاحبها بالغرور>>[22] ص 38.

2.11.1.نص خطبة قس بن ساعدة:

أيها الناس اسمعوا وعوا. وانظروا. واذكروا من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت؟ ليل داج ونهار ساج وسماء ذات أبراج.ألا إن أبلغ العظات السير في الفلـــوات والنظر إلى محل الأمـــوات إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبـــر ! مالي أرى النـــاس يذهبـــون، فلا يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا هناك فناموا يا معشر إياد أين الآباء والأجداد ؟ وأين المريض والعواد؟ وأين الفراعنة والشداد ؟ أين من بنى وشيد ؟ و زخرف ونجد وغره المال والولد أين من طغى وبغى وجمع فأوعى ؟ وقال "أنا ربكم الأعلى ألم يكونوا أكثر منكم أموالا ؟ وأطول منكم آجالا؟ "

في الذاهبين الأوليـــــــن من القـــــرون لنا بصائر

لما رأيت مـــــــــواردا للمـــوت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحـــــوها تمضي والأكابر الأصاغر
لا يرجـــــع الماضي ولا يبقى من الباقيـــــن غابر
أيقنـــــت أني لا محـــا لة حيث صار القوم صائر. [16] ج15 ص193.

تحليل نص الخطبة:

لا شك أن الخطب التي انتهت إلينا من الجاهلية تبدو قليلة بالنسبة إلى العدد الكبير من أسماء الخطباء التي تذكر في كتب التاريخ وإذ كان الشعر أيسر حفظا من النثر، قد غاب عنا معظمه فكيف بالنثر وهو أكثر صعوبة من الشعر من حيث الحفظ لهذا إخترنا خطبة قس بن ساعدة التي تجسد لنا واقع الخطابة في العصر الجاهلي من حيث المعاني والأفكار التي اختلفت عن التي جاءت في النموذج الأول، ومن حيث الخصائص الفنية كما سنبين لاحقا .

في نص هذه الخطـــبة يستهل قس بن ساعدة كلامـــه بدعوة الناس إلى أخذ الموعظة منه بتأمل وبتعقل << تعتمد هذه الخطبـــة في باعثها الأول التأمل الذي ينظر إلى الأشياء بعين الصيرورة والزمن، محدقا إلى الوجود، نازعا مما وقع فيه إلى ما سوف يقع بعد حين. وإذا كانت الأفكار التي يفكر بها والخواطر التي خطرت له لا تعدو الأفكار والخواطر البديهية، فإنها كانت تقتضي من الجاهلي كثيرا من الجهـــد والمشقة لإدراكـــها و التحقـــق منها... >>. [22] ص 55. فوضح الخطيب لمستمعيه حتمية المـــوت، الموت الذي يذهب بهم دون أوبة. ثم يحضهم على السيـــر في الفلوات والنظر في القبور ليعتبروا مما سوف يؤولون إليه، مما هم عليه قويهم وضعيفهم وغنيهم الذي زخرف القصور ونعم بالأثاث والمال والولد. وينهي خطبته مستسلما لقدر الموت متعظا بعظته، موقنا أنه سيمضي مضي ذويه وأهله الأولين. ولعل فكرة حتمية الموت عند العرب في هذا العصر خطيبا كان أم شاعرا إنما تولدت لديه عن خلاصة تجارب وعن تأمل في الحياة ليس إلا، أي أن دون يؤسس ذلك على مبدأ ديني منطلقه الإيمان ومثال ذلك ما يقوله عنترة بن شداد، فإذا كان خطيبنا يزهد في الدنيا وقد أدرك حتمية الموت فإن عنترة يدفعه هذا الاستنتاج إلى الإقدام ومحاولة إثبات الذات بالنسبة لقومه، فهو يقول:

بدرت تخوفني الحتوف كأنني
عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها أن المنية منهـــــل
ولابد أن أسقى بكأس المنهل
فاقني حياءك لا أب لك واعلمي

فيجتمع كل من عنترة وقس في نقطة واحدة وهي إدراكهم لحتمية الموت مما جعلهما موضع حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم- إذ قال عن عنترة << ما وصف لي أعربي قط وأحببت أن أراه إلا عنترة >> أما حديثه - صلى الله عليه و سلم- عن قس فسيـــذكر بعد حيـــن أثناء الدراسة الفنية.

3.11.1.نص خطبة أكثم بن صيفي

<< قال أكثم بن صيفي: إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمها نفعا، وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها. الصدق منجاة، والكذب مهواة والشر لجاجة، والحزم مركب صعب، والعجز مركب وطىء. آفة الرأي الهوى ،والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر. حسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة.إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح الراعي. من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء شر البلاد بلاد لا أمير بها. شر الملوك من خافه البريء.المرء يعجز لا المالحة.أفضل الأولاد البررة. وخير الأعوان من لم يراء بالنصيحة. أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته. يكفيك من الزاد ما بلغك المحل .حسبك من شر سماعه. الصمت حكم وقليل فاعله البلاغة الإيجاز من شدد نفر، ومن تراخى تألف>>.[19] ج1 ص233.

تحليل نص الخطبة:

لقد ألقى أكثم بن صيفي نص خطبته هذه،بعد أن عاد النعمان بن المنذر من بلاد فارس، وكان قد تفاخر بالعرب أمام كسرى الذي أنقص من شأن العرب، فبعث إليه برجال خطباء مفوهين من بينهم أكثم بن صيفي حتى يثبت لكسرى أن العرب على غير ما ظن أو حدثته نفسه، وطلب أن يكون أول من يتكلم منهم أكثم بن صيفي لسني حاله وهذا اعتراف من النعمان بفصاحة الرجل وحكمته. لقد مهد أكثم بن صيفي لخطبته بكل ذكاء حينما قال:<<إن أفضل الأشياء أعاليها>> حتى يتم المدح الضمني للملك من خلال قوله:<<و أعلى الرجال ملوكها >> وكي يجعل الملك في أحسن صورة واصل كلامه بقوله: <<و أفضل الملوك أعمها نفعا>> وبهذا يكون قد مدح، وضمن الانتفاع من كسرى لا الضرر، وتتوالى جمل نص الخطبة التي جاءت على شكل حكم متفرقة كقـــوله: << الصدق منجاة والكذب مهواة والشر لجاجة ...>> والملاحظ أن هذه الحكم تصب في موضوعات مختلفة منها ما يخص الحكم و منها ما يخص الخطيب، ومنها ما يخص الأخلاق ومنها ما يتحدث عن القيم الاجتماعية كالعدل حتى في مجال الحرب.و هذا ما أثار إعجاب كسرى إلا أنه قدم نقدا يقول:<<ويحك يا أكثم ! ما أحكمك وأوثق كلامك لولا وضعك كلامك في غير موضعه قال أكثم، الصـق ينبيء عنك لا الوعيد قال كسرى: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى. قال أكثم: رب قول أنفذ من صول >> [19] ج1 ص 233.

12.1.الخصائص الفنية في نصوص الخطبة الجاهلية

1.12.1.انعدام وحدة الموضوع

نلاحظ على الخطبة الجاهلية ضعف الربط وعدم التماسك بين الجمل، وعدم وحدة الموضوع كما ورد في الوصايا ، ولعل ذلك راجع إلى الارتجال الذي تتسم به حياتهم والى كثرة الحكم والأمثال التي تشيع في خطبهم ، و التي لا يمكن الربط بينها كخطب أكثم بن الصيفي، فإننا لو قدمنا وأخرنا فيها لم يختل المعنى ولا نظام الخطبة. مثل : « ... خير الأزمنة أخصبها، الصدق منجاة والكذب مهواة، وأفضل الملوك أصدقها، الحزم مركب صعب والشر لجاجة والعجز مركب وطيء والعجز مفتاح الفقر، آفة الرأي الهوى ... » فبالرغـم من هذا التقديم والتأخير الذين أحدثناهما على جمل الخطبـــة إلا أن المعنى هو نفسه، ونظام الخطبة كذلك، بحيث جمل الخطبة عبارة عن حكم و أمثال لا رابط بينها يوجب تسلسلها فما العلاقة بين هذه الجمل: « آفة الرأي الهوى » « العجز مفتاح الفقر » « خير الأمور الصبر» لا علاقة بينها لا على مستوى المعنى ولا على مستوى الأسلوب ونقصد بهذا الأخير نهاية الجمل لا تشكل فواصل كالسجع والازدواج مثلا. وهذا التفكـك يقودنا للكلام عن عدم وحدة الموضوع فلو طرحنا السؤال: ما هو موضوع خطبة أكثم الصيفي ؟ لكان الجـــواب متعددا كالتالي: تحدث عن رفعــة الملـوك، ثم عن أفضل الأوقات وهي الزمن الخصب، وعن أفضل الخطباء وهم الصـــادقون وعن فضل الصدق ثم عن الحزم ثم عن العجز ... ثم عن الأولاد.... إلى غير ذلك. كما تظهر خطبة قس بن ساعدة بهذه الخاصية كذلك وإن بدت خاضعة للتسلسل المنطقي أحيانا كقوله: " مـن عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت << إلا أنها لا تعدو مجموعة من الأفكار المفككة المجزأة ، إذا ارتبطت بموضـوع واحد فهي لا ترتبط برباط سببي محكم. التعليل، ذلك أننا نكاد لا نشهد حرفا من حروف السبب والتعليل وهذا الأسلوب هو أسلوب شائع في الأدب الجاهلـي>> [22] ص 57.

وبالتالي فإن اقتصار الخطبــة في الجاهلية على الاختصار والتركيز، والتفكك بين هذه المجازات مردها إلى افتقـار الخطيب إلى موضوع واحد يشــغل باله فيركز عليه. إذن التفكك راجـع إلى أن الخطيب إنما يجمع عصارة خبرته وتجربته و يفرغها في جمل أغلبها مسجوع لأمر هام : انعدام موضوع يوحد جهود الخطباء. وكذا انعـــدام الكتابة التي تمكن من حفظ آثار العقل مما يدفع إلى الاختصار والتركيز وربط الجمل بالسجع بغية حفظه وروايته وقد أشارنا إلى ذلك أنفا.

2.12.1.التوسل بالإيقاع (السجع)

وقد بدت الأسجاع محكمة الأداء متوازية الإيقاع يتضاعف وقعها من توحد صيغ العبارة التي تصحبها وتتقدمها فكأن كل جملة في صيغتها المجزوءة. المختصرة شطر بيت متشابه الوزن وربما

الروى << ومرد ذلك أن الخطابة الجاهلية تتخذ من الأسجاع عمادا أساسيا للتأثير والإيحاء لأنها تؤدي أداءها بإذكاء الانفعال وتدرك الإقناع بالحماسة والبلاغة>>.[22] ص 39. ولعل هذه الظاهرة البلاغية تظهر بصورة أكبر في النموذج الثاني .

إذ تظهر خطبة قس بن ساعدة متوازنة الأداء متشابـــهة المخارج حتى أنها بالـــرغم من حلتـــها النثـــرية لتبدو أقرب إلى الرنة الموسيقية التي تألفها من الشعر منها إلى رتابة النثر، وهذه الرنة تبدو ضـرورية لطبيعة الخطابـــة لأنها تستثير الانتبـــاه، و<< هذا النغم أكان تسجيعـــا أو توقيعا هو ميزة من ميزات الخطابة الجاهلية لأنه عامل هام من عوامل التأثير وإثارة الانتباه >> [22] ص 56. ونستشهد في هذا الموقف برد فعل النبي(عليه الصلاة والسلام)بعد أن سمع خطبة قس بن ساعدة من وفد إياد إذ قال:" يرحم الله قسا، إني لأرجوا أن يبعث يوم القيامة أمة وحده " [16] ج15 ص 193.

إن أول ما يلفت انتباهنا هو انطباع الرسول (عليه الصلاة والسلام) المتمثل في قوله: " وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة " فهذه شهادة من أوتي جوامع الكلم والأسلوب البليغ الذي له المرتبة الثانية بعد أسلوب القرآن الكريم- من حيث البلاغة - فما سر حلاوة كلام قس بن ساعدة ؟ انه هذا النغم،السجع غير المتكلف فيه الذي لم يأت على حساب المعنى انه الانسجام بين الحروف وهذه الشهادة جعلت الجاحظ يجعل إيادا في أعلى مراتب الخطبـاء:<< ولإياد خصلة ليست لأحد من العرب لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- هو الذي روى كلام قس بن ساعدة وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته وهو الذي رواه لقريش وللعرب وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه >> [14] ج1 ص 42-43.

والجدير بالإشارة أنه إذا كان السجع سمة غالبة على الخطب الجاهلية فهذا لا ينفي وجود الخطب المرسلة والبليغة أيضا لإثارة السامعين والتأثير فيهم لبلوغ الغاية من استمالتهم يقول الجاحظ :<< لم نرهم يستعملون مثل تدبيرهم في طوال القصائد وفي صنعة طوال الخطب وكانوا إذا احتاجوا إلى الرأي في معاظم التدبير ومهمات الأمور ميثوه في صدورهم وقيدوه على أنفسهم فإذا قومه الثقاف وأدخل الكير وقام على الخلاص أبرزوه محككا منقحا ومصفى من الأدناس مهذبا >> [14] ج2 ص 14. وغايـــة السجع في هذه الخطب هي مشابهـــة الشعر المبني على الـــوزن والقافية مما يسهل حفظه، فكذلك تأتي فواصل الجمل في الخطبة حتى ترسخ في ذهن السامع خاصة وان التدوين لم يكن موجودا في العصر الجاهلي. وقد تأتي الخطبة مترددة بين الإرسال والازدواج أو السجع كما رأينا في خطبة أبي طالب: <<الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل...>> ويتجلى الازدواج في خطبة مرثد الخير <<.. في توردها بوار الأصيلة و انقطاع الوسيلة >>.

3.12.1.التكرار والإطناب

يتصف نص الخطبة الجاهلية بالتكرار ابتغاء للتأكيد وترسيخ الفكرة ولغرض أسلوبي يتمثل في الإيقاع الجاري على مقاطع متوازية مثل الأقوال التالية:امتطاء الهجاج وإستحقاب اللجاج، عند مرثد

الخير، وعند قس بن ساعدة إذ يقول: " ليل داج ونهار ساج وسماء ذات أبراج ونجوم تزهر " فهذا القول يردد الفكرة الواحدة التي تشير إلى أن الموت أزلي. وما إلى ذلك.... ولا يختلف الإطناب عن التكرار عن الفائدة منهما وهي تأكيد المعنى مثل عبارة - عصى النصيح وخالف الرشيد وأصغى إلى التقاطع- فهذا المثال وغيره مما سبق ذكره فيه ألفاظ عديدة تدل على معنى واحد . و يوضح أهمية الإطناب ما جاء في كتاب الصناعتين: << فكانوا إذ خطبوا في الصلح بين العشائر أطالوا وإذا أنشدوا أطنبوا والإطالة والإطناب في هذه المواطن إيجاز، قيل لقيس بن خارجة: ما عندك في حمالات داحس؟ فقال: قرى كل نازل ورضا كل ساخط وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب أمر فيها بالتواصل وأنهى عن التقاطع. فقيل لأبي يعقوب الجريم: هلا اكتفى بقوله أمر فيها بالتواصل عن قوله وأنهى عن التقاطع، أو ليس الأمر بالصلة هو النهي عن القطيعة. فقال: أو ما علمت أن الكناية والتعريض لا يعملان في العقول عمل الإطناب والتكشف وقد رأينا الله تعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة و الوحي وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطا >> . [28] ص 143.

4.12.1. التمثل بالشعر

نستخلص من النموذج الأول حرص الخصمين المتشاحنين على التمثل بالشعر مما يطلعنا على أن الشعر متداول بين الناس عصرئذ، وقد وفق كل منهما حينما تمثل به وأنزله في موضعه من سياق الحديث .وكذا الشأن بالنسبة لقس بن ساعدة الذي أنهاها بأبيات من الشعر لخصت مضمون كلامه .

5.12.1.الاعتماد على العقل

فالخطابة عند خطباء العصر الجاهلي ملامح وصفات وخصائص تتفق إلى حد بعيد مع الأصول العامة المعروفة لفن الخطابة، فهم لم يغفلوا استخدام الحجج والأدلة المؤثرة في النفوس لاحظ جواب النعمان أمام استخفاف الملك بالعرب: <<...أما قولك: إن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفت منها ، فما تركوا ما دونها إلا احتقارا له ، فعمدوا إلى أجلها وأفضلها ، فكانت مراكبهم وطعامهم مع أنها أكثر البهائم شحوما وأطيبها لحوما ، وأرقها ألبانا وأقلها غائلة وأحلاها مضغة .

وأنه لا شئ من اللحمان يعالج ما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه...>> [19] ج1 ص 230.

وحتى نعرف ما مدى قوة حجة الخطيب النعمان علينا أن نعرف فيما قدمت وعلى ما قرعت إذ قال الملك: << .....فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها، وإن قرى أحدهم ضيفا عدها مكرمــة وإن أطعــم أكلة عدها غنيمة ...>> [19] ج1 ص228. قد قابل كل صفة قالها الملك في لحم الإبل بصفة معاكسة مستعملا أسلوب التفضيل في ذلك حيث عمد إلى أسلوب المقارنة فنفى ما قاله الملك اعتمادا على تجربة العربي في أكل لحم الإبل والنتائج الايجابية لذلك.

وظهر في بعض مقاطع خطبة مرثد الخير أسلوب التدرج المنطقي. من ذلك قول مرثد " فإنه إذا سفكت الدماء استحكمت الشحناء، وتقضبت عرى الإبقاء وشمل البلاء " وقد تدرج الخطيب من الفكرة إلى ما دونها تدرج السبب إلى النتيجة بإحكام منطقي متسلسل وكذلك قول ميثم في نهاية كلامـــه:..ومقاطع الأمور ثلاثة: حرب مبيرة أو سلم قريــرة أو مدجاة و غفيرة وبينما توسل الأول التدرج المنطقي توسل الثاني التقرير العام الذي يخلص إليه من سياق الأحداث.

مما تقدم يعكس إعتماد العربي في خطبته على العقل، يقول أكثم: << الصدق منجاة والكذب مهواة والحزم مركب صعب والعجز مركب رطئ...>> وهذه في الحقيقة مجموعة حكم لا أقوال عابرة وأشعارهم تصور جانبا من ذلك حسب ما جاء في البيان والتبيين إذ قال لبيد لهرم بن قطبة حين إحتكم إليه عامل بن الطفيل و علقمة بن علاثة:

إنك قد أوتيت حكما معجبـــا

فطبق المفصل واغنم طيبـــا

6.12.1. البديهة والارتجال

<< لقد كان أساس الخطابة عند العرب البديهة*والارتجال فقد كانت الفصاحة فيهم سليقة والاقتدار على القول من أعظم مواهبهم وكانت حياة البداوة الغالبة تطالعهم الطبيعة فيها كل وقت بما تشاء من أحداث، وكانوا هم كذلك في أهبة دائمة لمجابهة هذه الأحداث، بما تستدعيه من بيان وخطب حتى وقر في أذهان من جاء بعدهم أن الإرتجال من خصائص الخطابة>> [21] ج1 ص 73-74.

<<رووا أن الخطيب قال لأبي نواس مرة يمازحه وهما بالمسجد الجامع: أنت غير مدافع في الشعر ولكنك لا تخطب فقام من فوره يقول مرتجلا:

أمنحكـم يا آل مصر نصيحتـــي ألا فخذوا من ناصح بنصيب

رمــاكم أميــر المؤمنيــن بحية أكــول لحيات البلاد شروب

فان يك باقي سحر فرعون فيكم فان عصا موسى بكف خصيب

ثم التفت إليه وقال: <<... والله لا يأتي بمثلها خطيب مصقع >> [29] ج1 ص 127.

فكأن أبا نواس قد اعتبر هذا الشعر خطبة لا لشئ إلا لمجرد ما كان فيه من الارتجال[21] ج1 ص 74-75.

7.12.1.التقديم و التأخير وأثرهما في الخطبة

من المسلم به أن الكلام يتألف من كلمات أو أجزاء وليس من الممكن النطق بأجزاء أي كلام دفعة واحدة من أجل ذلك كان لابد عند النطق بالكلام من تقديم بعضه وتأخير بعضه الآخر وليس شيء من أجزاء الكلام في حد ذاته أولى بالتقدم من الآخر لأن جميع الألفاظ من حيث هي ألفاظ تشترك في درجة الاعتبار هذا بعد مراعاة ما تجب له الصدارة كألفاظ الشرط والاستفهام، وعلى هذا فتقديم جزء من الكلام

وتأخيره لا يرد اعتباطا في نظم الكلام وتأليفه وإنما يكون عملا مقصودا يقتضيه غرض بلاغي أو داع من دواعيها...>> [30] ص 133.

ومن الأغراض البلاغية التي تستدعي التقديم والتأخير للتنبيه على أن المتقدم خبر لا نعت في قول قبيصة بن نعيم حينما قدم على امرئ القيس بن مجر الكندي بعد مقتل أبيه في وفد يسأله العفو عن دم أبيه: <<... ولك من سؤدد منصبك وشرف أعراقك وكرم أصلك في العرب محتد يحتمل ما حمل عليه >> لقد تقدم الخبر على المبتدأ (محتد). وكذلك ورد مثل ذلك في خطبة أبي طالب في زواج النبي عليه الصلاة والسلام:<< وله في خديجة بنت خويلد رغبة >> وقد يكون بغرض كون المتقدم محل الإنكار والتعجب كالمفاخرة بين الحارث بن ذبيان وطريف بن العاص الدوسي فقال الحارث :<< اياي يخاطب بمثل هذا القول ؟>> بغرض تقوية الحكم وتقريره كما ورد في خطب إصلاح ذات البين في مقال سبيع بن الحرث: <<...وقد علم بنو أبينا هؤلاء أنا لهم ردء إذا رهبوا وغيث إذا أجدبوا ...>> فجاء الحكم قويا لا شك فيه حينما اثبت كفاءة قومه بتأخيرخبر أن.

8.12.1.الإيجاز

أما الإيجاز ففي طبع العرب والغالب عليهم، وهو البلاغة عندهم، مثال على ذلك قول أوس بن حارثة لابنه مالك << المنية ولا الدنية >> فهذه العبـــارة الموجزة تعني العيش في ذل ووضاعة شأن يجعلان الإنسان محتقرا في مجتمعه يفضل عنه الموت. وهذا من باب المحذوف صفة وتمتاز الخطبة الجاهلية بوضوح المعاني وصدقها لأنها تمثل حياتهم البسيطة الواضحة التي لا تعقيد فيها ولا التواء يعبرون عما يشعرون به في بساطة و دون تكلف، فمتى فهم اللفظ اتضح معناه دون معاناة في فهمه كما سبق وأن رأينا في الوصية مثلا. ووضوح المعاني لا يعني إهمال اللفظ بل إن جماله يشبه الثياب الموشاة بالحلل والديباج يقول أبو قردودة الطائي في رثاء بن عمار خطيب مذحج وقد مات مقتولا [14] ج1 ص349.

ومنطق خرق بالعواســل

لذ كوشي اليمنة المراحـــل

9.12.1.قصر الجمل

قصر الجمل الذي تستدعيـــه طبيعة الخطابـــة – كما يرى أرسطـــو – حتى يتاح للخطيب إن يتنفس، وأن يستريح، وأن يتدبر ما يقول، وحتى يتيسر للسامع أن يتابعه ويفهم عنه، إذ لو جاءت الجمـــل مفرطة الطـــول لضاق بها السامـــع، وتخلف عنها في تتبعها، أو جاءت بالغة القصر لوقفت به فجأة دون ما يتوقع كأنما تعثربه فكره و زل>> [21] ج1 ص 77.

<< وكان العرب يكثرون من المتـــرادفات، وينوعون في العبارات للمعنى الواحـــد ، ففي الترادف والتنويع تغيير يبعث على نشاط السامع ولذته ، وتقرير للمعنى المراد وتأكيد له في نفسه كقول مرثد

الخير الحميري في خطبته.... "فتلاقيا أمر كما قبل انتكاث العهد، وانحلال العقد، وتشتت الألفة، وتباين السمعة ">>.[25] ج1 ص 92.

10.12.1.المجاز

ولم يكن الخيال ضيق الأفق عند الخطيب العربي، إنما له مجال واسع حسب مقتضى الحال. كقول النعمان أثناء وفادته على كسرى:<<...ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها >> فاستعمل الكناية للتعبير عن مدى كرم العربي وبذله ماله لضيفه و إن كان ما يقدمه يتركه فقيرا.ويستعمل أكثم بن صيفي المجاز في قوله: << الصدق منجاة والكذب مهواة >> وهذا تشبيه بليغ، وفي قوله:<<العجز مفتاح الفقر >> وهذه استعارة مكنية، والتشبيه في قوله: << من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء >>. ولاشك أن الخيال يزيد المعنى عمقا وقوة، ويستقطب انتباه المستمعين للخطبة، فيحلقوا مع الخطيب ليحطوا على المعنى الصحيح وقد تغلغل في أذهانهم و استقر.

13.12.1.صورة الخطيب في الجاهلية

يبدو أن العرب قد تعارف خطباؤها على جملة من السنن والتقاليد في خطابتهم، فكانوا يخطبون على رواحلهم في الأسواق العظام والمجامع الكبار[14] ج3 ص7. وقد هموا بوضع العمائم على رؤوسهم، وهم يمسكون بالعصي والمخاصر والقصبان والقنا والقسي راكبين أو واقفين على مرتفع من الأرض، ويجسد ذلك قول لبيد [14] ج1 ص 372.

ما إن أهاب إذا السرادق عمه

قرع القسي وأرعش الرعديد

يقول الجاحظ:<< إن حمل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة والتهيؤ للإطناب والإطالة، وذلك شيء خاص في خطباء العرب ومقصور عليهم ومنسوب إليهم، حتى إنهم ليذهبون في حوائجهم، والمخاصر بأيديهم إلفا لها وتوقعا لبعض ما يوجب حملها والإشارة بها >>[14] ج3 ص 117، فالجاحظ يقدم لنا علة أخذ العصا وهي الاستعداد لإلقاء خطبة طويلة، مما يجعل هذا من خصائص العرب دونا عن سواهم ثم أنها أمر مألوف عندهم لا يتخلى عنها العربي فيحملها لأغراض شتى، ويجعل هذه العادة عادة سامية لأنها أخذت من أصل كريم ومعدن شريف لا يمكن أن يعارضه إلا جاهل (والدليل على أن أخذ العصا مأخوذ من أصل كريم ومن معدن شريف) واتخاذ سليمان بن داود-صلوات الله تعالى وسلامه على نبينا وعليه-العصا بخطبته وموعظته,ولمقاماته وطول صلاته، ولطول التلاوة والانتصاب، فجعلها [14] ج3 ص 427 لتلك الخصال جامعة.

إضافة إلى ما تقدم ذكره من عادات العرب في وضع العمامة وأخذ العصا والخطابة من على الراحلة، أومن مكان مرتفع، نجدهم قد عرفوا أيضا أثر الخطيب ذاته في خطبته، ومدى الاعتماد في نجاح الخطبة على شخصيته، فكانوا يحمدون منه أن يكون رابط الجأش، ثابت الجنان ساكن الجوارح، قليل التلفت

واللخط, قوي المنة، جهير الصوت شديد العارضة، حاضر البديهة ظاهر الحجة، حسن السمت والمظهر، حلو الإيقاع، سليم المنطق، كثير الريق، صائب الإشارة مؤمنا بما يقول، قدوة فيما يدعو إليه، عاليا على الخصوم في مضايق الكلام، ومآزق الخصام. [14] ج1 ص 100.

يقول أبو العيال الهذلي: [14] ج1 ص 8.

ولا حصر بخطبته إذا ما عزت الخطب

والخطيب لسان القبيلة في المجامع الجامعة وممثلها في المواسم والمحافل العظيمة، يقول عنه صاحب العقد الفريد (ولابد للوافد عن قومه أن يكون عميدهم وزعيمهم الذي عن قوته ينزعون، وعن رأيه يصدرون فهو واحد يعدل قبيلة، ولسان يعرب عن ألسنة) [19] ج1 ص 227.

أما الإيمان بما يخطب به فهو ركن أساسي، يقول عامر بن عبد القيس (الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الأذان) [14] ج1 ص 83. وقال الحسن البصري لمتكلم يعظ، فلم تقع موعظته بموضع من قلبه، ولم يرق عندها <<يا هذا إن بقلبك شرا أو بقلبي>> [14] ج1 ص 84|، ويذكر الجاحظ صفات أخرى حينما سئل أعرابي عن الجمال: <<طول القامة وضم الهامة ورحب الشدق وبعد الصوت>> [14] ج1 ص 82.

قال الشاعر عمر بن سعيد الأشدق:

تشادق حتى مال بالقول شدقه

وكل خطيب لاأبالك أشدق

ويذم في الخطباء ضيق الأفواه

قال الشاعر:

لحا الله أفواه الدّبي من قبيلة إذا ذكرت في النائبات أسورها

وعلامة سكون نفس الخطيب ورباطة جأشه، وهدوؤه في كلامه، وتمهله في منطقه، فإن الحيرة والدهشة يورثان الحبسة والحصر، وهما سبب الارتاج والاجبال. [28] ص 15.

وهكذا اهتموا بالمؤثرات البصرية اهتمامهم بالمؤثرات السمعية، وكان لهم بصر برعاية أحوال المخاطبين، وجريان الكلام على ما يقتضيه المقام: من إيجاز وإطناب وتقديم وتأخير، وتكرار وتأكيد في بعض المواطن، وفصل في كثير من الأحيان، وإطالة الخاطب وتقصير المجيب في خطب الزواج التي تتميز بجلوس الخطيب على عكس ما عرف من عادة الخطابة ونقصد الوقوف.

مما تقدم يظهر أن الخطابة في العصر الجاهلي تناولت أغراضا مختلفة، فقد استخدمها العرب في منافراتهم ومفاخراتهم بالأحساب والأنساب و المآثر والمناقب، وفي حروبهم وأثناء الصلح كذلك إضافة إلى وفادتهم على الأمراء، وفي أسواقهم ناصحين مرشدين، وأثناء الزواج، وكثر بذلك خطباؤهم.

ومن خلال دراستنا للنماذج المختارة السابقة نستطيع أن نحدد مميزات أسلوب نص الخطبة في هذا العصر الذي اعتمد غالبا على خاصية السجع ، وقصر الجمل، وإن وجدت الخطب المرسلة، إلا أن السجع وقصر الجمل يساعد على حفظ الخطبة في عصر انعدم فيه التدوين، كما أن خطباء هذا العصر ابتغوا التجويد في خطبهم ذلك بما جبلوا عليه من بيان وبلاغة.

ومع هذا فإن نص الخطبة تنعدم فيه الوحدة الموضوعية، من ضعف ربط وعدم تماسك بين جملها ورأينا أن الأفكار لا تعدو أن تكون سوى جملة من الخواطر في معظم الأحيان، لم تتأت على كثـــــرة تأمل وبعد نظر وإعمـــال فكر، إنما كانت وليــدة تكرار التجارب، والاستنتاجات التي يخلص إليها الخطيب في الأخير.

والسمة الملاحظة كذلك على نص الخطبة في العصر الجاهلي هي الإيجاز وهذا في طبع العرب والغالب عليهم وهو البلاغة عندهم.

الفصل 2

تطور نص الخطبـة فـــي العصر الإسلامـــي

(صـدر الإسلام و العصر الأموي)

لمحة عامة عن الظروف السياسية والاجتماعية والفكرية:

<<إن الثورة الفكرية تتقدم الثورة السياسية، فالثورة الاجتماعية والسياسية التي ظهرت معالمها في العصر الإسلامي، لم تكن في الواقع وليدة اللحظة التي تفجرت فيها بل إنها وليدة مقدمات بعيدة الغور في وجدان العرب الذين دأبوا على عبادة الأوثان والإيمان بالخرافات الغيبية. إن الثورة التي ظهرت في العصر الإسلامي، كنا نستشفها في الشعر الجاهلي>> [22] ص 67. وكذا في الخطب الجاهلية مثلما سبق وإن رأينا نماذج منها كخطب أكثم بن صيفي وخطب قس بن ساعدة.

وبمجيء الإسلام تنقلب حياة العرب انقلابا جذريا، جدد حياتهم على كل المستويات:

العقائدي، والاجتماعي والأخلاقي والاقتصادي والسياسي والأدبي، فكان ظهور الإسلام إيذانا بتطور واسع في الخطابة، فقد فجر كثيرا من الطاقات الكامنة عند العرب وهم أهل خيال وشاعرية وذووا عاطفة جياشة، ونفوس حساسة، تلهبهم الحماسة، وينفعلون بالتصورات الشاعرية.

<< وصارت الدعوة العظمى للإسلام منشط الألسن من عقلها، وانبرت الخطابة تشرح الدعوة الإسلامية، وتؤيدها، وتدعو إليها، وتدافع عنها. وتبين أهدافها الكبرى، ومثلها العليا، وكان المجال أمامها واسعا، والطريق متفسحا عريضا، لأن الخطابة أقدر على شرح الحقائق، ومناقشة المسائل فهي طريق الإقناع بالحجج العقلية، والبراهين المنطقية، والمؤثرات الوجدانية، ما لا يتسع الشعر لمثله، ولأنها أقرب منالا وأسهل مأخذا لقربها من الطبيعة، وتحررها من قيود الوزن والقافية الذين يقيدان الشاعر، ولأن مجال القول يتسع فيها لإفهام الخاصة والعامة، ولأن القرآن لم يعرض لها بما ينفر منها، أو يزهد فيها بل إنها كانت عدّة الرسول -صلى الله عليه وسلم- في كل موقف مشهـــود وقد رفع الرسول -عليه الصلاة والسلام- لواءها من يوم أن نزل قولــه تعالــى:" وأنذر عشيرتك الأقربين" >> [22] ص 67-68.

فأتى الصفـــا فصعد عليه، ثم نادى الناس، فاجتمعــوا عليه، فقال: (يا بني عبد المطلب، يا بني فهر,يا بني كعب ,أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟) قالوا: نعم, ما جربنا عليك كذبا,قال << إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد >> [31] ج3 ص 38.

إلى أن استعزّبه وأختار ما عند الله تعالى, فخرج إلى المسجد عاصبا رأسه، فجلس على المنبر وسمع المسلمون منه أخر قولة قالها لهم، فصلى على أصحاب أحد، فأكثر الصلاة عليهم، واستغفر لهم ثم قال: (إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله، أنظروا هذه الأبواب اللافظة في المسجد، فسدوها إلا بيت أبي بكر، فإني لا أعلم أحدا كان أفضل في الصحبة عندي يدا منه..). [31] ج1 ص 38. وكانت الخطابة فيما بين هذين اليومين من أصدق جنده، وأمضى سلاحه وهو يعرض نفسه على القبائل وأحياء العرب، وفي مواسم الحج، وفي عكاظ ومنى [32] ج4 ص399، وعندما نزل المدينة مهاجــرا، وفي التحريض على القتـــال يوم بدر، وفي الغزوات ومواطن الزحف بالكعبة يوم فتح مكة، وفي استرضاء الأنصار حين وجدوا في أنفسهم، حتى كثرت منهم القالة، لما أعطى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قريشا وقبائل العرب ما أعطى من غنائم حنين، ولم يعطهم شيئا [32] ج4 ص141.

وتبعه الخلفاء الراشدون، فكان على الخطابة اعتمادهم في الردة، والفتن، والحروب، والحث على الجهاد، وجمع القلوب، ورسم السياسة لأمراء الجيوش والقواد والولاة والمجاهدين، والوعظ والتبشير والنذير، وتبيّين مبادئ الإسلام وحدوده و آدابه إلى ما كان من خطب وفود العرب القادمة على الرسول - صلى الله عليه وسلم- وخلفائه، للمفاخرة أو إعلان الإسلام أو التهنئة وفيهم الخطباء والشعراء، فينبري للرد عليهم حسان بن ثابت وثابت بن قيس خطيب الرسول -صلى الله عليه وسلم- وغيرهما. وقد كانت بلاغتهم سببا في إسلام بعض هذه الوفود [32] ج4 ص 206.

كما كانت شعار الأئمة في كل حفل ديني أو سياسي وفي الجمعة والعيدين والحج ويوم الزحف وعند الجمع, وسلاح الإسلام عند المسيحية واليهودية والوثنية, وكان لها شأن في الحياة الاجتماعية التي استحدثها الإسلام وفي تنظيمها.

<< ومما ساعد الخطابة على بلوغ شأنها أن الرسول- صلى الله عليه و سلم- وأصحابه ورجال دعوته ورسله إلى الأمم والملوك وأمراء جيوشه، وخلفائه من بعده وولاتهم وقوادهم لم يكونوا شعراء، وإنما كانوا كلهم خطباء مصاقع، ولسنا مقاول >> [21] ج1 ص 114.

كما ينبغي الإشارة إلى جانب مهم، يتمثل في الجبهة المناوئة للإسلام، جبهة الشرك والضلال، تعتمد على الخطابة، وكان من وراء هذه المعركة اللسانية المستعرة، والحركة البيانية المتصلة ارتفاع شأن الخطابة، واتساع ميدانها.

كما كانت أميّة العرب من الأسباب ذات الأثر البعيد في اعتماد الإسلام على الخطابة اعتمادا كبيرا، لأن العرب لم تكن أمة كاتبة حتى تعبرعما تريد بالقلم وتودع مكنون صدورها صفحات الكتب، وحتى تنهض الرسائل عندئذ بنصيبها من العبء إلى جانب الخطابة، وبذلك تركزت مسؤولية النثر كله فيها ونهضت منفردة بحمل رسالته واليها وحدها كان مفزعهم.

<< فكان الوافد أو الرسول ينهض بواجبه قائلا لا ناقلا، وخطيبا لا بريدا >> [21] ج1 ص 117.

وقد نتساءل إن تضاءل دورها بعد أن عرف العرب الكتابة وصار تبادل الرسائل بينهم أمرا مألوفا، فنجد أنه من البديهي أن يكون الرسول لسنا فصيحا، ونذكر في هذا الشأن قدوم عبد الله بن الزبير على عثمان بن عفان بفتح افريقية، وقص عليه كيف كانت الوقعة، أعجبه حديثه (فقال له: أتقوم بمثل هذا الكلام على الناس؟ فقال: يا أمير المؤمنين إني أهيب لك مني لهم، فقام عثمان في الناس، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيّها الناس إن الله قد فتح عليكم إفريقية، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم خبرها إن شاء الله، فقام عبد الله فخطبهم فلما سكت نهض أبوه الزبير فقبل بين عينيه وقال: ذرية بعضها من بعض، والله سميع عليم، يا بني مازلت تنطق بلسان أبي بكر حتى صمت) [19] ج4 ص 149.أضف إلى ذلك أننا لا يمكن نفي تلك القرابة القائمة بين الرسائل والخطب، والتي تيسر للخطابة أن تنهض بعبئهما معا وتنفرد به، فالخطب والرسائل متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل، ولا فرق بينهما إلا أن الخطبة يشافه بها، والرسالة يكتب بها، والرسالة تجعل خطبة، والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة (كما أنهما مختصتان بأمر الدين والسلطان، وعليهما مدار الدار) [28] ص 102.

لقد شجع الإسلام على تناول هذا الفن النثري، وله فضل كبير عليها لاعترافه بما لها من أثر في الحياة الاجتماعية، فأباح للناس أن يعهدوا إلى غيرهم بالتحدث باسمهم والدفاع عنهم وحث الإنسان على أن يعين أخاه بلسانه إذا أعوزه البيان ,قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

<< فضل لسانك تعبر به عن أخيك الذي لا لسان له صدقة >> [14] ج1 ص 214.

لا شك أن الأهواء والميول والأحقاد شرعت تتضارب فيما بين الذين كانوا يسعون إلى الاستئثار بالخلافة، إثر موت النبي – عليه الصلاة والسلام - واجتماع السقيفة وخلافة أبي بكر وعمر وعثمان – رضوان الله عليهم-. إلا أن هذه الأهواء لبثت متحفزة، يشعر بها بعض المسلمين، وبعض المطلعين إلى الحكم. ولقد كان علي يأمل أن يصير أمر الخلافة إليه، إلا أن الأحداث كانت تعاكسه وتصده، وخاصة بعد أن مات عثمان – رضي الله عنه- قتيلا، وقام معاوية يتهمه بدمه .ولعل الأمة الإسلامية منذ مقتل عثمان - رضي الله عنه – كانت قد دخلت في حلقة لن يقدر لها الخروج منها طيلة تسعين سنة. ولئن

وفق معاوية في إخماد نار الفتن، فإن النفوس لم تكن مطمئنة. ولبثت تتآكل بنارها حتى موته، حين ثار الحسين وابن الزبير.

وتعددت الأحزاب السياسية. فالشيعة في العراق أو بالأحرى في الكوفة، ولخوارج في ضواحي البصرة وفارس يعيثون في الأرض فسادا، ولا ينفكون عن مجاهدة أصحاب السلطة طربين لسيول الدماء التي تسفك. أما أنصار ابن الزير، فقد كانوا في الحجاز يتوقعون أن تؤاتيهم الفرص لينقضوا على الأمويين.

وهذه الحالة السياسية أدت إلى ازدهار الخطابة إذ كان زعيم كل حزب يخطب في مؤيديه، مظهرا حقه في الخلافة من دون سواه، ويمكن القول: « أن العصر الأموي هو العصر الذي بلغت فيه الخطابة ذروة نموها وازدهارها »[22] ص 177.

أما من الناحية الاجتماعية، فلم تكن أقل اضطرابا من الحالة السياسية، ذلك بعودة العصبية القبلية، فانقسمت القبائل فيما بينها كل واحدة منها تؤيد الحـــزب الذي يناهض القبيلــة التي تعاديها فالتغلبيون وقفوا إلى جانب الأمويين، لأن القيسيين أعداءهم كانوا قد وقفوا إلى جانب ابن الزبير . وتفاقم النفور بين الحجازيين والقحطانيين، إلا أن الواقع الاجتماعي كان يختلف بين بيئة وأخرى، والعراق كان أكثر البيئات الإسلامية اضطرابا مقارنة بالحجاز إذ مال رؤساء القبائل فيه إلى اللهو والمجون وقد أغدق عليهم أصحاب السلطة المال، علما أن الخطابة هي من الأنواع الإلتزامية حيث ينصرف الأديب للدفاع عن وجهة نظره لإقناع السامعين لهذا السبب قلما ظهرت الخطابة في هذه البيئة في حين ظهرت الخطابة في العراق، و لعل الشام كان قريبا من الحجاز في استقرار الأحوال السياسية فلم تكد تنشأ فيه الأنواع الأدبية الجدلية. وظل العراق تلك البيئة التي تضطرب أحشاؤها بمختلف التيارات السياسية و الاجتماعية منمية في الآن ذاته، الملكة الخطابية في الخلفاء والشعب على حد سواء إلى جانب الحركة الدينية، شبه الفلسفية حينا ، وحينا آخر بتأثير الأحوال النفسية والاجتماعية »[22] ص 178. وهذه الحالة الاجتماعية غير المستقرة كانت تسهم إسهاما كبيرا في ازدهار الخطابة واتساع مداها وتجديدها من حيث الشكل والمضمون.

من الطبيعي أن ترتبط الحالة الدينية بسابقتيها الاجتماعية والسياسية « فالخلفاء الأوائل يؤمنون بالدين إيمانا صادقا، ويقدمونه على سائر الأغراض الدنيوية إلا فيما كانت تلك التعاليم تخدم أغراضهم ومطامعهم السياسية. لاسيما عندما تولى يزيد الخلافة حيث بدأت مظاهر المجون واضحة ، ولم يعد الدين سوى وسيلة للتأثير على الشعب »[22] ص 179.

إذا فالأسباب في ازدهار الخطابة عديدة، لكن أهمها الاضطراب السياسي، فالحروب والفتن التي تأججت بعد موت معاوية وقبله، وانقسام المسلمين وادعاء كل منهم حق الملك من دون الآخر. كان السبب الأهم في إذكاء نار الحمية وسوق المسلمين إلى الدفاع في أرائهم باللسان إلى جانب السيف.

ومقارنة مع العصور الأخرى، فإننا نجد الخطابة مستفيضة مسهبة في هذا العصر « فهل يمكن أن يثور الحسين ويقتل تلك القتلة الشنعاء . دون أن يسبق ذلك كثير من الخطب الحماسية، وأن تلحق به الخطب الرثائية التي يتفجع بها الشيعة على شهيدهم؟ وهل يعقل أن ينهض إبن الزبيـــر تلك النهضة التي أوشكت أن تهد أركان الدولة الأموية، دون أن تصحب ثورته الخطب؟ ولئن كان الخوارج يعتمدون في جهادهم على بطولة السيف فإنهم لم يكونوا أقل اعتمادا على بلاغة الكلام .. وهكذا فإن الخطابة اشتركت خلال هذا العصر مع السلاح »[22] ص 180.

وعلى الرغم من هذا الاضطراب السياسي، فإن الفتوحات الإسلامية استمرت، ففي عهد معاوية فتحت شمال إفريقيا، وبلاد السند، وبعض أفغانستان، وفي عهد عبد الملك وابنه الوليـد تم الاستيلاء على شمال إفريقيا والأندلس، وامتد السلطان إلى بلاد البنجاب في الهند، واستولى مسلمة بن عبد الملك على آسيا الصغرى. وفي عهد سليمان بن عبد الملك حوصرت الإستانة. وهذه الحروب كانت تعتمد على الخطابة في بث الحماسة والحمية ودفع الجنود إلى القتال في سبيل الله، حيث دأب القادة العرب على مخاطبة جنودهم قبيل المعارك، أو في أثنائها « ولئن كانت الخطبة العسكرية أقل شأنا من الخطبة السياسيـــة، فإنها لا تعدوا أن تكون مظهرا من مظاهر الازدهـــار الخطابي في ذلك العصر» [22] ص 181.

ويتصل بالخطبة السياسية الخطب التي كان يلقيها زعماء الوفود، بغرض التهنئة أو طلب مساعدة، «وربما رأينا الخليفة أو الأمير يستدعي بعض القوم لديه ليعقد لهم وده، ويتحالف معهم، مزيلا أسباب الجفوة التي باعدت بينهم » [22] ص 181.

1.2.تطور نص الخطبة في صدر الإسلام

1.1.2.تأصيل قواعد الخطابـــة

أ - البسملة والحمدلة وأما بعد:

لقد نمت الخطبة في هذا العصر نموا واسعا، بتأثير الإسلام من جهة وكثرة الأحداث من جهة أخرى، وتغذى مضمونها من معاني القرآن الكريم، فخطابة الرسول –صلى الله عليه وسلم- وأحاديثه هي معان جديدة لم تعرفها الخطبة الجاهلية، وسار الخطباء على هدي محمد –عليه الصلاة والسلام- في مخاطبة الناس ابتغاء التأثير فيهم وبلوغ ما يريدونه من أداء الخطبة الدينية التي تكون في الجمع قبل الصلاة، وفي الأعياد بعد الصلاة، ومنها الخطب التي تدعو إلى الجهاد والحض على قتال الأعداء ، فكان التحميد فيها سنة في كل خطبة، وكذا ذكر لفظ - أما بعد- حتى الخطبة السياسية، وورد في البيان والتبيين إن كل خطبة تخلو من التحميد تسمى – بتراء.

كما كانوا يسمون كل خطبة تخلو من اقتباس أي القرآن الكريم والصلاة على الرسول – شوهاء [14] ج2 ص 215، وبطبيعة الحال ما كانت الخطبة الجاهلية لتعرف هذه الأوصاف وهي خالية مما ينسب إلى الخطبة الإسلامية .

وإذا كانت الخطبة الجاهلية يعتمد أصحابها على الارتجال فان الخطبة الإسلامية تميز بعض أصحابها بإعدادها، ثم يلقونها في الناس، فقد ذكر ابن قتيبة ما يلي:

" ولما ولي عثمان بن عفان صعد المنبر فقال: إن أول مركب صعب، وإن مع اليوم أياما وما كنا خطباء وإن نعش لكم تأتكم الخطبة على وجهها إن شاء الله تعالى " [33] ج2 ص 235. وورد ذلك أيضا في العقد الفريد و يظهر من خلال العبارة الأخيرة لعثمان – رضي الله عنه – اعترافه بأنه لم يكن خطيبا ويعد الناس بخطبة في وقت آخر بعد أن يعدها. - بل إن الخطبة في الإسلام تراعي حتى الحالة النفسية للمستمعين في حين كان الخطيب الجاهلي يقول خطبته دون مراعاة هذه الزاوية، ذكر الجاحظ: " قال عبد الله ابن مسعود: حدث الناس ماحدجوك بأسماعهم ولحظوك بأبصارهم، فإذا رأيت منهم فترة فامسك " [19] ج4 ص 123. فهو –رضي الله عنه - يرشد الخطباء إلى مراعاة الحالة النفسية عند الناس، ومدى استعدادهم للاستيعاب.

ب - الالتزام بالموضوع وعدم تجاوزه:

كما نستنتج ملاحظة أخرى على الخطابة في هذا العصر بالقياس إلى الخطابة الجاهلية، فالأولى امتازت بوحدة الموضوع أما الأخيرة لم تكن ذات موضوع محدد، فكانت تأخذ شكل أقوال متناثرة لذلك فالخطابة الإسلامية ذات موضوع واضح فقد يحدث الخطيب الناس واعظا أو يعرض عليهم حدثا محددا كخطبة خالد بن الوليد أمام جنود المسلمين وقوادهم في معركة اليرموك: " إن هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي ، اخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم ، فان هذا يوم له يوم ما بعده .... هلموا فإن هؤلاء تهيؤوا إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، و إن هزمونا لم نفلح بعدها " [34] ج3 ص 395.

وهكذا فعل أيضا سعد بن أبي وقاص في معركة القادسية، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:" إن الله هو الحق لا شريك له، له الملك، وليس لقوله خلف، قال الله جل ثناؤه:

ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر إن الأرض يرثها عبادي الصالحون * إن هذا ميراثكم

وموعد ربكم ....وأنتم وجوه العرب و أعيانهم ....." [34] ج3 ص 531.

جـ - حدود الفكرة ووضوحها:

ويبدو الأسلوب متينا تكثر فيه أساليب التوكيد إن ..إنما... وتقديم الشواهد من القرآن الكريم، فظهر في هذا العصر ما يسمى بالمناظرات الشفوية كالتي كانت بين علي وعبد الله بن عباس مقابل الخوارج: " راجعهم ابن عباس، فقال: ما نقمتم من الحكمين، وقد قال الله عز وجل: << إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما >> فكيف بأمة محمد -صلى الله عليه وسلم- ؟ فقالت الخوارج: أماً ما جعل حكمه إلى الناس، وأمر بالنظر فيه، والإصلاح له، فهو إليهم كما أمر به، وما حكم فأمضاه، فليس للعباد أن ينظروا فيه... قال ابن عباس: فان الله عز وجل يقول: << يحكم فيه ذوا عدل منكم >> فقالوا له أو

تجعل الحكم في الصيد والحديث يكون بين امرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين ؟، وقالت الخوارج: قلنا له: فهذه الآية بيننا و بينك، اعدل عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا و يسفك دماءنا فإن كان عدلا فلسنا بعدول ونحن أهل حربة، وقد حكمتم في أمر الله الرجال وقد أمضى الله عز وجل حكمه في معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا [34] ج4 ص 474.

كما استعملت الأساليب الاستفهامية الاستنكارية منها أو التعجبية .. وكذا أسلوب القسم ولكن ليس على نحو ما جاء في قسم الخطباء الجاهليين، إنما القسم بالله تعالى الغرض منه إضافة إلى تأكيد المعاني الترغيب كقسم ابن وهب –وهو من الخوارج- في إحدى خطبه:

" أما بعد فوا لله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمان وينيبون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا التي الرضا بها والركون إليها والإيثار إياها عناء وتبار – آثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالحق وإن من وضر فإنه من يمن ويضر في هذه الدنيا فان ثوابه يوم القيامة رضوان الله عز وجل والخلود في جناته " [34] ج4 ص 45.

وكانت الخطب تميل إلى الإيجـــاز في غير عجز وقصر الفقـــرات، وجزالة اللفـــظ وخصاصة العــبارة، وتراوحت هذه الخطب بين الطول والقصر حسب ما تقتضيه المناسبة وظلت العادة التي عرفت في الجاهلية قائمة والمتعلقة بأخذ الخطباء للمخصرة والاتكاء عليها أو القنا أو القسي، ولزومهم العمائم في أيام الجموع ، وقيامهم في جميع أنواع الخطب، وجلوسهم في خطب النكاح التي حافظت على الاختصار فيها كميزة لها، وكان عمر- رضي الله عنه - يقول: " ما يتصعدني كلام كما تصعدني خطبة النكاح " [14] ج1 ص 79.

وورد في العقد الفريد: خطب بلال إلى قوم من خثعم لنفسه ولأخيه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أنا بلال وهذا أخي، كنا ضاليـن فهدانا الله ، عبدين فاعتقنـا الله فقيرين فأغنانا الله [19] ج4 ص 206.

فان تزوجونا فالحمد لله وإن تردونا فالمستعان الله " والأكيد أن الفرق بين في خطب النكاح بين العصرين هو الاستهلال المستمد في العصر الثاني من الإسلام والمتمثل في الحمد لله.

2.1.2.موضوعات الخطابة في عصر صدر الإسلام

لاشك أن الخطابة في عصر صدر الإسلام تشترك مع مثيلتها في العصر الجاهلي في بعض الموضوعات، لكن الذي يجب أن نقف عنده أنه في هذا العصر كان دافعها النهضة الدينية، فأول رسالة للدين هي إصلاح المجتمع البشري وتحقيق أسباب السعادة له في حياته، ولم يكن الإسلام دين جمود فيقف عند المطالب الأخروية شأن ما سبقه من الأديان بل جاوزها إلى تحقيق المصالح الدنيوية فكان لابد له أن يتعرض لكل ما به صلاح أمور البشرية في العقيدة والتشريع والمعاملات والحكم والسياسة والاجتماع والأخلاق والفكر.

أــ شرح مبادئ العقيدة: كانت هناك خطب دينية شملت العقائد والتشريع بما فيه من تبيين الحدود وإقامة معالم الحلال والحرام والوعظ والإرشاد بما فيه من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وحث على مكارم الأخلاق وتبشير وإنذار.

ب- الوفود: كان للوافدين على رسول الله -صلى الله عليه وسلم - من المسلمين والكفار على السواء خطابة وفيهم خطباء وكان له -عليه الصلاة والسلام- معهم كلام وحوار وكان له خطباء يقاولونهم ويجيبونهم. روي أن وفد طيء قدم على رسول الله - عليه الصلاة والسلام -وفيهم زيد الخيل فلما انتهوا إليه كلموه، وعرض عليهم رسول الله- عليه الصلاة و السلام- الإسلام فأسلموا [32] ج4 ص 224.

وتستمر الوفود على الخلفـــاء الراشـــدين للإستمناح أو الشكـــوى، فتكلموا، وعلى ملوك العجـم ورؤسائهم في السفارات، فقالوا، وفي الخصومات على معاوية وعلي وأصحاب الجمل، فقد وفد على عمر -رضي الله -عنه جماعات من المسلمين يستميحونه ويرجونه الزيادة في الأعطيات والفرائض فخطب منهم بين يديه هلال بن وكيع و زيد بن جبلة والأحنف بن قيس . [14] ج2 ص 116.

ووفد على عثمان من أهل الأمصار من يمثلهم في الاحتجاج عليه، ومناظرته فيما فعل، من عزل بعض الصحابة، وتوليته جماعة من بني أمية ومن أقربائه أمور المسلمين، وأوفد سعد إبن أبي وقاص وهو على فتح العراق إنفاذا لرأي أمير المؤمنين عمر- رجالا من أهل المناظرة والرأي والجدل إلى يزد جرد ملك الفرس يدعونه إلى الإسلام، فخطب منهم عنده بالمدائن النعمان بن مقرن والمغيرة بن زرارة. [34] ج4 ص 92.

جـ- مبادىء الحكم في الخلافة: ذكرنا أن الإسلام جدد المجتمع ، فكان لابد لهذا المجتمع النظامي الجديد من حاكم يرعى هذه الرعيـــة، وكان لابد له من أن ينظم العلاقـــة بين الحاكم والمحكومين ويفرض لكل منهما حقوقه ويلزمه بواجابته، فلم يكن هناك بد من أن يخطب الحاكم ويستمع المحكوم، قادرا على أن يسأله وأن يناقشه بمثل حجته، ومثل فصاحته فقامت خطابة حول الحكم والسياسة.

د- خطب الشورى: كان التشاور منذ عهد الرسول -صلى الله عليه و سلم- ثم نجم الخلاف بين المهاجرين والأنصار على الخلافة، حينما قبض الرسول عليه الصلاة والسلام وارتدت العرب عن الإسلام، وقامت حروب الردة وانفتح مجال السياسة والحكم والخطابة والقول، فكثرت الخطب – مثلما سنعرض نماذج لهذا بعد ذلك.

وكان أول مظهر للكلام فيما يشبه النطاق السياسي، ذلك القول الذي اتجه به العباس بن عبد المطلب إلى الأنصار في بيعة العقبة الثانية، يستوثق للرسول عندهم، ويأخذ به العهد عليهم أن ينصروه في دعوته ويمنعوه ممن خالفه إذا هاجر إليهم، وقيام العباس بن عبادة الأنصاري عندئذ خطيبا في قومه يعظم عليهم التبعة، ويبين لهم خطر ما هم مقدمون عليه، ليزدادوا تثبتا من أنفسهم واختبارا لعزيمتهم، وليؤكد بذلك

العهد عليهم إذا عاهدوا، وما كان في هذا الموقف من مقال لرسول الله – عليه الصلاة والسلام – ولأبي هيثم بن التيهان [32] ج3 ص 84-88.

هـ - خطب الحض على الجهاد: كان الجهاد في سبيل الله من أكبر أسباب انتشار الإسلام ولهذا كان من أعظم القربات إلى الله –سبحانه وتعالى- ومن أوسع أبواب جنته ومنها الخطب التي لا تحفل بالمعاني الجليلة إن لم يتواقع فيها المسلمون فيما بينهم بل أنها أدنى إلى الإرشاد والوعظ وإظهار فضل الجهاد وبث الشجاعة في النفوس.

لكن بعد الفتنة بين علي ومعاويـــة يتبدل الأمر إذ كل فريق يؤلب على خصمـــه، والمهم والأكيد أن الخطابة الحربية وجدت منذ قامت بين الإسلام والشرك حرب، فالرسول -عليه الصلاة والسلام - يحرض على القتال يوم بدر، وأبو سفيان في جماعته يحرض أصحاب اللواء على الثبات والحرب في أحد [32] ج3 ص 72. وكانت غزوة مؤتة سنة ثمان من الهجرة، فلما سار جيش المسلمين في ثلاثة آلاف عليهم زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، يخلف لاحقهم سابقهم إن أصيب، ونزلوا معا من أرض الشام جاءهم أن هرقل قد جمـــع لهم مائتي ألف من الـــــروم والعرب في مؤاب. <<فأقامـوا ليلتين يفكرون في أمرهم، وقالـــوا نكتب إلى رسول الله-صلى الله عليه وسلم- فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمددنا بالرجال، وإما أن يأمرنا فنمضي له، فقام عبد الله بن رواحة فيخطب الناس وشجعهم على المضي، وقال في ذلك ما قال>>[32] ج4 ص 17.

و-الوصايا: كانت الوصايا أحد الموضوعات المهمة التي تطرقت إليها الخطابة الجاهلية(سبق و أن أشرنا إلى ذلك) وكانت تصدر غالبا عن الحكمة العملية والتجارب الذاتية والقومية وتتناول معاني الحياة وقيمها، وفي العصر الإسلامي نجد نبذ متباينة من نصوص الوصايا، إلا أن موضوع هذه النصوص تبدل بتبدل الأحوال السياسية وأغراض القول، فغدت تعنى بوصايا القتال وآدابه فضلا عن الآراء والحكم العامة: فهذا أبو بكر يوصي عمرو بن العاص والوليد بن عقبة لدى مبعثهما على الصدقة، وفيها يدعوهما إلى التقوى والحرص والحذر [34] ج4 ص 29. ووصيته ليزيد بن أبي سفيان حين وجهه لفتح الشام فيحذره من الكبر ويدعوه إلى مصادقة جنده [35] ج2 ص 196.

ي-القصص: كان هناك قصص ديني يمت إلى الوعظ والإرشاد والتهذيب بأوثق الصلات، له طابع الخطابة ووسائلها وغايتها، يروي أخبار السالفين، ليكون في قصصهم عبرة لأولى الألباب. ويحكي أحوال الغائبيـــن للشاهديـــن يقوي به عزائمهم، ويثبت قلوبهم، ويصور للناس ما ينتظرهم في أخرتهم ليعدوا لها زادها >> [21] ج1 ص 140.

لقد قص رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وهو على المنبر قصص موسى مع ربه كما قص قصص يحيى معه.

وكان أبو سفيان بن حرب وأبو هريرة ومعاذ بن جبل يقصون ويعظون الجيش في واقعة اليرموك، وكان أبو عبيدة بن الجراح يقود الجيش في هذه المعركة ويفعل فعلهم، وكان هذا القصص الوعظي معروفا أيام الخلفاء ولا سيما بين الجيش. يقول ابن كثير في الكلام عن اليرموك:<< و كان قاصهم الذي يعظهم ويحثهم على القتال أبا سفيان بن حرب، وقارئهم الذي يدور على الناس، فيقرأ سورة الأنفال وآيات الجهاد المقداد بين الأسود إلى أن جعله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه تقليدا، فأمر سعد بن أبي وقاص بموعظة جيشه الذي كان يقوده إلى العراق، وأقام سلمان الفارسي قاصا وداعية للناس في هذا الجيش الذي بدأ بفتح القادسية >> [31] ج7 ص 37.

3.1.2. نصوص مختارة من خطابة العصر الإسلامي

أ – نص خطبة حجة الوداع للرسول – صلى الله عليه وسلم- :<< إن الحمد لله ، نحمده و نستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

أوصيكم عباد الله، بتقوى الله، وأحثكم على طاعة الله، وأستفتح بالذي هو خير.

أما بعد: أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا: أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

فمن كانت عنده أمانة فل

يِ

ؤدها إلى الذي ائتمنه عليها، وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية، والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس، إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله أثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات وواحد فرد: ذو القعدة ، وذو الحجة، والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان. ألا هل بلغت. أللهم أشهد.

أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقا، وإن لكم عليهن حقا: لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولايدخلن أحدا تكرهونه بيتوتكم إلا بإذنكم ولا يِ◌ِ◌ِ◌ِ◌ِ◌ِ◌ِ◌ِ◌ِ◌ِ◌ِ◌ِ◌ِ◌ِ◌ِ◌ِ◌ِأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع و تضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكن فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان لايملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا. ألا هل بلغت، اللهم أشهد.

أيها الناس، إنما ال

مِ◌ِ

ؤمنون أخوة ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفسه.ألا هل بغلت، اللهم أشهد. فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم أعناق بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده كتاب الله و أهل بيتي، ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد.

أيها الناس ، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لأدم و آدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بتقوى، ألا هل بلغت؟ قالوا : نعم قال فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

أيها الناس، إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر، من دعي إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته >> [31] ج7 ص37.

تحليل نص خطبة حجة الوداع: لا يمكن أن نسلط ال

ضِ◌ِ

وء على واقع الخطابة الإسلامية دون أن نتوقف عند خطابة الرسول - صلى الله عليه وسلم- ليس موقف الناقد – حاشا- فالرسول -صلى الله عليه وسلم -أجل وأعظم من أن ينقدٍ، إنما موقف المستفيد من خلال تحليل ودراسة خطابته -عليه الصلاة والسلام- إذ هو أشهر الخطباء في هذا العصر وأولهم، فكانت خطبة حجة الوداع نموذجا لواقع الخطابة الإسلامية لما تضمنته من شمولية لأمور الدين، وعكست أسلوب الرسول- صلى الله عليه وسلم - في خطبه .لذلك اخترنا هذا النص كنموذج .

لقد ألقى النبي -عليه الصلاة والسلام- هذه الخطبة بعد أن شعر بدنو أجله ، حينما ألم به المرض وأراد أن يعين للمسلمين كثيرا من الأمور التي تتعلق بدينهم الجديد، وقد استهلها بالصلاة والتوحيد والابتعاد عن الشرك ثم أكد على حفظ الأمانة وأدائها إلى أصحابها وترك الربا وكل ما أثر عن الجاهلية عدا خدمة

الكعبة وسقاية الحجيج، وحدد موقف الإسلام من قتل العمد ، ثم حدث الناس عن الكفر الذي يلحق بهم في تأجيل الأشهر الحرم، وهي أربعة ثلاثة متواليات وواحد فرد: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان. ولئن خيل إلينا أن النبي -صلى الله عليه وسلم – يعالج في هذه الفقرة موضوعا يختلف عن الموضوع الذي كان قد عالجه في الفقرة الأولى، فإن ذلك لا يعدو أن يكون اعتقادا خاطئا. فالنبيِ- صلى الله عليه وسلم- يبعد المسلمين عن العادات الجاهلية كافة. فكما أبعدهم عن ربا الجاهلية والدم، نراه هنا يحذرهم من التشبه بالجاهليين الذي كانوا إذا جاء شهر حرام، وهم محاربون، أحلوه وحرموا مكانه شهرا آخر، فيحلون المحرم، و يحرمون صفرا، فان احتاجوا أحلوه وحرموا ربيعا الأول. وهكذا حتى استدار التحريم على أشهر السنة كلها. وكانوا يعتبرون في التحريم، مجرد العدد،لا خصوصية الأشهر المعلومة. ويقال أن من قام بذلك، كان جنادة بن عوف الكناني الذي كان ينهض على جمل في الموسم، فينادي إن آلهتكم قد أحلتكم المحرم، فأحلوه. وقد كان بعض الجاهليين يحـــاولون أن يزيدوا أشهر السنة فيجعلوها ثلاثة عشرا شهرا، وأربعة عشر. لهذا رأينا النبي - صلى الله عليه وسلم- يحرص على تحديد شهور السنة باثني عشر شهرا.مستطردا إلى حقوق النساء وواجباتهن وهو في ذلك أيضا يخالف ما كان عليه الجاهليون من تحقير لهن، واستبداد بهن دون أن يكـــون لهن حرمة لذلك كان العربي يئد البنت وهي حية وهذا المقطع من الخطبة يوضح لنا النهج المنطقي المتسلسل في خطب النبي -عليه الصلاة و السلام- وخاصة ما كان تشريعيا منها، ليتكلم بعد هذا عن العلاقة بين الفرد وجماعته فيقرر أن

الـ

مِ

ؤمنين إخوة فقد انتهى عهد الحياة القبلية وكل ما اتصل بها من تنابذ وتفاخر، فالناس جميعا لآدم، إذ وضعت موازين جديدة لحياة العرب، ويلفت الرسول- صلى الله عليه وسلم- انتباه سامعيه إلى ما قرره القرآن في الميراث وأن للمورث إن يوصي بالثلث من ماله.ويرسي قاعدة مهمة في شرعية الأبناء وخاصة الذين تلدهم العواه، فينسبهم إلى أصحاب الفراش، وكانوا ينسبونهم إلى غير أبائهم وقد لا ينسبونهم أبدا، فحرم ذلك تحريما باتا.

لقد جرت هذه الخطبة وفقا لأقسام ، يمثل كل منها موضوعا شبه مستقل، يبين من خلالها حدود الحياة الإسلامية وما ينبغي أن يأخذ به المسلم نفسه مع أفراد أمته أو مع أفراد أسرته، كما كان -عليه الصلاة والسلام- يعظ المسلمين حتى تزكوا أنفسهم بتقوى الله - سبحانه وتعالى- فلا يزيغون ولا ينحرفون عن المحجة.

ب-نص خطبة أبي بكر الصديق – رضي الله عنه-: قام أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: << أيها الناس إني وليت عليكم و لست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسات فقوموني

.الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم .أقول قولي هذا وأستغفر الله لي و لكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله >> [19] ج4 ص127.

تحليل نص الخطبة: هذا النص الخطابي يعكس سياسة الحكم بعد وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم- بحيث رسم الخليفة الأول أبو بكر -رضي الله عنه- منهجه فيه بإيجاز.

<< وقد سبق أبو بكر بهذه الخطبة السياسين في العالم القديم، ورسم للدول الحديثة أسلوبا راقيا في الحكم، يسمونه اليوم خطبة العرش أو خطبة الرياسة >> [21] ج1 ص237.

ولعل أهم أمر وضعت له القواعد السياسية هو طبيعة الحكم القائم على مبدأ الشورى<< في المرحلة الأولى كان الحكم في الدولة الإسلامية يميل إلى الشورى والديمقراطية لا يستبد الخليفة ولا يتسامى عن الشعب، بل يجد نفسه كأحدهم يتولى عليهم، ولا يرى لنفسه فضلا من دونهم .وهذه النزعة تبدو نزعة طبيعية في واقع الجماعة المسلمة في مطلع عهدها، إذ لم تكن الخلافة قد تحولت إلى ملك عضوض ينحدر إليهم الخليفة من صلب والده بولاية منه، بل يرتقي منهم ولا يسمو عليهم>> [22] ص94.

لذلك نجد في نص هذه الخطبة اختفاء صفة الحكم الجماعي على الحكم بقوله-رضي الله عنه- << أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته، فلا طاعة لي عليكم>> ويعكس نص الخطبة خصائص الحكم المبني على الشورى والمتمثلة في التواضع كأول صفة يجب على الخليفة الاتصاف بها، فقد جعل أبو بكر -رضي الله عنه- نفسه دون الرسول – صلى الله عليه وسلم- منزلة إذ هو معرض للخطأ والسهو وفي هذه الحالة على الرعية تنبيهه، وهو بحاجة إلى الناس حتى وإن كان على صواب ، ويربط طاعتهم إياه بمدى طاعته الله سبحانه وتعالى، وعصيانهم إياه بعصيانه الله تعالى ، وهذا يضع أساسا آخر تبنى عليه الخلافــة وهو الشـريعة الإسلامية. التي أشار إلى بعض مبادئها السامية من صدق وحق، والاعتراف بحق الرعية في محاسبة الخليفة فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ولعل هذا هو العدل. وفي هذه الخطبة يحدد الخليفة أبو بكر الصديق -رضي الله عنه - مسارا آخر في الحكم وهو الحث على الجهاد، فلا يقوم حكم بلا استقامة ولا عز لقوم في دينهم حتى يكون للجهاد في سبيل الله من رسائلهم.

ج- نص خطبة علي - كرم الله وجهه-: لقد أثر النبي- عليه الصلاة و السلام- تأثيرا عظيما على واقع الخطابة في العصر الإسلامي، مرتفعا بها إلى مستوى فني و ثقافي لم تكن تألفه في العصر الجاهلي. وحتى نرى مدى هذا التأثير في فن الخطابة بعد وفاته -عليه الصلاة والسلام-، اخترنا نموذجا آخر من

نصوص الخطابة الراشدية يتمثل في خطابة على – كرم الله وجهه -فبعد خلافة عثمان بن عفان - رضي الله عنه -التي دامت اثنتي عشر سنة ،تولي الخلافة الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه- وزاد سعير نار الفتنة وانقسم المسلمون إلى شيع وأحزاب وانتشرت الخطابة في كل مكان فهؤلاء يدعون إلى طاعة علي وآخرون إلى منابذته والى طاعة معاوية وفريق ثالث يحض على قتال الاثنين ولاشك أن الإمام علي كان له دوره الكبير في الخطابة فقد اشتهر بخطبه المدوية كما أوتي له من العلم والبلاغة فقد تربى في أحضان الرسول - صلى الله عليه وسلم- وارتوى من كتاب الله – تعالى- وما ورد إلينا من الخطب كثرة وجودة يجعل عليا أخطب الخلفاء الراشدين فهو خطيب لا يشق له غبار تتدفق البلاغة على لسانه ويجول ببيانه في كل مجال نستطيع القول أنه توفرت في الخلفاء الراشدين الثلاثة و في علي - رضوان الله عليهم – خاصية يجب أن تتوفر في فن الخطابة حسب ما جاء في العقد الفريد: <<رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وحليها الإعراب وبهاؤها تخير اللفظ والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه..>> [19] ج4 ص123.

ومن دون شك أن الأمام علي كان له دوره الكبير في تطور فن الخطابة، ونصوص خطبه عديدة اخترنا منها نص خطبته في الجهاد لأنها شديدة الارتباط بظروف عهد علي كرم الله وجهه من حيث الظروف السياسية . وجاء نص هذه الخطبة في العقد الفريد بذكر مناسبتها كالتالي:

<< قالوا لما أغار سفيان بن عوف الأزدي على الأنبار في خلافة على – رضى الله عنه- وعليها إبن حسان البكري،فقتله وأزال تلك الخيل عن مسارحها، فخرج علي – رضي الله عنه- حتى جلس على باب السدة، فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: أما بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه ألبسه الله ثوب الذل وشملة البلاء، وألزمه الصغار وسامه الخسف، ومنعه النصف، ألا وإني دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا وسرا وإعلانا ، وقلت لكم: أغزو همقبل أن يغزوكم، فو الله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا. فتواكلتم و تخاذلتم و ثقل عليكم قولي فأخذتموه وراءكم ظهريا، حتى شنت عليكم الغارات وهذا أخو غامد قد بلغت خيله الأنبار، وقتل ابن حسان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها وقتل منكم رجالا صالحين، وقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة و الأخرى المعاهدة فينزع حجلها وقلبها ورعاثها، ثم انصرفوا وافرين ما كلم رجل منهم، فلو أن رجلا مسلما مات من بعد هذا أسفا ما كان عندي ملوما، بل كان به عندي جديرا،فوا عجبا من جد هؤلاء في باطلهم وفشلكم عن حقكم، فقبحا لكم وترحا حين صرتم غرضا يرمى، يغار عليكم ولا تغيرن، وتغزون ولا تغزون، ويعصى الله وترضون فإذا أمرتكم بالمسير إليه في أيام الحر قلتم حمارة القيظ، أمهلنا حتى ينسلخ عنا الحر وإذا أمرتكم بالمسير إليهم ضحى في الشتاء قلتم صبارة القر أمهلنا حتى ينسلخ عنا هذا القر كل هذا فرارا من الحر والقر، فأنتم والله من السيف أثر، يا أشباه الرجال ولا رجال، ويا أحلام أطفال وعقول ربات الحجال، وددت أن الله أخرجني من بين أظهركم، وقبضني إلى رحمته من بينكم وأني لم أركم ولم

أعرفكم، معرفة والله جرت وهنا، لقد ملئتم قلبي قيحا ووريتم والله صدري غيضا وجرعتموني الموت أنفاسا ، وأفسدتم علي رأي بالعصيان والخذلان، حتى قالت قريش: إن ابن أبي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم، وهل منهم أحد أشد لها مراسا و أطول تجربة مني ،لقد مارستها وأنا ابن عشرين، فها أنا ذا الآن قد نيفت على الستين ولكن لا أرى لمن لا يطاع >> [19] ج4 ص136.

تحليل نص الخطبة:

استهل علي – كرم الله وجهه- نص الخطبة بعد المقدمة المتمثلة في الحمد والثناء، بوصف الجهاد ذاكرا أنه باب من أبواب الجنة، ثم أنب المسلمين لتخاذلهم عن القتال، وقد ولى جند معاوية سالمين غانمين، ثم يشتد غضب الإمام فيصور الذل الذي في أتباعه والأعذار الواهية التي يتبررون بها، وفي النهاية يصف الأسى الذي ما برح يعانيه من جراء عصيانهم.

هذه أهم المعاني التي جاءت في نص الخطبة عرضها الأمام في حلة فنية متكاملة بفضل بلاغته التي لم يحجبها غصبه وثورته النفسية تجاه رجاله، وهذا أمر لا يكون إلا في الخطيب المتمكن المتمرس، يقول ابن قتيبة << أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح..>> [33] ج2 ص173. ويقول أبو هلال العسكري: <<آلة البلاغة أن يكون الخطيب رابط الجأش فإن الحيرة والدهشة يورثان الحبسة والحصر، وهما سبب الإرتاج والإجبال..>> [28] ص ص14-15.

فغضبه ونقمته لم يعمياه عن حسن اختيار الأسلوب المناسب لإثارة عواطف سامعيه المكنونة، وتصوير تخاذلهم وجبنهم، لهذا أعرض في مستهل نص الخطبة عن إظهار غايته منها، فظهر بصورة مغايرة<<كأن آراءه آراء واعظ، يتحدث إليهم بأمور دينهم أكثر، مما هي أفكار قائدا تثور فيه النقمة على أتباعه بعد أن تخاذلوا و جروا العار عليه و عليهم >> [22] ص136.

فوصف الجهاد بأنه باب من أبواب الجنة وهذه قيمة دينية إسلامية تأتت من تفقه علي- كرم الله وجهه- فالحديث الشريف صريح وهو يصف الجهاد بأنه ذروة سنام الأمر حيث يقول – عليه الصلاة والسلام- وهو يوجه الكلام لمعاذ بن جبل << ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟قلت: بلى يا رسول الله، قال: رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد >>رواه الترميذي وقال حديث حسن صحيح. وهذا أمر من أمور العقيدة الإسلامية لا يختلف فيه مسلمان، بذلك جذب علي أسماع رجاله ووصل إلى بصائرهم.

4.1.2.الخصائص الفنية والأسلوبية في هذه النصوص

إن الرسول صلى الله عليه وسلم – معلم البشرية أمور دينهم ودنياهم، ومعلم الخلفاء ومن بعدهم أصول الخطابة وقد سار - عليه الصلاة والسلام- ، فيها على هدى القرآن الكريم ليخرج الناس من

الظلمات إلى النور، بما أوتى من البلاغة والفصاحة <<....وقيل لسعيد بن المسيب : من ابلغ الناس؟ قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم ..>> [14] ج1 ص188.

وكان -عليه الصلاة والسلام- واعظا وتارة أخرى مشرعا وأخرى قد يجمع بين الطرفين من الوعظ والإرشاد في نسج بلاغي رائع، ونجد من خطبه الطويلة والقصيرة ومن أهم الخصائص الفنية التي تميزت بها خطابته –عليه الصلاة والسلام- وسائر الخطب بعده ما يلي:

- الابتداء: استن النبي -عليه الصلاة والسلام- في خطبه سنة المقدمات التي تستهل، غالبا بالحمد له والصلاة والاستغفار والشكر ودأب على إنهاء خطبه بعبارات صارت تقليدا في الخطبة الإسلامية بعده. [22] ص88. وهذا التقديم في نص الخطبة الإسلامية على لسان الرسول- صلى الله عليه و سلم– يؤكد مغزى الدعوة الإسلامية القائمة على وحدانية الله ، ذلك باستعمال أسلوب القصر: لا إله إلا الله، وأن الله -سبحانه وتعالى- له الأمر من قبل ومن بعد والغرض من أسلوب القصر هنا هو الإيجاز، واستعمل أسلوب القصر لإٌقرار حقيقة قيام الدعوة الإسلامية لهداية الناس<< من يهدى الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له >>. هذا فضلا عن استهلال الخليفة الأول نص خطبته بحمد الله والثناء عليه و هي سنة مقتبسة من خطبة النبي – صلى الله عليه وسلم – فكان استعمالها من قبل الخليفة أبي بكر – رضي الله عنه- تأكيد على إتباعها يؤدي بها الإمام في أتباعه شهادة الشكر والإقرار بالفضل الإلهي، ويظهر بها إيمانه المطلق في كل ما يطرأ عليه وينتابه من الله –عز وجل- راضيا به.

- الاتجاهات المختلفة في هذه النصوص: في بعض خطبه عليه الصلاة والسلام يكون أسلوبه مباشرا بحيث يخضع العبارة الخطابية لضرورة الإفصاح والتوضيح المباشرين [22] ص87. كقوله -عليه الصلاة والسلام-<< من كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وإن ربا الجاهلية موضوع... >> فالكلام لا يحتمل التأويل ولا يدع مجالا لطرح الأسئلة إذ هو مفهوم فأمر الأمانة يتعلق بأخذها إلى أصحابها، وأمر الربا الذي كان يتعامل به العرب في الجاهلية لم يعد قائما وهكذا كانت لغة النبي -- صلى الله عليه وسلم- لغة تشريعية مبنية على الوضوح فيما يخص المسلمين في الأمور الدينية والاجتماعية. وتظهر الخطبة بلمحات سياسية باهتة ذات صبغة دينية اجتماعية عند أول خليفة للمسلمين، إذ يظهر نوع الحكم المبني على مبدأ الشورى، المدعم بالقيم الإسلامية، فيرتسم الطريق واضحا بذلك أمام الخليفة والرعية.

وتتحول الخطابة عند الإمام علي – كرم الله وجهه- إلى خطابة سياسية، تدور في مجال الأحزاب والطوائف << ولهذا لا يعدو الصواب من يقول: إن العصر السياسي للخطابة الإسلامية بدأ على يد علي بن أبي طالب، وإن كان معدودا في الخلفاء الراشدين، وزعيما خطيرا في هذا العصر الديني إن لم يكن ركنه الركين>> [21] ج1 ص363.

وقد تطورت الخطبة على يديه عما كانت عليه في العصر الجاهلي، فالتحمت وتيسرت لأفكار جديدة، مقتفية في ذلك أثار خطابة الرسول – صلى الله عليه وسلم- من وحدة موضوع وتأثر بقيم الدين الإسلامي، بأسلوب محكم الأداء إلى درجة أننا لا نستطيع التخلي عن لفظة واحدة.

- قوة المنطق في نص الخطبة: يظهر لنا من خلال نص خطبة حجة الوداع أن الرسول - صلى الله عليه وسلم –ينتهج نهجا منطيقا متسلسلا لا سيما في ما كان تشريعيا منها مثل قوله -عليه الصلاة والسلام- <<إن لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حق ..>>إذ استهله بالقول أن للنساء حقا، كما أن للرجال حقا أيضا وفصل في ذلك مما لا يدع مجالا للغموض ، فالفريضة الأولى على المرأة أن لا تدع أحدا يطأ فراش زوجها من دونـــه، وألا تأذن لأحد بالولوج إلى بيتها وإذا ما تجاوزن هذه الحدود، فللزوج أن يهجرهن في المضجع، وأن يعمد لضربهن ضربا غير مبرح. وهنا يعود لإظهار واجبات الزوج نحو زوجته، فيؤمن لها رزقها، ويأخذها بالمودة والمعروف، منتهيا بالتوصية بهن خيرا.

وهكذا فإن الخطبة الإسلامية اختلفت في موضوعها وأسلوبها عن الخطبة الجاهلية التي لم تكن تتيسر للتحليل والتفصيل مكتفية بالآراء والحكم العامة. ويقول إيليا الحاوي أن الخطبة في صدر الإسلام أحرزت تقدما في النثر الفني لأنها أكثر اكتمالا من حيث التحليل وأكثر ارتباطا بالواقع<<إن الخطبة الإسلامية تمثل شوطا في تقدم النثر الفني نحو التكامل والارتباط بالواقع فالشعب يشرع في التعبير عن نفسه متوسلا بالشعر وليست الأسجاع التي كانت تكسو الخطب الجاهلية إلا لتمثل مرحلة انتقالية نزع بها التعبير من الشعر إلى النثر...يعمد التعبير النثري إلى التوضيح والإقناع بالإفهام و المنطق..>> [22] ص83.

وقد وصف الجاحظ بلاغته في خطابته أدق وصف، فقال انه: << جانب أصحاب التقعيب واستعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمه، لم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، وبشر بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبث الخطب الطوال بالكلم القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه خصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ولا يستعين بالخلابة ... ولم يسمع الناس بكلام قط اعم نفعا ولا اقصد لفظا ولا اعدل وزنا ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى من كلامه -صلى الله عليه وسلم- >> [14] ج2 ص ص244-245.

لقد علم الرسول- صلى الله عليه وسلم- أصحابه قواعد الخطابة الإسلامية التي اتخذوها سنة لهم من حيث طريقة الاستهلال، وطرق الموضوع والخاتمة، ففي عصر صدر الإسلام وعلى لسان الرسول عليه الصلاة والسلام –أخذت الخطبة الصورة الكاملة لها بأقسامها الثلاثة.

أما عند علي – كرم الله وجهه-، تتضاعف قوة التأثير والإقناع فلقد عمد الإمام – رضى الله عنه-إلى استعمال الأدلة لإثبات آرائه ، متمثلا بقصة حسان البكري عامله على الانبار الذي قتله سفيان بن عوف الأسدي، ولا مناص من ذكر مثل هذه الأدلة حتى تجعل المتلقي ليس سامعا فحسب بل مشاهدا لواقع لا يترك في نفسه مجالا للشك حيال الأمر الذي يدعو إليه الخطيب.

<< وهذه الأدلة ضرورية للتأثير في الخطابة وقد تحدث عنها أرسطو واقتضاها في منهجه المنطقي لأنها تضع السامع أمام واقع يشاهده ويتلمسه بحواسه وتسهم في إقناعه عن طريق العقل والمنطق، وهكذا، فإن الأدلة آلة تمثل دخول المنطق والحكمة في الخطبة تظهر في خطب الإمام علي التي أصبحت أقرب إلى الحياة الواقعية وأشد ارتباطا بعضها ببعض من الخطب الجاهلية المتشبهة في أحيان كثيرة بأسجاع الكهان >> [22] ص138.

إن هذه الخاصية تكاد تكون عامة في نص خطبة على – كرم الله وجهه- يقول: << فإذا أمرتكم بالمسير إليهم في أيام الحر قلتم حمارة القيظ ، وأمهلنا حتى ينسلخ عنا الحر وإذا أمرتكم بالمسير إليهم ضحى في الشتاء قلتم صبارة القر أمهلنا حتى ينسلـــخ عنا هذا القر كل هذا فرار من الحر والقر فأنتم والله من السف أفر>> فذكر في البدء أوامره ثم يذكر أجوبتهم وينتهي إلى أن تلك الأجوبة توحي بأن هؤلاء القوم جبناء يهربون من مواجهة السيف. ولعلنا نلاحظ الفرق البين بين الخطبة الجاهلية بجملها غير المتواصلة وبين الخطبة الإسلامية بكلامها المحكم المتراص الموصول، وكذا النقاش المعتمد على البينات والبراهين تقابله في الخطبة الجاهلية ما استخلصه صاحبها من الحياة.

<< هذه الجمل... ليست حتمية واحدة بالنسبة للناس جميعا، كما هو الشأن في التحليل المنطقي بل لأنها تختلف بالنسبة للأشخاص والمبادئ التي يؤمنون بها والحالات التي تعتري نفوسهم، وهذا ما أشار إليه أرسطو عندما قال: <<إن البراهين الخطابية هي براهين احتمالية ممكنة تتبدل للنفوس والأحوال>> فلو أن عليا لم يكن شجاعا مقداما موتورا في الآن ذاته بالنكبة التي حلت بأتباعه لما خلص إلى القول: إن تلك الحالة لحرية أن تدفع بالمسلمين إلى الموت قهرا. فالخطابة تعتمد المنطق في مقدمتيه بينما تظل النتيجة نفسية نسبية و الإبداع الخطابي يظهر في القدرة على اكتشاف النتائج التي يحدث تأثيرها على السامعين من خلال الهالة المنطقية التي تتقدمها .

وهذا هو في الواقع التأثير الذي يفعل في النفس فعلا دائما بأن الخطيب الذي لا يعتمد الأدلة المنطقية في سبيل النتائج النفسية، قد يوفق في تأثير حينا إلا أن تأثيره يزول و يتعفى سراعا كالنار في الهشيم >> [22] ص139. وهكذا يصل علي – كرم الله وجهه- إلى أعلى درجة التأثير في عقول ونفوس سامعيه،

بالنسبة للعقل قد أخذهم بالحجة والبينة، والنسبة لنفس فقد أخذهم بجعل نفسه وإياهم في موقف يكاد يكون واحدا، إلى أن لان عوده وظهر عيبهم، صار أسلوب الخطيب أسلوب عتاب ولوم وذم يعكس عظيم حزنه وبالغ أسفه وشديد نقمته، وذلك بما جنت أياديهم يقول الأمام << فوا عجبا من جد هؤلاء في باطلهم وفشلكم عن حقكم، فقبحا لكم وترحا حين صرتم غرضا يرمى يغار عليكم ولا تغيرون... >> .

- حضور الشخصية وأثرها في الإقناع: فقول الإمام أن الجهاد باب من أبواب الجنة مجاز شبه فيه الجهاد بباب من أبواب الجنة، وهو تشبيه بليغ يمثل وسيلة من وسائل الترغيب، فما من مؤمن إلا ويطمع في دخول الجنة. وما أن يغرس علي الأمل بنيل الجنة في نفوس السامعين حتى يأخذهم بأسلوب الترهيب بما سيلقاه المتولي عن الجهاد من ذل وضالة قدر ومنع من الإنصاف، ثم ينتقل بعد هذه المقدمة إلى غايته مستهلا الحديث عن نقمته فأخذ يذكـــرهم بما كان منه إليهم، وحتى يقيم الدليـــل على خطأهـــم ويقنعهم بأنهم كانوا متقاعسين، وبالتالي يؤثر كل التأثير فيهم، فقد غالى في وصف نصحه إياهم وتحذيرهم من معاوية << والغلو الذي ظهر عندما أعلن لهم أنه كـان يدأب على دعوتهم ليلا ونهارا وفي السر والعلانية.لا شك أن طبيعة الخطابة تميل أبدا إلى الغلو لتبث الانفعال في قلوب السامعين >>[22] ص137. إن الخطب جلل والمصيبة أعظم من أن توصف، وكل هذا لم يجعل الإمام علي – كرم الله وجهه- يسف في توبيخه رجاله إلى مستوى تأنفه تقواه وعفته، يقول: << يا أشباه الرجال ولا رجال ويا أحلام أطفال و عقول ربات الحجال>> فرجال علي – كرم الله وجهه- عظيمو الهامة يوهمون الرائي أنهم يسعون إلى أمر جلل –كالرجال- بينما هم في الواقع يكتفون من الحياة بالعيش الذليل يهابون الأمر كالأطفال ويجبنون عن الحرب كالنساء، إن كان هذا التوبيخ شديد إلا أنه لا ينزع عن الموبخ إنسانيته، فكان معتدلا في توبيخه دون المداهنة ودون الاحتقار مما يعكس تقواه (وهذا حري بفقيه وابن عم الرسول – صلى الله عليه وسلم- وزوج ابنته فاطمة وأحد المبشرين بالجنة) وهذا ما يأسر قلوب رجاله و يجعل عقولهم تنقاد إلى أفكاره وحكمته ومراده، وينتهي –كرم الله وجهه- بنص خطبته إلى عكس نقمته على رجاله الممزوج بيأس << لقد ملأتم قلبي قيحا و ووريتم و الله صدري غيظا، وجرعتموني الموت أنفاسا.. >>.

- حضور الشواهد من القران الكريم وأحاديث الرسول – صلى الله عليه وسلم- و أشعار العرب:

لقد تميزت كثير من خطب الرسول -صلى الله عليه وسلم -بالاقتباس من القران الكريم مما يزيد خطبه جمالا وتأثيرا لا سيما خطب الجمعة، فهو -عليه الصلاة والسلام- يستشهد بكلام الله – تعالى- ليؤكد ما جاء به ويذكر الناس بأن الشريعة الإسلامية ليست من وضع البشر، كما يستشهد الخطيب بالحديث الشريف بنصه أو بمضمونه، ويظهر ذلك في وصف علي – كرم الله وجهه- الجهاد بأنه باب من أبواب الجنة وقد سبق وأن ذكرنا نص الحديث الشريف أثناء تحليل نص خطبة علي – رضي الله عنه- كما أن الخطيب يستشهد أحيانا ببعض الأمثال أو ببعض أبيات الشعر لتأكيد المعنى وزيادة التأثير

في نفوس السامعين وإقنـــاعهم على نحو ما نجد في إحدى خطب أبي بكــر في الأنصار، فقد استشهد بشعر " طفيل الغنوي" حيث يقول: [36] ج1 ص39.

جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت بنا نعلنــا في الواطئيــن فزلت

أبوا إن يمـــلونا ولو أن أمنـــا تلاقي الذي يلقـون منا لمـلت

هم أسكنـــونا في ظـلال بيوتهـــم ظــلال بيـــوت أدفأت وأظلت

- المقدرة على معالجة الموضوعات المختلفة إيجازا وإسهابا: كان إيجاز الرسول -صلى الله عليه وسلم- في الخطب إعجازا مع الوضوح والسلاسة والعذوبة، قالت السيدة عائشة -رضي الله -عنها: << ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد كسردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من جلس إليه>> [21] ج1 ص199، كقوله -عليه الصلاة والسلام-<< إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم>> فلا نستطيع أن نحذف عبارة مما سبق وإلا صار الكلام غامضا لا يبين المقصود من القول وفي نفس الوقت تدل هذه العبارة على مدلولات كثيرة فقوله ما تحقرون من أعمالكم إيجاز لكثير من الأمور التي يمكن أن يراها المسلم أمورا ليس فيها غضب الله- سبحانه و تعالى- ولا فيها طاعة الشيطان وهي في الحقيقة مجلبة لغضب الله -عز وجل- وفيها إتباع للشيطان -عليه لعنة الله –لذلك فكلام الرسول - صلى الله عليه وسلم- بين لا يصعب حفظه على من يسمعه، وهذه هي:البلاغة كلها إذا ما اعتمدنا تعريف العرب للبلاغة بأنها إيجاز. ونلخص كلامنا حول أسلوب الرسول - صلى الله عليه وسلم- وبلاغته أنه أسلوب سهل ممتنع لا سجع ولا غريب لفظ فيه، ويجعل لكل مقام مقالا لذلك نجد الخطب الطويلـــة والقصيرة يقول الجاحظ: قال: خطب النبي - صلى الله عليه وسلم- بعشر كلمات، حمد لله وأثنى عليه ثم قال: << أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وان لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم إن المؤمن بين مخافتين: بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به، وبين اجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت، والذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار>> [14] ج1 ص183.

وأهم ما يميز نص خطبة أبي بكر – رضي الله عنه- الإيجاز<< والإيجاز مستحب في هذا الموقف (أثناء توليه الخلافة)، فضلا عن أن أبا بكر كان يحب الإيجاز عامـــة لأنه أليق بخلاله المشهورة من فضل ومروءة ووقار وكان يوصي به لأن كثير الكلام ينسي بعضه بعضا، كما قال ليزيد بن أبي سفيان >> [21] ج1 ص237، لاحظ قوله << إني قد وليت عليكم و لست بخيركم... >> لقد تضمنت هذه الجملة معاني عدة ، ففيها استعماله لصيغة البناء للمجهول دلالة على أنه اختير من قبل الرعية وذلك بعد التشاور، مما يؤكد قيام الحكم على مبدأ الشورى، وما كان الخليفة الصديق –رضي الله عنه- يطمح إلى الخلافة ولا يطمع فيها ، أما قوله << لست بخيركم>> تنبيء عن تواضعه وهو صديق الرسول -

صلى الله عليه وسلم- و أول رجل أسلـــم وثاني اثنيـن إذ هما في الغـــار، وهو من تحمل مسؤولية إبلاغ الأمر للناس بوفاة الرسول –صلى الله عليه وسلم – و ما كان الأمر هينا مع ذلك استطاع أن يهدأ من روع المسلميـــن ، ومع كل ذلك يقر للنـاس بأنه ليس بأحسنهم ومن سمات الإيجاز السهولة والصرامة ووضوح القصد.

- الإضعاف من شأن الأسجاع: لم يتخل عنها عليه الصلاة والسلام تخليا تاما لكنه أضعف من شأنها ولم يدعمها عمادا للتأثير والإيحاء كالجاهلي، فقد أبقى على ضرب من الأنغام الداخلية الخافتة من سجع وازدواج وحسن فصل ووصل، في توازن العبارة وتشابه صيغها وبخاصة في نهاية الجمل [22] ص88. مثل قوله -عليه الصلاة والسلام- ﴿<<عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم، إلا بإذنكم >> ولا نجد هذا التشابه في نهاية الجمل فحسب بل في نهاية الفقرات كذلك كقوله عليه الصلاة والسلام- (ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد) ويصف د. محمد طاهر درويش هذا بقوله<<..تلك العبارة الحلوة ذات الإيقاع الجميل والنغم العذب -ألا هل بغلت؟ اللهم فاشهد- إنها الفطرة السليمة والذوق الرفيع يهديان عفوا إلى ما يعجز عنه كل صاحب صنعة وفن مجلوب..>> [21] ج1 ص217. هكذا يقر صاحب هذه المقــولة بأن الرســـول - صلى الله عليه وسلم – غير متكلف في استعمال الأسجاع بل تأتي بصورة عفوية تنم عن مقدرة بلاغية فائقة وهذه سمة نص الخطبة في العصر في العصر الإسلامي بصفة عامة وفي عصر صدر الإسلام بصفة خاصة.

- الألفاظ والتراكيب: ألفاظ خطبته -عليه الصلاة والسلام- نقية وعباراتها سهلة وأساليبها مختارة بعيدة عن الصنعة والزخرفة والتكلف في تنويع يضفي عليها طلاوة الجدة ، ويكسبها مزيدا من التأثير والتشويق لا خشونة ولا غرابة فيها. وبيان ذلك أن قوله من السنة والسنة المصدر الثاني بعد القرآن الكريم في التشريع الإسلامي، فكلمات الرسول -عليه الصلاة والسلام- تأتي لتشرح المعنى لذلك لا غرابة ولا خشونة فيها فيفهمها العام والخاص وتأتي مؤثرة مشوقة كقوله: -عليه الصلاة والسلام-<<إن أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى>> هذه الألفاظ ميسورة الفهم بساطتها جعلتها في أعلى مراتب البلاغة تحقق المعجزة ببسط العدل والمساواة بين الناس، وتشوق إلى الأخذ بهذا الدين الجليل. ونحن نعلم ما للألفاظ من سحر في النفوس ونذكر وصف ابن الأثير لها ولأثرها في النفوس<<اعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر، فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة و لين أخلاق، ولطافة مزاج، ولهذا نرى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد تركوا خيولهم واستلأموا سلاحهم، وتأهبوا للطراد، وترى ألفاظ البحتري كأنها نساء حسان، عليهن مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلي >>. [24] ص69، هذا الكلام يحدد وظيفة ووقع الألفاظ في النفس، فماذا لو جاءت هذه الألفاظ على لسان من أوتي جوامع الكلم. كما تتعدد دلالات الألفاظ أحيانا مع مراعاة مقتضى الحال في نص الخطبة الإسلامية. فقد استهل

علي- كرم الله وجهه- فقرة من نص خطبته بقوله " فوا عجبا" وفيها دلالة على أمرين: الأول وقد تحقق من قبل وهو إظهار الدهشة، والثاني الاستياء الذي يتبين خاصة في تقبيحه لهم، وهذا يعني أن الخطيب يتدرج في إلقاء معاني خطبته في المستمعين مع مراعاة الأسلوب المناسب للحالة النفسية اعتمادا على الألفاظ الدالة على دهشة ولوم وتحقير فلفظة التعجب سبقت لفظة التقبيح، دون أن يكون الغرض من ذلك الهدم، بل الغرض منه البناء وإصلاح ما فسد وتغيير ما يستدعي التغيير من السيء إلى الحسن وتصحيح الخطأ، وهذه المعاني عبر عنها بألفاظ يسيرة عكست بعد نظر الخطيب وحسن نواياه مما جعلها تنغرز في النفس وتنفذ إلى البصيرة. ولا عجب من أن يكون للألفاظ كل هذا الأثر إذ نجد الجاحظ يبسط الكلام في هذا الشأن إذ يقول: <<وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه وكان الله- عز وجل- قد ألبسه من الجلالة وغشاه نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله، فإذا كان المعنى شريفا، واللفظ بليغا، وكان صحيح الطبع، بعيدا من الاستكراه، ومنزها عن الاختلال، ومصونا من التكلف، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة ومتى فسرت الكلمة على هذه الشريطة ونفذت من قائلها على هذه الصفة أصحبها الله من التوفيق، ومنحها من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة >> [14] ص183.

وما استعمله الإمام علي من ألفاظ ذات دلالات ينتهي به إلى غاية الخطبة وهو الإقناع وفي نص خطبته هذه، إلى تحريك الهمم وشحذها، ولولا أن الخطيب كان مخلصا لما بلغ بألفاظه وبأسلوبه إلى هذه الدرجة من بلاغة القول فشدة التأثير، فهو لا يتحدث عن الباطل والحق شفاهيا دون أن يكون مصدرهما الوجدان، بل على العكس فإن إيمانه الراسخ بحقه هو الذي غذى ذلك الغضب الذي برح يلتهب منذ مطلع الخطبة، وبهذا يكون الإخلاص عمادا في الخطابة يفجر المعاني ويوحي بالأساليب إيحاء نفسيا شديد التأثير، وهذا ما أشار إليه الجاحظ وأكده.

- تنوع نص الخطبة بين الخبر والإنشاء: كان استهلال نص الخطبة بالأسلوب الخبري ليفيد التأكيد<<إن الحمد لله نحمده ونستغفره ... >> ذلك باستعمال أداة التوكيد"إن" التي تتكرر في نص الخطبة <<..إن ربا الجاهلية موضوع..>>.

<<..إن الشيطان قد يئس أن يعبد...>>مع استعمال الأداة "قد" التي تفيد التحقيق إذ سبقت الفعل الماضي. وكذلك من الألفاظ الدالة عل التأكيد لفظ " أجمعين"في قوله:<< فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين>> وهذا توكيد معنوي الغرض منه الشمول، أي اللعنه من الله ومن الملائكة ومن الناس كلهم دون استثناء. أما الأسلوب الإنشائي فأبرز صيغه صيغة النداء بغرض لفت الانتباه لما سيعرض في الخطبة من أمر أو أمور، وجاء ذلك بلفظ متكرر في خطبه -عليه الصلاة والسلام- وهو" أيها الناس " والغرض من استعمال المنادى "الناس"دون سواه هو شمولية الدعوة المحمدية لكافة البشر، فحينما يوجه كلاما للناس فإنه لا يخص فئة دون أخرى، إنما هي الدعوة الإسلامية لعبادة الله -عز وجل - وإقامة

شرائعه على وجه البسيطة الخضراء وكل فرد مكلف بذلك ورسالة محمد -عليه الصلاة و السلام – هي التبليغ ونجد في المقدمة قوله - صلى الله عليه وسلم -<< أوصيكم عباد الله.. >> فقد جاءت صيغة النداء<< عباد الله >> بحذف حرف النداء وفي المنادى<<عباد الله>> دلالة على أن العبودية لا تكون إلا لله –عز و جل- ولذلك ورد المنادى مضافا إلى لفظ الجلالة << الله >> كما استعمل -عليه الصلاة والسلام – صيغة نداء موجزة تمثلت في قوله-اللهم أشهد- التي يختم بها كل فقرة من نص خطبته ولعل هذا التنوع في صيغ النداء أكسبت نص الخطبة قوة تأثير في المتلقي مع حلاوة في النطق.

وغالبا ما يتلو أسلوب النداء صيغة الأمر من مثل قوله -عليه الصلاة و السلام- << أيها الناس اسمعوا مني>>فربط بين النداء والأمر لضرورة الاستماع لما سيلقى بعد لفت الانتباه بالنداء.

ويتكرر الأمر<< اتقوا الله...استوصوا.. >> والغرض من صيغة الأمر في نص خطبته -عليه الصلاة والسلام-النصح والإرشاد.

أما بالنسبة لصيغة الاستفهام فقد ختم به - عليه الصلاة والسلام - كل فقرة من فقــرات نص الخطبة << ألا هل بلغت؟ >> وجاءت صيغة الاستفهام بلفظ <<هل >> لطلب التصديق، لذلك كان جواب الناس <<نعم >>. كما نجد الخليفـــة أبا بكر – رضي الله عنه - قد بادر بالأسلوب الخبري ليؤكد الكــلام ثم استعمل الإنشـــائي حتى يؤكد تواضعه وعدم طمعـــه في الخـــلافة، باستعمال الأمر الذي غرضه الطلب و الالتماس.

- أثر التقديم والتأخير في نص الخطبة: إن التقديم والتأخر في نص خطبة حجة الوداع جاء بغرض الاهتمام بأمر المتقدم من مثل قوله عليه الصلاة والسلام<<إن لنسائكم عليكم حقا >> ففي الفقرة التي وردت فيها هذه العبارة نجد الحديث يخص العلاقة الزوجية ولكن استهلها بالحديث عن النساء وأوجب - عليه الصلاة والسلام- حسن معاملتهن وخوف الله فيهن، فلذلك تقدم خبر إن <<شبه جملة - لنسائكم>>عن اسمها <<حقا>> وفي قوله - عليه الصلاة والسلام - <<عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين>>.إذ تقدم الخبر<<عليه >>على المبتدأ <<لعنة الله >> والاهتمام بأمر المتقدم في هذا الموضع ليس من باب الحث على رفع شأن المتقدم وإنما من باب الحط من شأنه المتمثل في من ينسب الابن لغير أبيه أو لا ينسبه أبدا.

- البيان والبديع في نص الخطبة: لقد أوتى الرسول - صلى الله عليه وسلم – ما أوتى من فصاحة اللسان وقوة البيـــان، إلا أن توظيفه للبيان لم يكن مبالغا فيه ولم يستحضر الصور البعيدة عن تفكير المستمع حتى يبقى هذا الأخير مرتبطا بالمعنى المقصود من خلال الخطبة كقوله -عليه الصلاة والسلام-: <<إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا >> فشبه حرمة الدماء والأموال بين الناس بدون حق بحرمة اليوم الذي ألقيت فيه الخطبة وهو يوم عرفة، فنلاحظ أن المشبه به جاء به الرسول- صلى الله عليه وسلم- من واقع المسلمين الذي يعيشونه في ذلك اليوم. ومن أثر هذا التشبيه في

نفوس المستمعيــن زيادة ارتباطهم بدينهم و تقديسهم للدماء والأموال بينهم كتقديسهم ليوم عرفة. كما نجد أبا بكر الصديق – رضي الله عنه- قد لجأ إلى استعمال أسلوب الترهيب بتوظيف الاستعارة<<ضربهم الله بالذل...وعمهم الله بالبلاء >> وأكد معاني نص خطبته باستعمال السجح والمقابلة من مثل قوله: <<... أمانة... خيانة >> مقابلة المعاني من مثل قوله <<أحسنت فأعينوني / وإن أساءت فقوموني. الصدق أمانة / والكذب خيانة..>> والملاحظ في نص خطبة علي –كرم الله وجهه- منذ البداية استعمال المقابلة كقوله أن الجهاد باب من أبواب الجنة - طبعا بالنسبة للمجاهد في سبيل الله -أما الذي لا يجاهد في سبيل الله فيلبسه الله ثوب الذل وشملّة البلاء...ولما أراد أن يمثل الخــزي الذي ألم بأتباعه صور لهم فتك جند معاوية بهم ثم فرارهم << وافــرين ما كلم رجل منهم>> فذكر القتلى أمر مؤثر في النفوس ولكن هذا التأثر يصبح ثورة حينما تقابله بصورة العــدو وهو عائد دون أن يمس بأذى وقوله: << فلو أن رجـــلا مسلما مات من بعد هذا أسفا ما كان عندي ملوما، بل كان به عندي جديرا>> بهذه المقابلة بين ردود الفعل المختلفة لما لحق بجند علي وهذا يعكس جانبا نفسيا بعد أن كان يخاطب الجانب العقلي فيهم .

وهناك من يرى أن عليا -كرم الله وجهه - أخطب الناس بعد الرسول – صلى الله عليه وسلم-:

<< إن علي كان إماما في بلاغته، رائدا في خطبته.. وأفصح الناس بعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم- فمن ذا الذي يبلغ هذا الشأو فيها، أو يتطاول إلى هذه الغاية منها،... ولنقر أنه كان حكيما في بلاغته فيلسوفا مفكرا في خطابته وأنه قد أضاف إلى جزالة البداوة وصقل الحضارة وإلى عبقرية العقل نفحة الروح وإلى معدن الطبع وشي الصناعة فله سبق إلى فنية الأسلوب، وإقتداء واع بالقرآن الكريمٍ>> [21] ج1 ص ص 362-363، فمن خلال هذا الكلام نقف عند عبارتين: الأولى " نفحة الروح".

ويقصد بذلك صدق الخطيب وحسن نواياه. أما الثانية " وشي الصناعة" ويقصد بها توظيفه للمحسنات البديعية التي تزيد المعنى قوة وعمقا والأسلوب جمالا. فذكرنا المقابلة في نص خطبته وبينا مدى أثرها في المعنى، وإلى جانب المقابلة نجد الطباق كقوله: ليلا ونهارا، سرا وإعلانا، ملوما وجديرا، باطلهم وحقهم ،يغار ولا تغيــرون، تغزون ولا تغزون، الصيف والشتاء ، الحر والقر، وكذلك السجع مثل قوله: وسامه الخسف، ومنعه النصف، كل هذا فرارا من الحر والفر، فأنتم والله من السيف أفر...وكان اعتماد الإمام على المحسنات المعنوية أكثر من اعتماده على المحسنات اللفظية، لذلك وظف المقابلة والطباق بنسبة أكبر من توظيفه للسجع مثلا، وقد يعود هذا إلى اهتمام الإمام بموضوع الخطبة والحرص على بلوغ الغرض منها وهو الحث على الجهاد، فلا حاجة له بالمحسنات اللفظية حتى يكسب فواصل جمل نص خطبته جرسا موسيقيا، إنما هو بحاجة إلى نقش معاني وأفكار خطبته على عقول وقلوب سامعيه والطريق إلى تحقيق ذلك هو ما استعمله من مقابلة وطباق.

مما تقدم يتضح لنا كيف ارتقت الخطابة في عصر صدر الإسلام، وكيف تحولت خصائصها، ونجمل ذلك في نقاط كالتالي:

1-القضاء على بعض مجالات الخطابة الجاهلية كخطب المنافرات والمفاخرات والتعصب القبلي، التي كانت تشعل نيران التباغض، وتؤجج الأحقاد وتمزق وحدة العرب، فقد جد الإسلام في القضاء على بـــواعث هذه الألـــوان من الخطابة، بتشـــديد النهي عن التفاخر بالأحـساب والأنساب بما شنه من حرب لا هوادة فيها على العصبية القبلية وبواعثها.

2- تحويل مواقف خطابية جاهلية إلى مواقف خطابية إسلامية، كخطب الغزو و الجهاد، التي حلت محل خطب التحريض على الغارات والآخذ بالثأر، وغيرها مما كان ينبعث على الصراع القبلي.

3-اتخاذ كثير من الخطب في الإسلام طابعا دينيا لم يكن موجودا في الجاهلية، كخطب الدعوة إلى الإسلام، وشرح عقائده وخطب الوعظ.

4-ظهور ملامح الخطابة السياسية وتدرجها في طريق النمو والتطور واكتمال العناصر الخاصة بها.

5- أصبحت المعاني تستمد من القرآن الكريم، وكذلك الأساليب، فيقتبس منه، ويستشهد بالشعر أحيانا، وخلا الأسلوب من السجع إلا ما كان عارضا في غير تكلف، وأسلوب القسم تغير من القسم بعناصر الطبيعة و ما شابه ذلك إلى القسم بالله ، للتحذير من العقاب وتحذير من كذب بجهنم.

واعتمد أسلوب الترهيب والترغيب للحث على حب الله والعمل لأجل الفوز بالجنة.

لذلك نجد صيغ النهي، و الاستفهام، و التعجب والتقديم والتأخير تكثر في هذا المجال.

كما أن المقدمة صارت عبارة عن حمدلة، و تشهد، ثم صلب الموضوع، لتكون الخاتمة في أغلب الأحيـــان عبارة عن أدعية، ولكل مقام مقال، مع الالتزام بالموضوع الواحد في الخطبة والتركيز عليه بألفاظ مهذبة سهلة عذبة مألوفة بعيدة عن الخشونة والغرابة – كألفاظ خطب العصر الجاهلي- وتوسعت دلالتها باستخدامها في معان جديدة لم تعرفها اللغة العربية قبل الإسلام مثل الصلاة، الجنة، النار وخلاصة القول أن القرآن الكريم أسهم بشكل كبير وواضح في تطور نص الخطبة في عصر صدر الإسلام، فصار أسلوب الخطبة أسلوبا في غاية الإتقان، محكم النظام في درجة عالية من البلاغة وظل الإيجاز في القول ملحوظا ومطلوبا رعاية للمقام، وموازنة بين أقدار المعاني وأقدار السامعين في مختلف أحوالهم ، ولم تعد الإطالة إلا لداع يقتضيها.

2.2.تطور نص الخطبة في العصر الأموي

1.2.2. بواعث ازدهار الخطابة في العصر الأمـــــوي

جارت الخطابة الشعر في العصر الأموي، وعلا شأنها، إذ تناولت شؤون الدولة العامة ومثلت السياسة أصدق تمثيل، وكانت السلاح القوي الذي يعتمد عليه الساسة من الأحزاب المختلفة في الدعاية لأنفسهم، واستمالة القلوب إليهم، وتهديد الخارجين عليهم والحملة على خصومهم ومناوئيهم.

وقد تظاهرت الخطابة والشعر على تحقيق هذه الغايات غير أن الشعر كان من عمل الدعاة والأعوان، أما الخطابة فكانت من عمل الساسة في أكثر الأحيان. من خلال ذلك يتبين لنا أن العصر الأموي عصر

جديد يختلف اختلافا واضحا عن عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم – و لفائه الراشدين بما غلب عليه من عنصر السياسة وروحها وطابعها، وبما انتهى إليه من قيام دولة سياسية أموية، أخذت صيغة الملك ومظاهره، وانقضاء عهد الخلافة الإسلامية والإمامة الدينية بما كان لها من مناهج معروفة وسنن مألوفة.

- سبق وأن أشرنا إلى ذلك – فكانت الدولة الأموية وعصرها، والسياسة تسيطر عليهما أولا، والدين ثانيا.

و كان طبيعيا أن تنهض الخطبة في هذا العصر، لعدة أسباب أهمها:

أ - الأحزاب السياسية: في ضمن النزاعات والآراء نبتت الأحزاب والطوائف، وكانت الأسباب الرئيسية التي أنبتتها ودعت إلى قيامها أسباب سياسية، « فارتمى في أحضانها الشيعة و الخوارج والزبيريون، وحتى أولائك المعتزلة والمهم أن الأحزاب تعددت، وقامت دعاية كل منها على الخطابة، إذا كان لكل حزب خطباء.إذا فالخطابة صوت الأحزاب والطوائف، تصور أرائها ودعواتها وخصوماتها ووقائعـــها وجدلها، فهي سلاحها وعدتها، تسجل أيامها وأحداثها وذلك كله مطبوع بطابع السياسة « بل هو السياسة ذاتها ».

من الطبيعي أن تأخذ الخطابة في هذا العصر السياسي لونا سياسيا، فالخطابة من الأدب، والأدب على اختلاف فنونه مظهر من مظاهر الحياة الإنسانية يخضع لما تخضع له ويتأثر بما تتأثر به.

ب- الحرية والجدل في الدين: كانت حرية الرأي و القول مكفولة، فاستطاع الخطيب أن يجهر برأيه في الناس ولم يكن بد في ذلك العصر من كثرة الخطب، لتلاحق الأحداث وكثرتها من ناحية ولأن الخطابة وسيلة التأثير في الجماهير من ناحية أخرى. إذ كانت تقوم مقام الصحافة والإذاعة في عصرنا الحالي .

وقد سلمت للناس حريتهم القولية لعدة أسباب: السبب الأول أن معاوية مؤسس الدولة أعلن أنه يسوس الناس بالحلم وسعة الصدر والتجاوز عن المساءلة القولية، فهو القائل: إن لم يكن إلا ما يشتفي به القائل بلسانه، فقد جعلت ذلك له دبر أذني، وتحت قدمي [19] ج2 ص140، والسبب الثاني أن الأحزاب كانت تنعم بحريتها الكاملة لأنها ليست في قبضة الحكومة، وإذا كانت الحكومة قد حاربت الأحزاب، فإن هذه الحروب كانت تفسح أمام الخطباء مجال المقال.

والسبب الثالث أن كثيرا من المنتمين إلى الأحزاب لم يكن يرهب من إعلان رأيه، و لم تكن هذه الشجاعة النفسية مقصورة على الزعماء أو المتحزبين « فقد شهد أعرابي أمام معاوية بشيء كرهه، فقال له معاوية كذبت يا أعرابي فقال الأعرابي: الكاذب و الله متزمل في ثيابك »[37] ص364.

وظهرت الطوائف الدينية كالمعتزلة التي تعتبر مدرسة فكرية إسلامية وجهت الحركات العقلية الإسلامية وجهة جديدة، فكان هذا العصر مزدحما بالأحداث والتطورات حافلا بتضارب الآراء والنزعات، مليء باصطدام المذاهب والنظريات، كان أدبه زاخرا بصور ذلك كله، وكانت الخطابة و الشعر من أهم ما مثل هذه المذاهب بالاعتماد على المنطق وفصاحة اللسان وقوة الحجة« وجد المتصارعون في ميدان

السياسة من شيعة وأمويين وخوارج عند الخطابة حاجتهم من سلاح مرجف عتيد لا يفل، ووجدت الخطابة في محيط هذه الأحزاب خير بيئة تحتضنها. فظهرت المحاورات والمجادلات والمناظرات التي تكاد تكون ضرورة في مثل هذا المجتمع، الذي يقوم الصراع فيه حول مبادئ وآراء ومذاهب...» [21] ج2 ص72.

جـ- الحروب والثورات: كانت الحروب والثـورات مذكيــة للخطابة، فالقواد الفاتحون ذووا لسن يعتمدون عليها في تحميس جنودهم، و القواد المقاومون للثورات، و قادة الثورات كل منهم يتخذ الخطابة من سلاحه، لهذا نجد كثيرا من الخطب موصولة بأحداث سياسية و مواقع حربية .

د- فصاحة العرب: كان العرب في ذلك العصر ذوي حظ عظيم من المقدرة البيانية، والبديهة والفصاحة المتوارثين، فالمعروف أن العرب لم تكن سليقتهم في ذلك العصر قد فسدت.

والمعروف أنهم كانوا حرصين على لغتهم وأدبهم حفظا وروية وكان الخلفاء والأمراء ينشئون أبنائهم في البادية لتكفل لهم التربية لما فيها من منافع، منها فصاحة القول ولعل معاوية قد سبق إلى هذا إذ بعث ابنه يزيد إلى البادية عند أخواله بني كلب مع أمه ميسون [19] ج1 ص293.

لما وجد عبد الملك أن ابنه الوليد يلحن، قال: أضر بالوليد حبنا له، فلم نرسله إلى البادية. إذ كان داء اللحن قد دب إلى بعض الخطباء فإنه كان ضئيلا وقليلا، على أنه لم يفسد ملكة البيان وتدفق التعبير. [37] ص365.

هـ- تقدير الخطباء: أشرنا إلى أن السياسة كانت طاغية على أحداث العصر، و كانت الخطابة من أعظم عدة السياسي، بذلك ارتفع شأن الخطباء، وزاحموا بمقدرتهم الخطابية أبناء الأشراف والسادة، فلم تكن المناصب الكبار محبوسة على هؤلاء، و بحسبنا أن نمثل بالحجاج و زياد . و يظهر أن نزعة العربي إلى الفخار بالسيف واللسان التي كانت في الجاهلية مازالت عظيمة السلطان في هذا العصر « يدل على ذلك أن يزيد بن معاوية امتن على زياد بقوله: لقد نقلناك من ولاء ثقيف إلى عز قريش، ومن عبيد إلى أبي سفيان، ومن القلم إلى المنابر »[37] ص366.

2.2.2.أعلام الخطابة في العصر الأموي ونماذج من خطبهم

النموذج الأول: معاوية بن أبي سفيان

ركوب المنابر وثابـــها

معن بخطبته مجهـــر

تريغ إليه هوادي الكـلا

م، إذا ضل خطبته المهذر

معاوية ابن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصي، وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، ويكنى أبا عبد الرحمان. هو مؤسس الدولة الأموية في

الشام ، وأحد دهاة العرب المتميزين كان فصيحا، حليما، واسلم يوم فتح مكة سنة 8 هجري، تعلم الكتابة والحساب. دامت خلافة معاوية من 41 هـ إلى 60هـ و مات في دمشق . « وهو أول مسلم ركب بحر الروم للغزو، وفي أيامه فتح كثير من جزائر اليونان والدردنيل وحاصر القسطنطينية برا وبحرا (سنة 48) و هو أول من جعل دمشق مقر خلافة ، وأول من اتخذ المقاصير (الدولة الواسعة المحصنة) وأول من اتخذ الحرس والحجام في الاسلام، و أول من نصب المحراب في المسجد كان يخطب قاعدا وكان طوالا جسيما أبيض " ضربت " ثيابه دنانير « عليها صورة أعرابي متقلد سيفا» [38] ج7 ص ص482-492.

نماذج من خطبه:

قال القحذمي: لما قدم معاوية المدينة عام الجماعة تلقاه رجال قريش فقالوا: الحمد لله الذي أعز نصرك، و أعلى كعبك .قال : فو الله ما رد عليهم شيئا حتى صعد المنبر ، فحمد الله و أثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإني والله ما وليتها بمحبة منكم ولا مسرة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة، ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة وأردتها على عمل عمر.فنفرت من ذلك نفارا شديدا ، وأردتها مثل ثنيات عمان، فأبت علي فسلكت بها طريقا لي ولكم فيه منفعة، مؤآكلة حسنة ومشاربة جميلة، فإن لم تجدوني خيركم فإني خير لكم ولاية، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا يستشفي به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك له دبر أذني وتحت قدمي، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه، فإن أتاكم من خير فاقبلـوه، فإن السيل إذا زاد عنى، و إذا قل أغنى، وإياكم والفتنة، فإنها تفسـد المعيشة و تكدر النعمة، ثم نزل» [19] ج4 ص147.

وخطبة أخرى يقول فيها: « يا أهل المدينة، إني لست أحب أن تكونوا خلقا كخلق العراق: يعيبون الشيء وهم فيه، كل امرئ منهم شيعه نفسه فاقبلونا بما فينا فإن ما وراءنا شر لكم، وإن معروف زماننا هذا منكر زمان قد مضى، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأتي، ولو قد أتى فا لرتق خير من الفتق، وفي كل بلاغ ، ولا مقام على الرزية » [19] ج4 ص148.

ولما مرض معـاوية مرض وفاتـه قال لمولى له: من بالباب ؟ قال: نفر من قريش يتباشرون بموتك ! قال: ويحك ! لم ؟ فو الله مالهم بعدي إلا الذي يسؤوهم وأذن للناس فدخلوا، فحمد الله وأثنى عليه وأوجز ثم قال: « أيها الناس، إنا قد أصبحنا في دهر عنود، و زمن شديد، يعد فيه المحسن مسيئا، ويزداد الظالم فيه عتوا، لا ننتفع بما علمنا، ولا نسأل عما جهلنا، و لا تتخوف قارعة حتى تحل بنا، فالناس على أربعة أصناف: منهم من لا يمنعه من الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه، وكلال حده، ونضيض وفره، ومنهم المصلت لسيفه، المجلب برجـله، المعلن بشره، قد أشرط نفسه، و أوبق دينه: لحطام ينهزه، أو مقنب يقوده أو منبر يفرعه، ولبئس المتجر أن تراهما لنفسك ثمنا، ومما لك عند الله عوضا – ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن من شخصه، وقارب من خطوه، وشمرعن ثوبه

وزخرف نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية، ومنهم من أقعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه. و انقطاع سببه، فقصرت به الحـــال عن أمله، فتحلى باسم القنــاعة، وتزين بلباس الزهــادة، وليــس من ذلك في مراح ولا مغدى، وبقى رجـــال غض أبصارهم ذكر المرجـــع، وأراق دموعهم خوف المضجع، فهم بين شريد باد، وبين خائف منقمــع وساكت مكعوم، وداع مخلص، وموجع ثكلان، قد أخملتهم التقية، وشملتهم الذلة فهم في بحر أجاج، أفواههم ضامرة وقلوبهم قرحة، قد وعظوا حتى ملوا وقهروا حتى ذلوا، وقتلوا حتى قلوا، فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثالة القرظ، وقراضة الجلمين، واتعظـــوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعض بكم من بعـــدكم وارفضوها ذميمة، فقد رفضت من كان أشغف بها منكم » [19] ج4 ص152.

النمـــوذج الثاني: زياد بن أبيه – ابن أبي سفيان-:

« ما سمعت متكلما على منبر قط تكلم فأحسن، إلا تمنيت أن يسكت خوفا من أن يسئ إلا زيادا، فإنه كلما أكثر كان أجود كلاما »

هو زياد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس وأمه سمية جارية الحارث بن كلدة الثقفي وكان بعضهم يقول: زياد بن أبيه، وبعضه يقول: زياد الأمير ولأن زوج سمية ثقفي يسمى عبيدا، كان يسمى في بعض الرويات زياد بن عبيد » [38] ج7 ص49.

ولد في السنة الأولى للهجرة« و لما قتل علي ظل على عهده لابنه الحسن، حتى إذا تحولت مقاليد الأمور إلى معاوية اعتصم بفارس – فكاتبه معاوية متوعدا، ثم أخذ يتلطف له ووسط لديه المغيرة بن شعبة الثقفي، ذاكرا ما بينهما من الرحم، ومازال به، حتى دخل في طاعته، وفرح به فرحا عظيما. إذ كان يعرف فضله، وأنه لا غنى له عنه في استصلاح العراق ولما صار إليه جمع الناس وصعد المنبر، وأجلسه بين يديه، و أشهد الحاضرين على نسبته لأبيه وشهدت بذلك منهم جماعة. وقالوا: الدهاة أربعة: معاوية للروية، وعمر بن العاص للبديهة، والمغيرة للمعضلات وزياد لكل صغيرة وكبيرة مات زياد سنة 53 هـ وتقول الرواية أنه كتب إلى معاوية: إني أخذت العراق بيميني، وبقيت شمالي فارغة وهو يعرض له بالحجاز فبلغ ذلك عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – فقال: اللهم أكفنا شر شماله ؟ فعرضت له قرحه في شماله فقتلته.

نماذج من خطبه:

لم تحفظ لزياد خطب كثيرة – بل قليلة أشهرها – البتراء- التي خطب بها بالبصرة قال أبو الحسن المدائن عن مسلمة بن أبي بكر الهذلي قال: قدم زياد البصرة و الفسق بها فاش. فخطب خطبة بتراء لم يحمد الله فيها و قال غيره بل قال: الحمد لله على إفضاله وإحسانه، و نسأله المزيد من نعمه وإكرامه. اللهم كما زدتنا نعما فألهمنا شكرا.

أما بعد فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والعمى الموفى بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله، ولم تسمعوا بما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب العظيم لأهل معصيته، في الزمن السرمـدي الذي لا يزول، أتكونـــون كمن طرفت عينيه الدنيا، وسدت مسامعه الشهوات، وأختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه، من تركككم هذه المواخير المنصوبة، والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر، والعدد غير قليل. ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار؟ قربتم القرابة، وباعدتم الدين، تعتذرون بغير العذر، وتغضون على المختلس، كل امرئ منكم يذب عن سفيه، صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجوا معادا، ما أنتم بالحلماء، ولقد ابتعتم السفهاء، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم، حتى انتهكوا حرم الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم، كنوسا في مكانس الريب ، حرام علي الطعام و الشراب حتى أسويها بالأرض هدما وإحراقا.

إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أولـــه، لين في غير ضعف، و شـــدة في غير عنف، وإني أقسم بالله لأخذن الولي بالمولى، والمقيم بالظاعـــن، و المقبل بالمدبر، و الصحيح بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول انج سعد فقد هلك سعيد ؟ أو تستقيم لي قناتكم. إن كذبة الأمير بلقاء مشهورة فإذ تعلقتم ، علي بكذبة فقد حلت لكم معصيتي. من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب له، فإياي و دلج الليل، فإني لا أوتي بمدلج إلا سفكت دمه، وقد أجلتكم في ذلك بقـدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم، وإياي ودعوى الجاهلية ، فإني لا أجد أحدا دعا بها إلا قطعـت لسانه. وقد أحدثتم أحداثا لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرق قوما غرقناه، ومن أحرق قوما أحرقناه، ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبرا دفناه فيه حيا، فكفـوا عني ألسنتكـــمو أيديكم ، أكف عنكم يدي ولساني، ولا يظهرن من أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكـــم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بيني وبين قوم إحن فجعلـت ذلك دبر أذني وتحت قدمي، فمن كـــان محسنا فليزدد في إحسانه، ومن كان سيئا فلينزع عن إساءته إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعا و لم أهتك له سترا حتى يبدي لي صفحته، فإن فعل ذلك لم أنظـــره استأنفوا أموركم، واستعينـوا على أنفسكم، فرب مبتئس بقدومنـــا سيسر، ومســـرور بقدومنا سيبتئس.

أيها الناس :إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع و الطاعة فيما أحببنا، و لكم علينا العدل فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بهذا صحتكم لنا ، واعلموا أني مهما أقصر عنه فلن أقصر عن ثلاث: لست محتجبا عن طالب حاجة ولو أتاني طارق بليل، ولا حابسا عطاء و رزقا عن إبانة ولا مجمرا لكم بعثا. فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم، وكهفكم الذي إليه تأوون، ومتى يصلحوا تصلحوا، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك أسفكم، ويطول له حزنكم ولا تدركوا له حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرا لكم.

أسأل الله أن يعين كلا على كل، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم أمرا فأنفذوه على أذلاله وأيم الله إن لي فيكم لصرعي كثيرة، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي [19] ج4 ص ص ص172-173-174.

هذه خطبة له حينما كان غاضبا من معاوية الذي هدده يقول : « العجب من ابن آكلة الأكباد قاتلة أسد الله ومظهر الخلاف ومسر النفاق، ورئيس الأحزاب، و من أنفق ماله في إطفاء نور الله، كتب إلي يرعد ويبرق عن سحابة جفل لا ماء فيها، والذي يدلني على ضعفه تهدده قبل القدرة، أفمن اشفاق علي تنذر وتعذر؟ كلا، و لكن ذهب إلى غير مذهب وقعقع لمن روي بين صواعق تهامة كيف أرهبه وبيني وبينه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم –وابن عمه في مائة ألف من المهاجرين والأنصار، والله لو أذن لي فيه أو ندبني إليه لأرينه الكــواكب نهارا ولأسطعنه ماء الخردل دونه الكلام اليوم والجمع غدا والمشورة بعد ذلك إن شاء الله » [34] ج6 ص97.

أما حينما تراجع عن موقفه هذا من معاوية فقال: « أيها الناس ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم، وأرغبوا إلى الله في دوام العافية لكم، فقد نظرت في أمور الناس منذ قتل عثمان، وفكرت فيهم فوجدتم كالأضاحي، في كل عيد يذبحون، ولقد أفنى هذان اليومان: الجمل وصفين ما ينيف على مائة ألف يزعم أنه طالب حق وتابع إمام، وعلى بصيرة من أمره، فإن كان الأمر هكذا فالقاتل والمقتول في الجنة كلا، ليس كذلك، ولكن أشكل الأمر والتبس على القوم، وقد نظرت، في أمر الناس، فوجدت أحمد العاقبتين العافية وسأعمل في أموركم ما تحمدون عاقبته ومغبته، فقد حمدت طاعتكم إن شاء الله» [39] ج4 ص69.

النموذج الثالث: الحجاج بن يوسف الثقفي

« الوالي الذي تسلح بسنانه ولسانه ، فلا يذكر واليا إلا ذكر خطيبا، ولا يذكر خطيبا إلا ذكر واليا أو قائدا. البليغ الذي لم يلحن مرة، لا في جد ولا في هزل. المصلح الذي أشار بإعجام الحروف، وشكلها بالحركات، و حول ديوان العراق من الفارسية إلى العربية » د. أحمد محمد الحوفي

الحجاج بن يوسف كنيته أبو محمد، ينهي نسبه إلى ثقيف الذي سميت القبيلة باسمه. ولد سنة 41 من الهجرة ومات سنة 95 وكانت نشأته بالطائف و موته بمدينة واسط التي أنشاءها ويذكر أن الحجاج وأباه أو – أخاه- كانا معلمي صبيان بالطائف قال أحد الشعراء في هجائه:

أينسى كليب زمـــان الهزا

ل و تعلميـه سورة الكوثر

رغيف له فلكـــــة ماترى

وأخر كالقمر الأزهـــر

عمل في شرطة روح أبن زنباع مستشار عبد الملك بن مروان، ثم قلده الخليفة أمر عسكره وسرعان ما أصبح واليا على الحجاز واليمن واليمامة سنة 75 هـ ، ثم واليا على العراق التي حكمها بالشدة حتى

خافه اللص في مأمنه، والمنافق في خلوته، وكان سيفه ولسانه يتعاونان في القضاء على بواعث الفتن ودعاة الانشقاق .

نماذج من خطبه: من أشهر خطب الحجاج بن يوسف خطبته بالعراق حينما سمع تكبيرا في السوق «فراعه ذلك، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أهل العراق – يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق، وبني اللكيعة، وعبيد العصا وأولاد الإماء، والفقع بالقرقر، إني سمعت تكبيرا لا يراد به الله وإنما يراد به الشيطان، وإنما مثلي ومثلكم ما قال ابن براقة الهمذاني :

وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم فهل أنا في ذا يالهمذان ظالم ؟

متى تجمع القلب الذكي وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظـــالم

أما و الله لا تقرع عصا بعصا إلا جعلتها كأمس الدابر » [19] ج4 ص 176.

ومن خطبه الطوال خطبته: « يا أهل العراق، إن الشيطان استنبط فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف، ثم أفضى إلى المخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشش، ثم باض وفرخ، فحشاكم شقاقا ونفاقا، أشعركم خلافا اتخذتموه دليلا تتبعونه، وقائد تطيعونه ومؤامرا تستشيرونه، فكيف تنفعكم تجربة، أو تعظكم وقعة، أو يحجزكم إسلام، أو يردكم إيمان ؟ ألستم أصحابي بالأهواز حيث رمتم المكر، وسعيتم بالغدر، واستجمعتم للكفر، و ظننتم أن الله تعالى يخذل دينه وخلافته وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لواذا، وتنهزمون سراعا، ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية ؟ بها كان فشلكم و تنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليكم عنكم، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها، النوازع إلى السلاح، وقصمتم الرماح، ثم يوم دير الجماجم: وما دير الجماجم ؟ بها كانت المعارك و الملاحم، بضرب يزيل الهام عن مقيله، ويذهل الخليل عن خليله . يا أهل العراق والكفرات بعد الفجرات، والغدرات بعد الخترات والنزوة بعد النزوات، إن بعثتكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم، وإن أمنتم أرجفتم، وإن خفتم نافقتم، لا تذكرون حسنة، ولا تشكرون نعمة ؟ يا أهل العراق: هل استخفكم ناكث، أو إستغواكم غاو،أو استفــزكم عاص أو إستنصركم ظــالم، أو استعضدكم خالع – إلا وثقتموه وآويتموه وعزرتموه ونصرتموه، ورضيتموه.

يا أهل العراق: هل شغب شاغب، أو نعب ناعب، أو نعق ناعق أو زفر زافر، إلا كنتم أتباعه وأنصاره. يا أهل العراق، ألم تنهكم المواعظ ؟ ألم تزجركم الوقائع ؟ ثم التفت إلى أهل الشام فقال: يا أهل الشام، إنما أنا لكم كالظليم الذاب عن فراخه، ينفى عنها المدر، و يباعد عنها الحجر ويكنها من المطر – ويحميها من الضباب، ويحرسها من الذئاب، يا أهل الشام، أنتم الجنة و الرداء. و أنتم العدة والحذاء»[19] ج4 ص178. ومن خطبه: « حمد الله وأثنى عليه ثم قال: « إن الله كفانا مؤونة الدنيا وأمرنا بطلب الآخرة، فليته كفانا مؤونة الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا، مالي أرى علماءكم يذهبون، وجهالكم لا يتعلمون، وشراركم لا يتوبون ؟ مالي أراكم تحرصون على ما كفيتم، وتضيعون ما به أمرتم، إن العلم يوشك أن

يرفع، ورفعه ذهاب العلماء.ألا و إني أعلم بشراركم من البيطار بالفرس: الذين لا يقرؤون القرآن إلا هجرا، ولا يأتون الصلاة إلا دبرا ألا وإن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر، ألا وإن الآخرة أجل مستأخر يحكم فيه ملك قادر، ألا فاعلموا وأنتم من الله على حذر واعلموا أنكم ملاقوه « ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى » ألا وإن الخير كله بحذافيره في الجنة، ألا وإن الشر كله بحذافيره في النار، ألا وإن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره واستغفر الله لي ولكم » [19] ج4 ص179.

النموذج الرابع: خطابة عبد الملك بن مروان

« من كلام الشعبي: ما ذاكرت أحدا إلا وجدت لي الفضل عليه، إلا عبد الملك، فما ذاكرته حديثا ولا شعرا إلا زادني فيه ».

عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القريشي، أبو الوليد خامس خلفاء بن أمية ومن أعظمهم وأدهاهم. استمرت خلافته من 75هـ إلى 86 هـ. نشأ في المدينة فقيها واسع العلم متعبدا، استعمله معاوية على المدينة وهو ابن ستة عشر سنة. وانتقلت إليه الخلافة بموت أبيه ، فضبط أمورها وكان قوي الهيبة واجتمعت عليه كلمة المسلمين بعد مقتل مصعب وعبد الله بن الزبير مع الحجاج الثقفي. وهو أول من صك الدنانير في الإسلام وكان يقال: معاوية للحلم، وعبد الملك للحزم.

خطبة عبد الملك بن مروان في الكوفة:

دخل عبد الملك الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم قال [25] ج1ص12 : «أيها الناس، إن الحرب صعبة مرة، وإن السلم أمن ومسرة و قد زبنتنا الحرب وزبناها ، فعرفناها وألفناها، فنحن بنوها وهي أمنا.

أيها الناس، فاستقيموا على سبل الهدى، ودعوا الأهواء المردية وتجنبوا فراق جماعات المسلمين، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين وانتم لا تعملون أعمالهم، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شرا ولن نزداد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبة، فمن شاء منكم أن يعود بعد لمثلها فليعد، فإنما مثلي ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة الأنصاري.

من يصـــل ناري بلا ذنب ولا تـرة	يصل بنار كريـــم غير غـــــدار
أنا النذيـــر لكـــم من مجـــــاهرة	كي لا ألام على نهـــي وإنـــــذار
فإن عصيتم مقالي اليوم، فاعترفوا	أن سوف تلقــون خزيا ظاهر العار
لترجعن أحـــــــاديثا ملعنـــــة	لهو المقيم ولهو المدلج الساري
من كان في نفسه حوجــاء يطلبـها	عندي، فإني له رهن بإصحـــار
أقيم عوجتـــــة إن كان ذا عـوج	كما يقوم قدح النبعـة البـــــاري
وصاحب الوتر ليس الدهر مدركه	عنـــدي، وإني لـــــدراك بأوتـــــار

النموذج الثاني من خطابة عبد الملك بن مروان:

خطب عبد الملك بالمدينة، وقد أبى بعض أهلها قبول العطاء، قائلين إنما كان عطاؤنا من الفيء، وهذا مال الصدقات، فقال: «يا معشر قريش: مثلنا ومثلكم أن أخوين في الجاهلية خرجـــا مسافرين فنزلا في ظل شجرة تحت صفاة، فلما دنا الرواح خرجت إليهما من تحت الصفاة حية تحمل دينارا، فألقته إليهما فقالا:إن هذا لمن كنز، فأقاما عليها ثلاثة أيام، كل يوم تخرج إليهما دينارا، فقال أحدهما لصاحبه: إلى متى ننتظر هذه الحية ؟ ألا نقتلها ونحفر هذا الكنز فنأخذه، فنهاه أخوه، وقال: ما تدري، لعلك تعطب ولا تدرك المال. فأبى عليه، وأخذ فأسا معه، ورصد الحية حتى خرجت، فضربها ضربة جرحت رأسها، ولم تقتلها، فثارت الحية فقتلته، ورجعت إلى جحرها، فقام أخوه فدفنه وأقام حتى إذ كان من الغد خرجت الحية معصوبا رأسها، ليس معها شيئا.

فقال لها: يا هذه، إني والله ما رضيت ما أصابك، و لقد نهيت أخي عن ذلك، فهل لك أن نجعل الله بيننا أن لا تضريني ولا أضرك، وترجعين إلى ما كنت عليه ؟ قالت الحية: لا قال: ولم ذلك ؟ قالت: إني لأعلـــم أن نفسك لا تطيب لي أبـــدا، وأنت ترى قبر أخيك، ونفسي لا تطيب لك أبدا، وأنا أذكر هذه الشجة. وأنشد شعر النابغة:

فقالت أرى قبرا تراه مقابلي وضربة فأس فوق رأسي فاغرة.

فيا معشر قريش: و ليكم عمر بن الخطاب فكان فظا غليظا مضيقا عليكم، فسمعتم له وأطعتم ثم وليكم عثمان فكان سهلا فعدوتم عليه فقتلتموه، وبعثنا عليكم مسلما يوم الحرة * فقتلنـــاكم، فنحن نعلم يا معشر قريش أنكم لا تحبوننا أبدا وأنتم تذكرون يوم الحرة، ونحن لا نحبكم أبدا ونحن نذكر قتل عثمان» [40] ج2 ص129.

النموذج الخامس: خطابة أبي حمزة الشاري

هو المختار بن عوف الأزدي، كنيته أبو حمزة، ولقبه الشاري، لأنه كان جماعة من الشراة، وهم فريق من الخوارج سموا أنفسهم كذلك لأنهم اشتروا الجنة بأرواحهم. كان أبو حمزة زعيما من زعماء الأزارقة، أصحاب نافع بن الأزرق، فلما هزمهم الحجاج وشتت شملهم، فر أبو حمزة إلى اليمن وحضرموت وكثيرا ما كان يأتي مكة موسم الحج ليحرك المسلمين ضد الخليفة الأموي، ويحضهم على قتاله. فلما كانت السة1028 هـ ظهرت فرقة جديدة من الخوارج تدعى الإباضية كان يتزعمه عبد الله بن يحي الكندي، فانضم أبو حمزة إليه وكان خطيبا مفوها، ومناضلا عنيفا، وقائدا عسكريا عارفا بأساليب الحروب، فبعثه عبد الله إلى مكة، في جيش من أتباعه فدخلها منتصرا، بعد أن حارب جيش الأمويين، و دخل المدينة عام 747 م. و لقد كان على شيء كثير من الدهاء وحسن السياسة، فاستمال أهل المدينة إليه، وأحسن معاملتهم، لكن الأمويين عاجلوه بجيش كثير العدد، فتصدى له أبو حمزة بمن

معه، فانهزموا و قتل منهم عدد وفير، وفر هو إلى مكة، ثم قبض عليه وصلب مع جماعة من زعماء الخوارج.

نص الخطبة:

حمد الله وأثناء عليه، ثم قال: [14] ج2 ص104، «يا أهل المدينة، قد بلغني مقالتكم لأصحابي، ولولا معرفتي بضعف رأيكم وقلة عقولكم، لأحسنت أدبكم. ويحكم، إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم- أنزل عليه الكتاب وبين له السنن، وشرع له فيه الشرائع، وبين له فيه ما يأتي وما يذر، فلم يكن يتقدم إلا بأمر الله، ولا يحجم إلا عن أمر الله، حتى قبضة الله إليه –صلى الله عليه وسلم- وقد أدى الذي عليه، وعلم المسلمين معالم دينهم ولم يدعهم من أمرهم في شبهة .وولى أبا بكر صلاته فولاه المسلمين أمر دنياهم حين ولاه رسول الله –صلى الله عليه وسلم- أمر دينهم، فعمل بالكتاب والسنة وقاتل أهل الردة، وشمر في أمر الله حتى قبضه الله إليه، والأمة عنه راضون- رحمه الله- ثم ولى بعده عمر بن الخطاب، فسار بسيرة صاحبه، وعمل بالكتاب والسنة، وجند الأجناد ومصر الأمصار.. حتى قبضه الله إليه والأمة عنه راضون رحمة الله عليه ورضوانه ومغفرته. ثم ولي من بعده عثمان بن عفان ، فسار ست سنين بسيرة صاحبيه – وكان دونهما- ثم سار في الست الأواخر بما أحيط به الأوائل، واضطرب حبل الدين بعدها فطلبها كل إمرىء لنفسه وأسر كل رجل منهم سريرة أبداها الله عنه ، حتى مضوا على ذلك. ثم ولي علي ابن أبي طالب، فلم يبلغ من الحق قصدا ، ولم يرفع له منارا ، ثم مضى لسبيله .ثم ولي معاوية ابن أبي سفيان ، لعين رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وابن لعينه وجلف من الأعراب، وبقية من الأحزاب، فسفك الدماء الحرام وأتخذ عباد الله خولا، ومال الله دولا وبغى دينه عوجا ودغلا، وعمل بما يشتهيه حتى مضي لسبيله، فا لعنوه لعنه الله .ثم ولي بعده ابنه يزيد، يزيد الخمور، يزيد الصقور، ويزيد الفهود، ويزيد الصيود، ويزيد القرود، الفاسق في بطنه، فخالف القرآن، واتبع الكهان ونادم القردة وعمل بما يشتهيه، حتى مضى على ذلك، لعنه الله ، وفعل به وفعل.

ثم ولي مروان بن الحكم طريد ولعين رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وابن لعينه فالعنوه والعنوا إباءه ثم تداول بنو مروان بعده، أهل بيت اللعنة، طرداء رسول الله وقوم من الطلقاء، ليسوا من المهاجرين والأنصار، ولا التابعين بإحسان ،فأكلوا مال الله أكلا، ولعبوا بدين الله لعبا، واتخذوا عباد الله عبيدا، يؤرث ذلك الأكبر منهم الأصغر، فيا لها من أمة ما أضيعها وأضعفها؟

ثم مضوا على ذلك من سييء أعمالهم، واستخفافهم بكتاب الله - تعالى-وقد نبذوه وراء ظهورهم، لعنهم الله فالعنوهم كما يستحقون .وقد ولي منهم عمر بن عبد العزيز فبلغ ولم يكد، وعجز عن الذي أظهره حتى مضى لسبيله.

ثم ولي يزيد بن عبد الملك، غلام ضعيف سيفه غير مأمون على شيء من أمور المسلمين، لم يبلغ أشده، ولم يؤنس رشده وقد قال الله -عز وجل - «فإن أنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم»

وأما إخواننا من هذه الشيعة، وليسوا بإخواننا في الدين. فإنها فرقة تظاهرت بكتاب الله، وأعلنت الفرية على الله، لا يرجعون إلى نظر نافذ في القرآن، ولا عقل بالغ في الفقه، ولا تفتيش عن حقيقة الصواب قد قلدوا أمورهم أهواءهم وجعلوا دينهم العصبية لحزب لزموه وأطاعوه في جميع ما يقول لهم، غيا كان أو رشدا ضلالة أو هدى ينتظرون الدول في رجعة الموتى، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة، ويدعون علم الغيب لمخلوق. لا يعلم أحدهم ما في بيته، بل لا يعلم ما ينطوي عليه ثوبه، أو يحويه جسمه، ينقمون المعاصي على أهلها، ويعلمون، إذا ولوا بها، يصرون على الفتنة ولا يعرفون المخرج منها، جفاة في دينهم، قليلة عقولهم، قد قلدوا أهل بيت من العرب دينهم، وزعموا أن موالاتهم لهم تغنيهم عن الأعمال الصالحة وتنجيهم من عقاب الأعمال السيئة قاتلهم الله أنى يؤفكون فأي هؤلاء الفرق يأهل المدينة تتبعون؟ أم بأي مذاهبهم تعتقدون؟ وقد بلغني أنكم تنتقصون أصحابي قلتم : هم شباب أحداث، وأعراب جفاة ويحكم يا أهل المدينة، وهل كان أصحاب رسول الله المذكورون في الخير إلا شبابا أحدثا؟

أما والله إني لعالم بتتابعكم فيما يضركم في معادكم، ولولا انشغالي بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم .شباب والله مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم أنضاء عبادة، وأطلاح سهر، باعوا أنفسا تموت غدا بأنفس لا تموت أبدا.

قد نظر الله إليهم في جوف الليل، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مر أحدهم بأية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه.

قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم، ووصلوا كلال الليل بكلال النهار، مصفرة ألـــوانهم، ناحلة أجسامهـم من طول القيام، وكثرة الصيـــام مستقلـــون بذلك في جنب الله، موفون بعهد الله منجزون لوعد الله. حتى إذا رأوا سهام العدو قد فوقت، ورماحهم وقد أشرعت وسيوفهم قد أنتضيت، وبرقت الكتيبة، ورعدت بصواعق الموت، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، ولم يستخفوا بوعيد الله لوعيد الكتيبة ولقوا شبا الأسنة، وشائك السهام، وظبات السيوف بنحورهم ووجوههم وصدورهم، فمضى الشباب منهم قدما، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه واختضبت محاسن وجهه بالدماء وعفر جبينه بالثرى، وانحطت عليه طير السماء وتمزقته سباع الأرض، فطوبى لهم وحسن مآب.

فكم من عين في منقار طائر، طالما بكى بها صاحبها في جوف الليل من خوف الله وكم من يد أبينت عن ساعدها، طالما اعتمد عليها صاحبها راكعا ساجدا، وكم من وجه رقيق، وجبين عتيق، قد فلق بعمد الحديد ثم بكى وقال: <<آه آه على فراق الإخوان، رحمة الله على تلك الأبدان وأدخل روحهم الجنانٍ».

الفصل 3
اتجاهات الخطابة في العصر الأموي وخصائصها الفنية

1.3.تحديد التوجهات المختلفة للخطباء:

أ -التوجه السياسي والديني في نص الخطبة: ما يلفت الانتباه في نصوص الخطب الأموية أن طريقة الحكم قد اختلفت عما كانت عليه عند الخلفاء الراشدين، وذلك بظهور نزاعات بين الأحزاب الموالية، والأخرى المعارضة للأمويين.

ففي الخطبـــة الأولى يصرح معاوية للناس أنه تولى الخلافة عنوة دون محبة علمها من الناس ولا مسرة منهم بولايته، فلا جميل لهم عليه، كما يبين أن موقفـــه موقف القوي بذاته، فيزيح الستـار عن سياسته التي تختلف عن سياستي عمر وعثمان، فقد سلك بسياستـــه طريقا فيه ما يرضيه وما يرضيهم لما فيه من منفعة له ولهم ، من مؤآكلة حسنة ومشاربة جميلة، ومعايشة طيبة، ولعلهم بعد ذلك إن لم يجـدوه خير الناس خلافـــة كما ينبغي أن تكون الخلافة، فإنه خير الناس لهم معاملة ورياسة وسياسة. أما في المقطع الثاني من نص الخطبـــة فإنه يحدثهم عن سياسة الحلم والحـزم والحكمة التي ينتهجها معهم، فأكد عزيمته بالقسم أن يسالم المسالم، ولا يعاقب على زلات اللسان، إذ حسبه أن يحاسب على الأفعال دون الأقوال، وأوصاهم أن يقبلوا ما يسوقه إليهم من الحق كله أو بعضه، وحذرهم الفتنة، و لم يغفل معاوية – وهو المتصف بالحنكة السياسية – عن التلويح لهم بالعطاء الكثير الذي يثري ويغني ليدفعهم إلى التلهي بمتاع العيش عن المنازعة السياسية.

أما في نص الخطبة الثانية فمعاوية يدعو الرعية إلى ترك كل ما هو سيء، والتخلص من النقص فلا يكونوا كأهل العراق واعترف بتقصير زمانه وأهله عن شأو السالفين، وحثهم على أن يقبلوه على ما فيه فالرتق خير من الفتق والإصلاح خير من الفساد. هذه الخطبة كسالفتها من حيث الموضوع فهو سياسي إذ يحض أهل المدينة على عدم الاقتداء بأهل العراق ذوي الفتنة والشقاق، ويحثهم على التألف والتحام الشمل، داعيا إياهم إلى الأخذ بالعقل وبالنظر في واقع الأحداث، غير متعصبين لأمر سلف. لان أهل المدينة يتوقون إلى مثل حكم الراشدين في الشورى والحق والعدل. فمعاوية ينصحهم بالإقلاع عن النظر

فيما مضى دون أوبة والرضي بواقع الحكم فيهم، إذ أن ما كان يصلح لسواهم لا يصلح لهم، وما قد يبدو منكرا بالنسبة إلى ما مضى لا يبقى منكرا في حينه وزمنه ومن الحكمة القبول بالحكم فهو خير لهم من الفتنة والشقاق وعبر عن هذا بالرتق أفضل من الفتق.

وفي نص الخطبة الثالثة يخلص معاوية إلى آراء عامة في معاصريه من المسلمين ومن الطامعين بالخلافة إثره، وقد استنتج هذا من خلال التجارب التي مر بها والمنازعات التي خاض غمارها.

وصنف معاصريه بعد أن أظهر سوء ظنه بالقدر إلى فئات أربع:

1- فئة ترغب في القتل والسيطرة وتمتنع عنهما لضعفها وقلة ناصرها.

2- فئة تقاتل في سبيل النفع والمغنم دون النظر في أمر الدين وعاقبة الدنيا.

3- فئة تتظاهر بالتدين لتنال به حظوة الدنيا.

4- فئة تأخذ بالتقوى والذكر وقد قل ناصرها وهزل شأنها في هذا العصر.

وفي الأخير يدعوهم إلى التخلي عن متاع الدنيا وان يتعظوا بمن قبلهم، قبل أن يدركهم الموت.

بعد هذا التحليل لنصوص خطب معاوية التي أدرجناها، ندرك أن خطابته قسمان: قسم سياسة خالصة، وقسم مواعظ وترغيب وترهيب، وهو في القسم الأول يدعو إلى الطاعة ملوحا بما في يديه من قوة ومن بذل عطايا ، وفي القسم الثاني ينفر من الدنيا ومن التعلق بمتاعها الزائل.

ويبقى طابع نص الخطبة في العصر الأموي سياسيا، فهذا زياد لم يستهل نص خطبه – البتراء – بمقدمة أو افتتاح مثلما تستهل نصوص الخطب في هذا العصر وتعليل ذلك أن البتراء هي أول خطبة يلقيها على أسماع أهل البصرة الذين شاع بينهم أسوأ الخلق من فسق وسرقة وبعد عن الدين إلى غير ذلك، لهذا يرى البعض أن زيادا عمد إلى حذف الافتتاح الذي عرفت به الخطب فهو في موقف من يقبض زمام الحكم بقبضة من حديد حتى يعيد الأمور إلى مجراها الطبيعي. يقول د.محمد طاهر درويش:«..فإذا لاحظنا أن نفس زياد ليست ككل نفس، وأن طبيعته ليست ككل طبيعة، وأنها تفيض بالقسوة والبطش والجبروت، تيسر لنا أن نتمثل تلك الحال التي انبعث عليها زياد بهذا الموقف خطيبا،لا يذكر شيئا إلا أن يحيط نفسه بجو من الإرهاب، يفزع به أولئك الأقوام الذين يلقونه أول لقاء، ويسمعون إلى أول خطبة له فيهم من أجل ذلك ترك حمد الله تركا،ليغرس في نفوسهم اليقين بأنه ليس كغيره من الحاكمين، وقد أتى منكرا من القول، فما منكر من فعله ببعيد»[41] ج2 ص237، ومن الآراء ما يضيف إلا ذلك أمرا أخر، كون زياد ليس من أولئك المتشبعين بالقيم الدينية، كرأي د.أحمد محمد الحوفي:«..ولم يكن باعثه على ذلك أنه يتهدد ويتوعد فحسب، فكم من خطب قيلت في العصر الإسلامي للتهديد والوعيد، وهي مبدوءة بالحمد والثناء والصلاة على الرسول. وإنما كان الباعث أيضا على ترك الحمد أن زيادا- كما يبين من خطبة ورسائله-لم يكن من الذين أشربت قلوبهم الدين، وامتزج بنفوسهم القرآن، ولم يكن حريصا على أن يقتضي ما سنه المسلمون من قلبه في الافتتاح بما يشعر بالانقياد لله.على أنه لا يمنع من ذلك أن الشذوذ

في هذا الافتتاح المفاجئ يوحي للسامعين بالصرامة والغلظة، ويضاعف رهتبهم من حاكمهم الجديد، الذي لا يتورع من التنكيل والتقتيل».[37] ص ص 293- 294. -ومهما يكن من أمر فان زيادا قد أضفى على الخطابة في العصر الأموي هذا الجديد بغض النظر عن سلبيته أو إجابيته فالخطبة البتراء بأسلوبها المتميز هذا حققت الغاية والهدف، وهو إحكام القبضة على أهل البصرة، واستجابتهم لواليهم الجديد الخطيب زياد بن أبي سفيان.

والمهم في هذا التحليل أن نص خطبة البتراء به موضوع وخاتمة. أما الموضوع ينقسم إلى ثلاثة أجزاء: في الجزء الأول عرض عام لأخلاق سكان البصرة ومسلكهم، من ضلال وفساد ومعصية الله -تعالى- واستهانة بما أعده لعباده الطائعين من ثواب، ولعباده العاصين من عقاب. وحتى يكون كلام زياد أكثر وقعا وتأثيرا في نفوس أهل البصرة فقد عرض عليهم واقعهم من تركهم الضعفاء يقهرهم الأقوياء ويسلبهم اللصوص،وهم يسترون العصاة المختلسيـــن ويحمون السفهاء والخارجين عن القانــون ، وهم يرون أماكن الفسوق بينهم ولا يقاومون ولا ينكرون.

وفي الجزء الثاني أعلن منهجه العام الذي سيسلكه في سياسته معهم، وهو منهج قائم على الصرامة في العقوبة للمخالفين، لكن زيادا جاء بعقوبة من نوع جديد، فلم يقصرها على الطغاة وحدهم، بل مدها إلى شركائهم ولو من بعيد، فهو يأخذ بالظنة ويعاقب على الشبهة، أي مد عقابه إلى الجماعة لا إلى الفرد، لذلك سيعاقب السيد بما جناه عبده وسيعاقب المقيم بجريمة الراحل، والمقبل بذنب المدبر، بل سيأخذ المطيع بجريرة العاصي وحتى لا يترك مجالا للشك في كلامه أعلن أنه لا يرضى لنفسه في موقفه هذا أن يكذب وسيرونه يفعل ما يقول.

ويترجح زياد، بين العنف واللين لاحظ قوله:«..ولا يكوننّ لسانه شفرة تجري على أوداجه» وليعلم أحدكم،إذا خلا بنفسه، إني حملت سيفي بيدي فان أشهره لم أغمده وإن أغمده لم أشهره"فبعد أن هدد وتوعد بأسلوب النهي، نجده يلين نوعا ما،ليبدي للرعية أنه ليس سباقا لسفك الدماء. ذلك حتى يحقق الغاية من خطبته وهي إحكام قبضته على الرعية، فيقدم من البيّنات ما يوافق هواه ويخدم غرضه الذي ذكرناه ، فزياد يأتي بعقوبات لم يأت بها الإسلام، ذلك في قوله مثلا من خطبته البتراء:«..وإني اقسم بالله لأخذن الولي بالمولى والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد..».وأبدى أحد رؤساء الخوارج رأيه في هذا العقاب، وهو أبو بلال مرداس بن أدية قائلا:«أنبأنا الله بغير ما قلت.قال الله تعالى:«و إبراهيم الذي وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى"، وأنت تزعم أنك تأخذ البرئ بالسقيم و المطيع بالعاصي، والمقبل بالمدبر» فسمعها زياد، فقال:«إنا لا نبلغ ما نريد فيك وفي أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضا».[14] ج2 ص97، وسرعان ما يأتي بأسلوب مغاير لذلك تماما، وهو أسلوب الوعظ والنصح«..أيها الناس إنا أصبحنا لكم سادة،وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا

ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا..فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا..فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدبون لكم وكهفكم الذي إليه تأوون ..» فالتباين بين الفقرتين واضح « فبينما هو يتهدد ويتوعد إذا هو يلاين ويتودد،حتى إن المرء لا يدرك إذا كان السامعون قد أخذوا بوعده أم وعيده.وهو لم يوفق إلى تحقيق هذا النقيض وبثه بثا متناميا غامضا، إلا بالروية والدهاء » [22] ص378.

أما الجزء الثالث من نص الخطبة فقد تنـــاول عدة أمور: الأمر الأول أن لا يثيـر الناس نعرة العصبية، وأن يكفوا عن واليهم ألسنتهم وأيديهم، ولا يكون هذا إلا بالطاعة وبتجنب مواقف الريبة والظنون. الأمر الثاني بيان لما يجب أن يكون بينهم وبينه بوصفهم رعية و بوصفه راع ، فلهم عليه أن يعدل، ولهم عليه أن لا يحتجب عن صاحب الشكـوى وإن طرق بابــه ليلا، وان لا يؤخر أعطياتهم عن أوقاتها، وأن لا يدع المحاربين منهم زمنا طويلا في بلاد الأعداء. وله عليهم السمع والطاعة، فالجاه والمال من الله خص به الحكام لينفقـــوا ذلك على الرعية .هذا حتى يجعل العلاقة بين الحاكم و المحكوم علاقة وطيدة معنوية ومادية.

والمهم أن الدلالة على قوة الإقنـــاع في كلام زياد منطلقها ديني لإقناع الرعية بسياسة الحاكم وبجوب طاعته، فالحكام هم الحصــن الذي يحتمي به الشعب.

ثم كانت الخاتمـــة قصيرة جامعة للغـــرض العام من نص الخطبــة إذ ذكـــرهم بالعقـــاب الشديد في صراحة وتأكيـد« وإيم والله إن لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ أن يكون من صرعاي» .

ولعل النموذج الثالث من نصوص خطبه يوضح ذلك النزاع في طريقة الحكم بين الخلفاء والولاة، فكانت الخطبة عبارة عن رد فعل زياد حينما تلقى رسالة شديدة اللهجة من قبل معاوية بسبب عدم دخول زياد في طاعة معاوية كما فعل غيره بعد مقتل علي – كرم الله وجهه- وتنازل الحسن .فجمع الناس واستهل خطبته بمقدمة أظهر فيها ما يفسد الدين عند معاوية بدءا بوصف أمه هند بأكلـــــة الأكباد تلويحا لمضغها كبد حمزة - رضي الله عنه - عم الرسول - صلى الله عليه وسلم- بعد أن قتلته وهذا يبدي مدى حقدها وسوء نيتها وفساد طويتها، وما ذكر زياد هذا إلا ليبين أن ابنها معـــاوية ورث منها صفة القلب المريض بالنفاق البعيد عن طريق الله – تعالى- وهكذا رسم زيـــاد صورة في غاية البشاعة لمعاوية في حاضره وحتى لا ينفيها عنه أحد، فقد أوصلها بالماضي المتمثل في أحد الأصول بالنسبة لمعاوية وهي أمه ليباشر الحديث عن موضوع الخطبة بعد أن أجاد التوطئة له وهو مضمون رسالة معاوية المحمل بتهديد زياد الذي لم يكترث له، لأنه صاحب هذا الأسلوب اتقانا مثلما سنرى في الدراسة الفنية لنصوص خطبه.فزياد يخطئ معاوية لأنه انتهج مثل هذا الأسلوب في معاملته لأنه أرفع وأقـدر على الرد لولا الذي بينهما ويشير إلى حفيد الرسول - صلى الله عليــه وسلم - وإلى ابن عمه ويختم خطبته بالتهديد المعروف عنه وأنه لا يمكن أن يطأطأ رأسه أبدا وسيتصرف التصرف اللائق .ويكون زياد قد حقق غرضين من هذه الخطبة أولا أنه لا يمكن أن يكون تابعا إلا برضاه. ثانيا: قد نجح في تمرير

الرسالة إلى الرعية مفادها إذا كان شأن زياد كذلك مع الحكام فكيف هو زياد مع الناس ؟ مما ينبئ عن شدته وحزمه وعدم تساهله مع أي كان.

أما في نص الخطبة التي تلت هذه تظهر «صورة من صور السياسة الأموية في تبادل المصالح وتقارض المنافع إتجهت إليها الخطابة فجلتها وسجلتها» [41] ج2 ص176. فيظهر زياد كخطيب متمرس وسياسي محنك أحد دهاة العرب فعلا، وأنه لكل صغيرة وكبيرة. إذ يقلب كفة الميزان إلى صالح معاوية بأسلوب حكيم يمحو كل ما جاء في نص الخطبة السابقة، لأنه حصل على اعتراف معاوية بنسب زياد إلى أبيهما أبي سفيان. فيستهل الخطبة بموعظة وحكمة ينصاع وراءها كل إنسان، فلا أحد ينفر من طاعة الله و الابتعاد عما يغضبه - سبحانه وتعالى- ثم يستنتج زياد الحكمة و الروية من خلال تأمله فيما سبق من أحداث ويخص بالذكر مقتل عثمان بن عفان ونتيجة الخلاف والصراع حول مقتله وبين من قتله وشيعته، فيذكر أن النتيجة وخيمة بل يحدد رقما مخيفا من القتلى حصيلة يومي الجمل وصفين، مرجعا السبب إلى التباس الأمـــر على الناس لذلك فهو ينبههم إلى مغبة الوقوع في مثل هذه الأمور ويختم خطبته بأنه سيعمل على تجنيب الرعية كل ما يسيئهم من هذا الجانب لأنه راض عنهم. فجعل الناس يطمئنون ويشعرون بالراحة لان أمامهم واليا حكيما قويا قادرا على رد الفتنة، فلا اقتتال ولا حرب فهل يمكن بعد هذا الأسلوب السياسي منقطع النظير أن يقوم أحد من الرعية و يقول أن زيادا منافق؟ وأنه غير معاملته لمعاوية ؟ لا يمكن ، فقد فاجأهم برضاه وسماحته وحكمته و هو الذي يبدأ خطبه متهددا ويختمها كذلك.

من خلال هذه النماذج نستطيع القول أن لزياد باعا في الخطابة السياسية خاصة لحاجة الخطيب إليها كونه كان درعا واقيا لصد الكثير من الفتـــن وهذا ما قاله عنه عباد بن زياد بعد أن سأله عبد الله بن مروان عن الفرق بين سيرة زياد وسيرة الحجاج فأجاب أن زيادا قد قدم العراق وهي جمرة تشتعل فسل أحقادهم، وداوى أدواءهم، وضبط أهل العـراق بأهل العراق. يعكـس هذا حنكته السياسية، وأن المواقف التي تعرض لها كانت على ساحــة السياســة أكثر مما كانت على ساحة المجتمع والدين.

إن الخطبة في العصر الأموي تدور حول محور أساسي يتمثل في السياسة إلى جانب الموعظة فهذا الحجاج يظهر خطيبا كوال يطبق سياسة الخليفة و لكن بطريقته الخاصة، كما يظهر واعظا وهذا ما تعكسه خطابته. فقد استهل نص خطبته بعد الاستفتاح المعهود بالشتم والقدح بأهل العراق ليردعهم عن التكبير الذي سمعه منهم، وإن كان التكبير يخص الله -عز وجل- فإن الحجاج يكشف نوايا أهل العراق الذين قالوا كلمة حق أريد بها باطل،لذلك قال لهم أنهم يريدون بهذا التكبير الشيطان، ثم بين لهم من خلال استشهاده ببتي الشعر أنه قادر على من يظلم فيرد ظلمه عليه، ذلك بما يتصف به من فطنة و قوة وحمية وبالتالي جعل أهل العراق في موقف ضعف وختم خطبته بالتهديد، إذ يبطش بكل من تسول له نفسه بالوقوف أمامه.

أما النموذج الثاني أظهر فيه مفاسد العراقيين مفصلا المعاني في ذلك باللفظ المناسب لها إضافة إلى التهديد « إن الشيطان قد استنبط، فخالط اللحم و الدم ... » فحشد الحجاج هذه الألفاظ حشدا يعكس نفسيته، وعكس دقة اختياره للفظ فيظهر أهل العراق وكأن الشر قد تسرب إلى كل ذرة من ذرات كيانهم،وأنه دخل في طباعهم ونفوسهم ويستمر في شتمهم وتتوالى نعوت الإهانة فيذكرهم بوقائع أظهرت صفاتهم الحقيقية كيوم الزاوية إذ ظهر فشلهم وتنازعهم وتخاذلهم، كيوم دير الجماجم الذي لم يختلف فيه عن سابقه. وفي الفقــرة الثانية لا يقلع الحجاج عن أسلوب الشتم فتظهر النعوت متوالية إلى نهايتها تبين وضاعة أهل العراق وفي الفقرة الثالثــة يبقى على نفس المنوال كاشفا حقيقة العراقيين الذين لا يساندون إلا الظالمين والغاوين والعصاة. كما يبن في الفقرة الرابعة أنهم إمعة لكل سيء وأنهم لا يتعظون أبدا . فانتقل في هذه الفترة من النداء إلى السرد والتقرير ومن صيغة الماضي إلى صيغة الحاضر التي تدل على الاستمرار والديمومة، وتنتهي بالاستفهام المنطوي على معنى التعجب والاستنكار، مثيرا الأسماع والقلوب. فالنداء و صيغة الماضي كقوله: « ألستم أصحابي بالأهواز حيث رمتم المنكر وسعيتم بالغدر واستجمعتم للكفر ...» وانتقل إلى السرد بذكر يوم الزاوية ودير الجماجم، واستعمل المضارع «..لا يسأل المرء عن أخيه ولا يلوي الشيخ عن بنيه» .ويختم خطبته بالتفاته لأهل الشام و الرضا عنهم.

وفي النموذج الثالث يظهر الحجاج في مقدمة الخطبة رجلا صالحا ورعا يستخف بالدنيا ويستعظم الآخرة، وسرعان ما ينقلب ليبدي حنقه وغضبه على أهل العراق ويخص شرارهم بهجر القرآن، وتضييع الصلاة وليعود لأسلوب الوعظ مستشهدا بالقرآن الكريم في ذكر الخير والشر ويختم خطبته بالاستغفار ورغم قصر الخطبة إلا أننا نستطيع تقسيمها إلى ثلاث فقرات: المقدمة وتتمثل في المقارنة بين مؤونة الدنيا ومؤونة الآخرة من حيث ثقلهما على المسلم وتمنى الحجاج كفاية الله المسلمين مؤونة الآخرة على الدنيا ليبين أن الآخرة تتطلب العمل الكثير والكثير. ثم يتطرق إلى صلب الموضوع بأسلوب إنشائي بصيغة الاستفهام بغرض الاستنكار والتعجب وهو يخاطب أهل البصرة من إهمال للعلم والعلماء وإتباع طريق الشر ثم ينبئهم بفطنته وعلمه بالأشرار منهم ليذكرهم بطاعة الله -عز وجل – مؤكدا ذلك بشاهد من القرآن الكريم . وكانت الخاتمة عبارة عن استغفار.

ونعود إلى عرض خطابة الخلفاء مع عبد الملك بن مروان الذي يوضح سياسته بالنسبة إلى الرعية، فهو رجل حرب إلى درجة أنه يتفاخر بألفة القتال والحرب، إذ يعترف بصعوبتها ومرارتها وينوه بالدعة التي ترافق السلم، لكنه لا يجد في نفسه عسرا في التمرس بالحرب، إذ عرفها كما يعرف الولــد أمه، ثم يعقب على ذلك بدعوة الناس إلى الهــدى والابتعاد عن الأهواء والفرقة، وإلى تجنب الفتن، فهو يزداد عقابه بازدياد عصيان الناس وإصرارهم على الشر، وينصحهم بالاعتبار والاتعاظ بمقتل أبن الزبير وهكذا يعلن عبد الملك عن سياسة التخويف وبث الذعر في النفوس من أن يلقوا مصيرا كمصير أبن الزبير، أكثر من أن يكون أسلوب تأديب وهذا فرق بين هذه السياسة وما قبلها من سياسة الخلفاء، فلقد

رأينا عليا – كرم الله وجهه- في نص خطبته يحث على الجهاد على سبيل الطهـــر والنعيم لنيل الشهادة. و قبله كان عمر بن الخطاب يوضح للرعية حدود العدل بينما عبد الملك ابن مروان يعظ الناس بالتمثيل بجثة من قتل.

ويؤكد ما يذهب إليه من خطبته من شدة العقوبة للعاصي متمثلا بأبيات من شعر قيس بن رفاعة الأنصاري .ما من شك أن الخطبـــة حافظت على سنة الخطابة في هذا العصر من حيث بناؤها فبعـد الحمد الثناء والصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- جاءت المقدمة ممهدة للموضوع، ففيها رسم الخطيب معالما لشخصيته فجعلها والحرب أمرا واحدا. وبالتالي فهو محارب لا مجال للعاطفـة في اتخاذه لقراراته إنما له في الحزم والشدة باع طويل. ليتطرق إلى الموضوع - وقد قوى أسسه –وضبط الرعية وجعلها تسير وفق ما يلائم سياسته ويعود بها إلى السلف الصالح، فليس لهم أن يطلبوا معاملة المهاجرين الأولين و م لا يعملون أعمالهم، فإنما الجزاء من جنس العمل.

ثم تأتي الخاتمة فينتقل إلى التقريع والتهديد فليس لهم عنده بعد الأعذار والحجة إلا العقوبة، فمن شاء أن يعود لمثل ما مضى فليفعل، وسيأتي دوره وسيقوم عوجه، ويدرك عنده ثأره، وما يبق منه إلا ذكره السيء الملعن، يلهو به المقيم والمدلج والساري، وتمثل في ذلك بقول الشاعر.

كما يظهر في نص الخطبة الثانية دهاء الخطيب السياسي و حكمته في إسقاط اللوم و العتاب، بل التلويح بالعقاب، مع المجاهرة والكشف عن خبايا نفسه تجاه قريش وفضح خبايا نفسية القريشين، فلا مداهنة في سياسة الخليفة الخطيب وفي نفس الوقت إحكام قبضته على الرعية.

والأسلوب الذي اتخذه وسيلة لتحقيق غاية الخطبة المذكورة، أسلوب لم نجده في نصوص الخطابة الأموية، وإنما نستطيع القول أن عبد الملك اختص به أو أنه من الخطباء الأوائل الذين استعملوه، وهو أسلوب التمثيل بالقصص. وفي هذا توجه سياسي جديد يختلف عن الذي قبله، ذلك راجع للأحداث المستجدة في عهده فقد كان يحارب الشيعة والزوبيرين والخوارج، مما استلزم سياسة الحزم والقوة للقضاء على الفتن والثورات. ولعل أهم من مثل الاتجاه المعاكس ضد الأمويين هو أبو حمزة الشاري الذي اتخذت خطابته طابع من القوة والبلاغة والتدفق مما يميزها من غيرها « وكان لأبي حمزة الشاري في الخطابة باع طويل، ولخطابته طابع من القوة والبلاغة والتدفق يميزها من غيرها، وكانت أكثر خطبه في أهل المدينة، يذمهم ويقرعهم على انقيـادهم لحماتهم من بني أمية، وتهاونهم فيما يؤمنون به، وتخاذلـهم في الدفاع عنه وهو الخطيب الخـــارجي الذي وجه حملاته الخطابية إلى بني أمية، سافرة عنيفة فذمهم وسجل سوءاتهم » [41] ج2 ص378.

من أشهر خطبه تلك التي ألقاها في المدينة .بعد أن بلغه أن أهلها يعيبون أصحابه لحداثتهم وتنقسم إلى:

1. رأيه في النبي والخلفاء الراشدين الذين امتدحهم
2. رأيه في معاوية وابنه يزيد

3. رأيه في خلافة المروانيين عامة

4. رأيه في الشيعة

ويعرض الخطيب أراءه عرضا دينيا. فهو يمتدح النبي -عليه الصلاة والسلام- بمضيه على هدى ما أوحي إليه به وبإقدامه وإحجامه.وفقا لإرادة الله ثم عبر عن رأيه في سائر الخلفاء الراشدين. إذ قيم قيمهم بالنسبة إلى ما أثر على النبي - صلى الله عليه وسلـــــم - فيهم أي بالكتاب والسنة والجهاد وفرض الأعطيات العادلة وإقامة حدود الدين. وإذ ذكر أبا بكر- رضي الله عنه - أشار إلى قتـــــاله لأهل الردة ممتدحا إياه بذلك .

<< فالخوارج كانوا يرون في الجهاد نوعا من العبادة والصلاة العمليتين >> [22] ص324. وهكذا مدح عمر بن الخطاب - رضي الله عنه – أيضا.

وفي القسم الثاني يهجو معاوية ((لعين رسول الله وابن لعينه)) إشارة إلى يوم جاء أبو سفيان على جمل أحمر يقوده عتبة إبنه ويسوقوه معاوية فرآهم رسول الله - صلى عليه وسلم - فقال << اللهم العــن الراكب والقائد والسائق >> فقد استعبد معاوية الناس وأذلهم واستأثر بمال المسلمين بخاصته وأهله باغيا في الديـــــن.

ويزداد الخطيب غضبا بذكر يزيد بن معاوية فيلقبه بالفاسق ... ومربي الصقور والفهود والقرود يترفه بها وينصرف إلى مراقبتها وهذا فيه دلالة على خلو ذهنه من الهموم والغايات ونلاحظ أن الصورتين لكل من معاوية وابنه متباينتـــان إذ أخذ أبو حمزة الشاري على الأول كفره القديم بالإسلام واستبداده بالسلطة بينما رسم يزيدا هينا خنوعا قليل الشأن والهيبة لينتقل إلى صب سخطه على بني مروان كما صبه أيضا على بني أمية فهم قد توارثوا الخلافة إضافة إلى حالة المجون التي كان عليها يزيد بن عبد الملك والذي لم يختلف عن سابقه فيلعنه الخطيب أما أهل الشيعة فإنهم لا يرجعون إلى القران بل إلى أهوائهم فمن تعصب لفرقة منهم وتحزب لها وأطاع إمامه طاعـــة عمياء وأمن بالخرافات والبعث قبل الساعة فقد أكمل دينه من دون الأعمال الصالحة .

وبعد أن عرض آراءه هاته انتهى إلى وصف أصحابه بالتقوى والطهارة والصلاة وحبهم للجهاد في سبيل الله .

مما تقدم يتضح لنا أن تحولا كبيرا قد أصاب الحياة في هذا العصر، فأصبحت الخلافة الدينية النبوية، دولة سياسية أموية و كثرت الطوائف المختلفة، وسادت الحزبية وأخذت الحياة ذلك الطابع السياسي الحزبي، كاتجاه إضافة إلى الوعظ مثلما رأينا أثناء تحليل نصوص الخطب السابقة. إلا أن اتجاهات الخطابة في هذا العصر- وإن تركزت في السياســـة والدين- قد عــرفت أنواعا أخرى تفاوتت قلة وكثرة حسب الظروف الجديدة التي عرفها العصر الأموي .

يقول الدكتور محمد طاهر درويش « والناظر في موضوعات الخطابة في هذا العصر يجدها ممثلة كل التمثيل لأحواله واتجاهاته، تسايرها في خطواتها، وتقف معها مواقفها، وتوغل إيغالها ، وتقوى كقوتها، فأوفر الموضوعات خطبا وأغناها السياسة و الحكم، وما يتصل بها من حزبية وطائفية، ويأتي بعدها الدين و الوعظ، ثم الاجتماع والشؤون العامة، ثم الحرب، فالوفود، فالمجاوبات والمقاولات ، وتجيء الوصايا وما إليها آخرا، ودون ذلك جميعا » [41] ج2 ص ص 102-103.

ولقد قدم الدكتور محمد طاهر درويش رأيه هذا بعد أن رجع إلى 460 خطبة ومقال وقسمها على الاتجاهات المذكورة أنفا يقول: « بالرجوع إلى 460 خطبة و مقال في هذا العصر رأينا أكثر من ثلاثيها في السياسة والحزبية وما يتصل بهما، ووجدناها موزعة بين الموضوعات المختلفة على هذه الصورة : 148 للأحزاب والطوائف، 98 في الحكم وسياسته ،60 في الديـــن والوعظ ،50 في الاجتماع والشؤون العامة، 34 في الحـــرب،33 للوفـــود،25 في المجاوبات والمقاولات،12 في الوصايا » [41] ج2 ص103.

وفيما يلي سنلقي الضوء على بعض اتجاهات الخطبة في العصر الأموي غير السياسة والدين:

ب– القدرة على المحاججة وإظهار قوة المنطق(الحرب):

كانت الحرب بابا من أبواب الخطب التي تتصل بالسياسة والحكم و الحزبية والأحزاب « فلم يكن هناك مفر من الحرب في مثل هذا العصر، تنشب بين الشيعة والجماعية على يد الحسن بن علي تارة، وعلى يد التوابين النادمين على خذلان الحسين لأعدائه تارة أخرى، ثم بين الخوارج والدولة وبينهم وبين الزبيريين والشيعة، ثم بين الأمويين وهذه الأحزاب جميعا، ثم بين الدولة وبين البـــلاد التي اتجهت إلى فتحها، وضد الخارجيـــــن عليها والمتمـردين من رجـــالها وغير رجالها – لذلك كانت الخطب ضرورة من ضرورات هذه الحروب » [39] ج4 ص14. وإذا سلطنا الضوء على خطب الحرب بين العصريين صدر الإسلام وعصر بني أمية ، لوجدنا الخطب سابقا تدعو للجهاد و حرب الكفار والمرتدين، لنشر الدين ورفع راية الإسلام، في حين أصبحت الخطب في العصر الأموي ذات ثلاث شعب فمن دعوات متبادلة لحرب المتمردين من رجال الدولة، أو للإغراء بالخروج على طاعتها، إلى دعوة أخرى للجهاد في سبيل الله وفتح البلاد التي لم تستضئ بعد بنور الإسلام ، فهي دعوات حرب ، بواعثها سياسية أو حزبية أو دينية .

جـ- الاستفادة من العلوم المختلفة (الوفادة):

إذا كانت الوفود قد وفدت على الرسول – صلى الله عليه وسلم – وخلفائه الراشدين – رضوان الله عنهم- لإعلان الإسلام، أو الإستمناح بطلب الزيـــــادة في الفرائض والأعطيـــات أو الشكوى وغير ذلك، فقد أصبحت للوفود وجهات أخرى، رغبة في الجوائز والعطايا، وقضاء الحـــوائج ورفع المظالم،

والطمع فيما توحي به القرابة من تميز وبذل، والتهنئة بالخلافة، والتعزية في النوائب، وسبيل الوفود في ذلك كله في هذا العصر، انتماؤه الحزبي بما سلف لها من يد في المظاهرة والتأييد .

وتطلب على ذلك المنفعة والجزاء، هذا من ناحية، من ناحية أخرى فقد بدت ظاهرة جديدة تتمثل هي خطابة الخلفاء والولاة في هذه الوفود مرحبة واعدة.

وعلى سبيل المثال لا الحصر نأخذ نصا من خطبة الأحنف بن قيس في حضرة معاوية : يا أمير المؤمنين، أهل البصرة، عدد يسير، وعظم كسير، مع تتابع من المحول و اتصال الذحول فالمكثر فيها قد أطرق، والمقل قد أملق، وبلغ منه الخنف، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينعش الفقير، ويجبر الكسير ويسهل العسير....» فقال له معاوية: « ها هنا يا أبا بحر ثم تلا: « ولتعرفنهم في لحن القول » [19] ج2 ص56.

والجدير بالذكـر أثناء حديثنا عن خطب الوفـود أنه في العصر الأموي ظهرت خطب الوافــدات « كوفادة سودة ابنة عمارة بن الأشتر الهمدانية على معاوية، وأم سنان المذحجية على معاوية كذلك وبكارة الهلالية وأروى بنت الحارث بن عبد المطلب »[22] ص ص 362-365.

والوفادة تقوم على الحوار والمناظرة. أما الأحزاب والطوائف التي كثرت في هذا العصر فإنها تقوم على الجدل والاحتجاج« فأصبح هذا اللون من القول قسما ضخما من أقسام الخطابة الإسلامية، يمكن أن ينسب إليه جانب كبير من النهضة الخطابية بذلك قامت الخطابة الاستشارية السياسية و لم تكن معروفة قبل الإسلام بمفهومها الواضح الصحيح.

د- المقاولات و المجاوبات:

يبدو هذا اللون من القول جديدا في هذا العصر، وهو المقاولة و المحاورة « إذ يأخذ شكل الخطابة بما فيه من براعة القول، وحضور البديهة، وقوة الحجة، والأجوبة المقنعة المسكتة، فرأينا أن نلحقها به وندخلها في بابها، لأنها كانت فنا قائما بذاته في حياتهم الاجتماعية و الأدبية ، واتجاها خاصا أخذله وضعا متميزا في محافلهم و مجالسهم .وفي كلامهم ومخاطباتهم الجماعية، ونهجا نهج الخطابة، أقرب ما يكون إلى لغتها وأساليبها» [41] ج2 ص136. وإذا ما بحثنا عن جذور هذا اللون من القول فإننا نجده شبيها بالذي عرف في العصر الجاهلي ، وقد تحدثنا عنه في الفصل الأول من هذا البحث، ويتعلق بالمفاخرة والمنافرة وقد حاربه الإسلام فاختفى في عهد الرسول –صلى الله عليه وسلم – وفي عهد الخلفاء الراشدين. أما الوجوه التي يتشابه فيها اللونان فهي كونهما « يتقاربان أو يتلاحمان في الشكل والصورة، فالأجوبة تجري متلاحقة، وتمضي متتابعة، شبيهة بمنهج المتفاخر، والقول أو الحوار يدور مع نظيره حيث يدور، أقرب إلى مذهب التنافر، ولكنهما يتباعدان أحيانا من جهة الموضوع ، فليس كل مجاوبة أو محاورة وقفا على الفخر و المنافرة » [41] ج2 ص137.

ومن المجاوبات والمقاولات التي ذكرتها بعض المصادر كالعقد الفريد ما كان بين الحسن بن علي وعمرو بن العاص ومروان بن الحكم عند معاوية [19] ج2 ص115. فقد وفد الحسن على معاوية فقال: عمرو

بن العاص: « يا أمير المؤمنين إن الحسن رجل أفه فلو حملته على المنبر ، فتكلم وسمع الناس كلامه عابوه وسقط من عيونهم » ففعل فصعد الحسن المنبر وتكلم فأحسن، ثم قال:

« أيها الناس لو طلبتم أنا لنبيكم ما بين جابرس إلى جابلق لم تجدوه غيري وغير أخي – وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين » فساء ذلك عمرا، فقطع عليه كلامه ، وقال له: أبا محمد هل تنعت الرطب؟ فقال: « أجل تلقحه الشمال و تخرجه الجنوب، وينضحه برد الليل بحر النهار » فسأله في أشياء أخرى فأجاب، ثم مضى في كلامه الأول وكذلك ما قام بين سليك بن سلكة والحجاج، وقد جاءه شاكيا، فقال: أصلح الله الأمير، أعرني سمعك وأغضض عني بصرك، وأكفف عني حزبك، فإن سمعت خطأ أو زللا فدونك والعقوبة. فقال قل، قال: عصى عاص من عرض العشيرة، فحلق على اسمي، وهدمت داري وحرمت عطائي، قال: هيهات أما سمعت قول الشاعر:

جانيك من يجنى عليك وربما تعدى الصحاح مبارك الجرب

ولرب مأخوذ بذنب عشيــره ونجا المقارف صاحب الذنب

قال سليك: أصلح الله الأمير، سمعت الله يقول غير هذا، قال وما ذاك: قال تعالى: « يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه، إنا نراك من المحسنين، قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده، إنا إذا لظالمون » فقال الحجاج لكاتبه : أفكك لهذا عن اسمه، واصكك له بعطائه، و ابني له منزله، ومر مناديا ينادي في الناس : صدق الله، وكذب الشاعر[19] ج3 ص6.

هـ- إمتلاك الخطيب المنهج في طرح القضايا:

تناولت الخطابة في العصر الأموي أحوال الناس في مجتمعهم من مشاورة و تعزية ورثاء ونصح وتهنئة ومدح وشكوى واعتذار واستعطاف، والكلام في هذا المجال كثير، لذلك نبين بعض الأمثلة حتى نثبت أن الخطابة قد تعددت موضوعاتها وتنوعت.

لقد كان للأحنف بن قيس باع طويل في الخطابة الاجتماعية إذ مر عند معاوية مغاضبا، حين قال له: والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزازة في قلبي إلى يوم القيامة، فقال الأحنف:

« يا أمير المؤمنين: لم ترد الأمور على أعقابها ؟ أما و الله إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا والسيوف التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا، ولئن مددت بشبر من غدر لنمدن باعا ختر ولئن شئت لتستصفين كدر قلوبنا بصفو حلمك » قال معاوية: فإني أفعل [19] ج2 ص118.

الوصايا: كانت الوصايا في مختلف العصور ضرورة اجتماعية حيوية، وقد ذكرنا من قبل – صلتها بالخطابة. ولم تختلف الوصية في العصر الأموي عن سابقتها في عصر صدر الإسلام من حيث الشكل والمضمون، إنما الملاحظ أنها جارت ظروف العصر، بحيث تجدها بوفرة إذ أصبح الحكم ملكيا، أضف إلى ذلك اتساع رقعة البلاد وكثرة الولاة، فنجد مثلا وصية معاوية عندما دنا أجله، وكان ابنه يزيد غائبا – دعا الضحاك بن القيس الفهري ومسلم بن عقبة المري فأوصى إليهما فقال: « بلغا يزيد وصيتي: انظر

أهل الحجاز فإنهم أهلك فأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب. وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل، فإن تعزل عاملا أحب إلي من أن تشهر عليك مائة ألف سيف وأنظر أهل الشام فاجعلهم الشعار دون الدثار...» [36] ج3 ص180.

ونلاحظ أن الوصية قد اكتست حلة سياسية واضحة، فمعظم الوصايا باختلاف مناسباتها، تشترك في هذه النقطة.

القصص: << كان القصص شائعا، وبينه وبين الخطابة صلات ووشائح قوية واضحة، وكان جمهرة القصاص وعامة قصاص البصرة أخطب من الخطباء، يجلس إليهم عامة الفقهاء. والذي يبدو أن جلوس الفقهاء إلى هؤلاء القصاص لم يكن طلبا للفائدة و الاستماع و حدهما، لأنهم كانوا عامة الفقهاء، ولكن لما كان يبهرهم من بلاغة المتكلمين وخطابة هؤلاء الخطباء المفوهين. وإذا فقد أخذ القصص طابع الخطابة أحيانا وجرى على أسلوبها .. » [41] ج2 ص86.

ولقد سبق و أن أشرنا في الفصل الثاني من هذا البحث: كيف أقام عمر بن الخطاب رجالا يعظون ويقصون عند الحرب وفي ميادين القتال وبقي ذلك قائما حتى العصر الأموي، فاتسع نطاقه، واختص به بعضهم. ويستدل صاحب كتاب الخطابة في صدر الإسلام على صحة ما أتى به من أن القصص لون من ألوان الخطابة بقوله :« يؤيد هذا و ذالك ما نقل من أنه عندما قامت الحرب بين الأمويين والخوارج بالمدائن. وعلى الخوارج شبيب بن يزيد الشيلاني، وتوافق الفريقان للقتال، جعل عتاب بن ورقاء الرياص القائد الأموي، يسير فيما بين الميمنة إلى الميسرة، يمر بأهل الراية يحثهم على تقوى الله، ويأمرهم بالصبر. ويقص عليهم قصصا كثيرا فلم يجبه أحد، فقال:« أين القصاص يقصون على الناس ويحرضونهم: فلم يتكلم أحد، فقال: أين من يروي شعر عنترة فيحـــرك الناس: فلم يجبه أحد: فقال إنا لله. والله لكأني بكـــم وقد فررتم عن عتاب بن ورقـاء، وتركتموه تسفى في أسته الريح » [41] ج2 ص86.

وبالتالي نستطيع القول أن القصص في العصر الأموي يقوم في المواطن التي تقوم فيها الخطابة، ويؤدي غايتها وغاية الخطابة الإقناع . كما يستدل د.محمد طاهر درويش على أن القصص يأخذ شكل الخطابة، بقول الأستاذ أحمد الشايب مؤلف – تاريخ الشعر السياسي- << و قد اتخذ القصص الإسلامي أداة سياسية ودينية معا، وكانت عبارته تشبه الأسلوب الخطابي الوعظي، يلقي في المساجد و في ميادين القتال. ينهض به رجال أعدوا له، واختصوا به » [41] ج2 ص.88

ويشاطره الرأي د. شوقي ضيف الذي يؤكد بأن الوعظ والقصص قد نشط كثيرا في العصر الأموي «نشط الوعظ والقصص الديني في هذا العصر نشاطا عظيما، فقد كان الوعاظ والقصاص في كل بلدة إسلامية...»، ويضيف أن القصاص كانوا يقومون بالوعظ في الوقت نفسه، بل الغرض من القصص الوعظ «فالقصاص كانوا وعاظا في الوقت نفسه، بل هم لا يقصون إلا من أجل الوعظ » [42] ج2

ص435. ولعل أشهر القصاص الوعاظ الحسن البصري وهذا بشهادة الجاحظ حيث يقول: « أما الخطب فإنا لا نعرف أحدا يتقدم الحسن البصري فيها » [14] ج2 ص113.

هذا من حيث الغرض، أما من حيث الأسلوب فإن للقصص أسلوب الخطبة لأجل الإقناع، فتجلت فيه البلاغة واضحة مساهمة بذلك في تطوره تطورا ملحوظا في هذا العصر: « فإذا قلنا إن الخطابة العربية تطورت تطورا واسعا بتأثير عقول هؤلاء المتكلمين (يقصد القصاص) لم نكن مغالين، إذ دعمت فيه الأدلة ودقت المعاني ...» [42] ج2 ص443. بل ويجعل د. شوقي ضيف الفضل كل الفضل لهؤلاء على كتاب العصر العباسي الذين تأثروا واستفادوا من بلاغة قصاص العصر الأموي<< شاع أسلوب آخر يقوم على الازدواج والترادف ..وإنما ألجأهم إليه ضيق معاني الوعظ، فاضطروا إلى الترادف وترداد الكلام. ومن غير شك هم الذين أعدوا لهذا الأسلوب الذي تراه ينتقل منهم إلى عبد الحميد ومن تلاه من كتاب العصر العباسي أمثال الجاحظ ولا أغلوا إذ قلت إنهم أعدوا لشيوع لون الطباق في كتابات العباسيين فإنهم أهدوا .إلى النثر العربي كثيرا حتى الوصايا البلاغية » [42] ج2 ص ص 443-444.

ويستمر د.شوقي ضيف في بيان منزلة القصاص الأمويين البلاغية إذ يجعل منهم أساتذة معلمين في ميدان البلاغة العربية لاحظ قوله: « .. إذ تحولوا يعلمون شباب البصرة و الكوفة كيف يحسنون خطباتهم سواء من حيث إشاراتهـــم أم من حيث منطقهم أم من حيث تنقيح معانيهم أم من حيث تصفية ألفاظهم، وكيف يلائمون بين اللفظ والمعنى .. ومتى يستحب الإيجاز ومتى يستحب الإطناب وبذلك هيأوا لظهور قواعد البلاغة العربية» [42] ج2 ص414.

2.3. الخصائص الفنية في هذه النصوص

1.2.3. تأصل نصوص الخطابة في ثوابت منهجية

من خلال النماذج سالفة الذكر، تظهر لنا الخطابة بوجه فني فيه الجدة عما سبقها من نصوص في العهد الراشدي وإن كانت قد حافظت على الأصول التي وضعت لها منذ بداية العصر الإسلامي إلا أن الظروف والمواقف التي أحاطت بالخطيب في العصر الأمـــوي اقتضت استعمـــال بعض الأساليب التي لم تكن الخطابة قد اعتمدت عليها :

1.1.2.3.تقسيم نص الخطبة

أ- الإبتداءات: الملاحظ على الخطب في العصر الأموي أنها صورة من صور الخطابة في عصر صدر الإسلام، تبدأ بالحمد له والثناء على الله، ماعدا خطبة زياد البتراء التي كانت أول خطبة يلقيها على أسماع أهل البصرة الذين شاع بينهم أسوأ الخلق من فسق و سرقة وبعد عن الدين إلى غير ذلك ،لهذا يرى البعض أن زيادا عمد إلى حذف الافتتاح الذي عرفت به الخطب فهو في موقف من يقبض زمام الحكم بقبضة من حديد حتى يعيد الأمور إلى مجراها الطبيعي، يقول د. محمد طاهر درويش«.. فإذا

لاحظنا أن نفس زياد ليست ككل نفس، وأن طبيعته ليست ككل طبيعة، وأنها تفيض بالقسوة والبطش والجبروت،.. تيسر لنا أن نتمثل تلك الحال التي انبعثت عليها بهذا الموقف خطيبا، لا يذكر شيئا إلا أن يحيط نفسه بجو من الإرهاب، يفزع به أولئك الأقوام الذين يلقونه أول لقاء، ويسمعون إلى أول خطبة له فيهم من أجل ذلك ترك حمد الله تركا، ليغرس في نفوسهم اليقين بأنه ليس كغيره من الحاكمين، وقد أتى منكرا من القول، فما منكر من فعله ببعيد»[41] ج2 ص327.

ومن الآراء ما يضيف إلى ذلك أمرا آخر، كون زياد ليس من أولئك المتشبعين بالقيم الدينية، يقول د.أحمد محمد الحوفي:«..و لم يكن باعثه على ذلك أنه يتهدد ويتوعد فحسب ،فكم من خطب قيلت في العصر الإسلامي للتهديد والوعيد، وهي مبدوءة بالحمد والثناء والصلاة على الرسول – صلى الله عليه وسلم- وإنما كان الباعث أيضا على ترك الحمد أن زيادا- كما يتبين من خطبه ورسائله – لم يكن من الذين أشربت قلوبهم الدين، وامتزج بنفوسهم القرآن، ولم يكن حريصا على أن يقتضي ما سنه المسلمون من قبله في الافتتاح بما يشعر بالانقياد لله. على أنه لا يمنع من ذلك أن الشذوذ في هذا الافتتاح المفاجئ يوحي للسامعين بالصرامة والغلظة ويضاعف رهبتهم من حاكمهم الجديد، الذي لا يتورع من التنكيل والتقتيل » [37] ص ص 293-294.

ومهما يكن من أمر فإن زيادا قد أضفى على الخطابة في العصر الأموي هذا الجديد بغض النظر عن سلبيته وإيجابيته وهذا ما اشرنا إليه أثناء تحليل نص الخطبة.

كما تجسد خطابة عبد الملك بن مروان كذلك هذا التطور في بناء الخطبة في العصر الأموي. فقد جاء نص الخطبة في صيغة جديدة تختلف عما عهدنا عليه نص الخطابة في العصر الإسلامي عموما والأموي خصوصا، فلم يذكر التحميد والثناء في الافتتاح إنما وردت المقدمة مباشرة بقوله « يا معشر قريش مثلنا ومثلكم أن أخوين من الجاهلية خرجا مسافرين.. » وفيها من التشويق ما فيها: أولا حينما يضع الخليفة بينه و بين الرعية صلة وشراكة تتمثل في قوله " مثلنا ومثلكم" أي أنه والرعية يشتركان في هذا المثل ، ومبدأ الصلة الذي قد يعني المساواة أمر غير معهود في سياسة الخليفة ثانيا: التشويق حاصل من حيث التمهيد للقصة بحد ذاتها، ماذا حدث لهذين الأخوين المسافرين؟. فمن دون شك أن الناس حينما سمعوا هذه المقدمة تشوقوا وتلهفوا لمعرفة القصة ولما ضربت له .

وعند أبي حمزة الشاري قد جاء نص الخطبة على غرار نص الخطابة الإسلامية من حيث الاستهلال بالحمد والثناء علـى الله تعالى بمقدمة أوجز فيها سبب إلقاء هذه الخطبة في أهل المدينة.

ب -العرض والخاتمة في نص الخطبة : نستطيع تحديد خاصية مهمة جدا في الخطبة الأموية من خلال ما تواجد عندنا لا سيما الخطبة البتراء، فهي خطبة مقسمة إلى أجزاء، يتجه كل جزء إلى هدف خاص يوضحه مستقلا عن غيره، كأنه وحدة قائمة بنفسها، يضمها جميعا الغرض العام للخطبة المتمثل في بسط السياسة الجديدة وبيان منهج الحكم على يديه -أي زياد- وردع الناس عماهم عليه.

فزياد بدأ خطبته باللوم والتوبيخ لأهل البصرة، ثم ينتقل إلى تفصيل حالهم مع التأنيب، ثم يعرض سياسته فيهم بتهديد ووعيد، لينتقل إلى شيء من الهدوء وهو يغض الطرف عن الماضي،ثم يعرفهم بحق ولاتهم عليهم وحقوقهم عندهم، وتختم خطبته بالتهديد والوعيد.هذا تقسيم لم نجد الخطبة قبل هذا العصر قد تميزت به، بل إن بعض الدراسيين من يراه أمرا مستحدثا على يد زياد«وهذا التقسيم في الخطابة العربية شيء جديد، تميزت به خطابة هذا العصر على يد زياد عن خطابة العصر الديني».[41] ج2 ص329.

ولا يختلف هذا القول عن القول«..فإن خطبة زياد أصبحت خطبة شبه منهجية،تتطور تتطورا ...مستوفي وجوه القول، دون تفكك أو تردد أو قذف عفوي للأفكار».[22] ج2 ص ص269-270.

أما عبد الملك بن مروان فقد تناول في العرض تفصيل أحداث هذه القصة، إذ الخطيب يخلص من خلالها إلى تحقيق غايته التي تظهر في الخاتمة- إلا أنها تحمل بين سطورها معان على الناس إدراكها: فالقناعة وعدم الطمع من أهم الصفات التي يجب أن يتصف بها المستمعون لهذه الخطبة و هذا ما يعكسه قوله فيها . « فقالا: إن هذا لمن كنز.. فقال أحدهما لصاحبه: إلى متى تنتظر هذه الحية ألا نقتلها ونحفر هذا الكنز فنأخذه، فنهاه أخوه وقال: ما تدري لعلك تعطب ولا تدرك المال » فالجدال بين الأخويين فيه دلالة على أن الثاني يمثل صوت العقل الذي يجب على الرعية أن تستمع إليه في حين يمثل الأول طمع الرعية و إسراعها في خوض الفتنة. ويبدو الخطيب متيقنا مما يحتوي عليه هذا المثل من مراد وغرض يريد الوصول إليهما وهو إدراك الرعية وتيقنها من عدم القدرة على مواجهة عبد الملك وإن حاولت، ويظهر هذا من خلال قوله «فأبى عليه وأخذ فأسا معه و رصد الحية حتى خرجت، فضربها ضربة جرحت رأسها ولم تقتلها فثارت الحية فقتلته » فجزاء الرعية في حالة عصيانها واضح وهو القتل، وإذن فغضب الخليفة شديد ويجب تفاديه.

وفي الخاتمة ينتهي إلى النتيجة وهي: عدم صفاء جانب الخليفة تجاه القريشيين، كما يبين عدم حب الرعية له، مما يعكس فطنة الخليفة ووعيه بشؤون السياسة والحكم. وما ذكره لعمر بن الخطاب –رضي الله عنه- وشدته ولعثمان بن عفان –رضي الله عنه- وليونته، إلا ليعلم الرعية بأنه أدرى بالأسلوب المناسب لحكمها.

أما أبو حمزة الشاري فقد عرض في الموضوع آراءه كما أسلفنا ذكرها معتمدا في ذلك الأدلة والقرائن التاريخية القائمة في عصره مفضيا إلى خاتمة أوجز بها ما قدمه متخلصا إلى الحقيقة التي أراد أن يقنع السامع بها ووفقا لهذا البناء فقد استعمل الخطيب منهجا في بناء خطبته يدل على مدى تطور بناء نص الخطابة في العصر الأموي:

- العرض الخطابي والعرض التاريخي فقد عرض الوقائع التاريخية متتالية كذكره للرسول- صلى الله عليه وسلم - ثم الخلفاء ثم بني أمية وهكذا. وعقب عن كل واقعة تاريخية راضيا أو ساخط. مثلا قد بدا رضاه في مثل كلامه عن النبي -صلى عليه الصلاة والسلام-<< فلم يكن يتقدم إلا بأمر الله ولا يحجم

إلا عن أمر الله حتى قبضه الله إليه>> وقوله عن أبي بكر <<وولى أبا بكر صلاتهم فولاه المسلمون أمر دينهم... فعمل بالكتاب والسنة...>> وكذلك قوله عن عمر، أما مظاهر السخط فبدت في مثـــــل قوله عن معاوية لعين رسول الله وابن لعينه. وعن ابنه يزيد <<يزيد الخمور..>> وكذلك في مثل قوله: <<ثم تداولها بنو مروان .. لعنهم الله تعالى..>> ويرى إيليا الحاوي أن أبا حمزة أولج ذاته في موضوعيـــة ما عرضه في خطبته << ولونها بألوان انفعاله مازجا فيها بين الذات والموضوع صادرا عن العاطفة والانفعال وهو أمر مأثور في طبائع الخطابة به يحقق الخطيب غايته من إقناع السامعين بتحويل الأفكار الموضوعية إلى عواطـف انفعالية ذاتية وقد كان أرسطو يميز بين الأدلة الخطابية والأدلة العقلية العلمية خاصا الأولى بخصائص الإثارة والإيحاء الذاتية قاصرا الثانية على الموضوعية والبحث والتحليل وهكذا فان الأحداث واقعية تاريخية أما تعليلها فخطابي حماسي>>[22] ص330.

- أسلوب السرد في نص الخطبة: موضوع الخطبة يقتضي أسلوب السرد والتقرير في معظمها فنجد الخطيب يذكر الأحداث ويبدي رأيه فيها حســب الأشخاص ومواقفهم والملاحظ أن أبا حمزة الشاري انطلق في مساره التاريخي في نص الخطبة من منطلق دينـــــي ليصل إلى نتيجة سياسية . ولو اقتفينا اثر النماذج السابقة لوجدنا الخطباء ينطلقون من منطلق سياسي يضمنونـه الدين لأجل الإقناع << قد ينطلق من الدين للسياسة بدلا عن الانطلاق من السياسة إلى الدين وهو يؤدي البينة ويقيمها بالنسبة إلى تعاليم الإسلام فخطبته دينية في مجال سياسي بينما كانت الخطبة الأموية سياسية قد تعمد إلى بعض البينات الدينية لدعم الرأي والعقيدة >>[22] ص331.

- أسلوب الوصف في نص الخطبة: ما أن يتخلى الخطيب عن أسلوب السرد أحيانا إلا وقد اعتمد أسلوب الوصف أو نجده يضمن الوصف في أسلوب السرد فيكثر من إيراد النعوت توضيحا للفكرة وإحاطة بالمعنى سواء أكان الوصف بغرض القدح أم بغــرض المدح من مثل قوله << ثم ولي معاوية بن أبي سفيان لعين رسول الله ... >>أو قوله << يزيد الخمور ويزيد الصقور.. >> أو قوله << ثم ولي يزيد بن عبد الملك غلام ضعيف سفيه غير مأمون ...>> وفي مدح أصحابه من مثل قولــه: <<شباب والله مكتهلون في شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ثقيلة عن الباطل أرجلهم أنضاء...>> وبنا إلى ذلك من عظيم أثر الأسلوب الوصفي في نفوس السامعين من استهجان ما استهجنه الخطيب واستحسان ما استحسنه. وهكذا يحقق غايته من الخطبة المتمثلة في استمالة المتلقي إليه والاقتناع بما يقدمه له من أراء.

2.1.2.3.قوة العارضة عند الخطباء

إن هذه النماذج التي عرضت من نصوص خطابة معاوية تبين مدى رباطة جأش الخليفة الخطيب معاوية من قوة شكيمة وحضور بديهة وحلم أثناء الخطبة، كسياسي وكواعظ يتحكم في زمام نفسه لا يسلمها لأغوارها ولا للغضب فكره الرعية له، وعلمه بذلك، لم يضعف شوكته ولا موقفه ولا خطابته

أمامها، وحينما علم وهو على فراش الموت أن ببابه جماعة من قريش تتباشر بموته لم يترك الأسى والغضب يسيطران عليه فيؤثران سلبا على خطبته من حيث المبنى والمعنى، بل كان جوابه « ويحك . لما؟ فو الله مالهم من بعدي إلا الذي يسوؤهم . وأذن للناس فدخلوا، فحمد الله وأثناء عليه .. » فكونه استهل خطبته بالحمد والثناء فقد حافظ على سنة الخطابة في الاستفتاح ليعكس ثباته ورباطة جأشه، ولو رد على الناس بأسلوب الزجر أو التهديد بمجرد دخولهم لكان الأمر رد فعل طبيعي إلا أنه حافظ على هدوئه واتزانه وعرض عقله عليهم في توأدة بأسلوب محكم كما عهد عنه دائما في خطابته. فقد ورد عنه في عيون الأخبار أنه كان يخطب، فجاءه رجل وقال له:

زوجني أمك فقال معاوية: الأمر لها وقد أبت أن تتزوج فقال: فا فرص لي و لقومي، فتمثل معاوية ببيت شعر: طلب الأبلق العقوق فلمـــــا

لم ينله أراد بيض الأنـــــوق

وبعد ذلك عاد ليكمل خطبته مثل ما بدأها ، وكذلك حينما اتهمه رجل بالكذب أثناء خطبته غضب ثم دخل بيته فتوضأ وخرج للناس ليقول لهم أن الغضب من الشيطان، ثم عاد ليكمل خطبته [33] ج1 ص290.

ويبين الجاحظ هذه المنـزلة في الخطبـــاء الذين يتصفون بالبلاغة والقدرة الخطابية العالية « هذه المنزلة من مراتب الخطباء العالية، لا تكون إلا لذوي المـواهب الممتازة في الخطابة وأصحاب القدرة على امتـــلاك أزمة البـــلاغة مع ثبات الجنان وحضور البديهـــة. وقد أنشـد أبو عبيدة في الخطيب يطول كلامه ويكون ذكـــورا لأول خطبته والذي بني عليه أمره وإن شغب شاغب فقطع عليه كلامه، أو حدث عند ذلك حدثا يحتاج فيه بتدبير أخر، وصل الثاني من كلامه بالأول، حتى لا يكون أحد كلاميه أجود من الآخر.

فقال : فإن أحدثوا شغبا يقطع نظمها

فإنك وصـــــال لما قطع الشغب

ولو كنت نساج سدوت خطابها

بقول كطعم الشهد بالبارد العذب [14] ج1 ص184.

3.1.2.3.السلامة و الوضوح في عرض الأفكار و الترويج لها

تميز الخليفة معـــاوية كخطيب بمذهب كلامي تمثل في الاعتماد على العقـل والواقع في استمداد الحجج والبراهين لإقناع السامعين، بيد أن الخطابة قبله عند الرسول – صلى الله عليه وسلم- وعند الخلفاء الراشدين- رضوان الله عليهم- كانت تعتمد على الذكر الحكيم وعلى الحديث الشريف في تقوية مواقفهم وتقرير ما يذهبون إليه من آراء وما يهدفون إليه من غايات، ورغم أن معاوية من كتاب الوحي إلا أنه لم يؤثر عليه كثرة الاستشهاد بالقرآن الكريم في خطبه حتى الخطب الدينية، ولعل السبب في ذلك يعود إلى: أنه أول خليفة في العصر الأموي، أخذ الخلافة بعد أن سفـــكت الدماء وكانت دماء مسلمين، فلم تقم الدولة

الأموية على محبة من كل الناس، بل كانوا فئتين، فئة تناصر الأمويين وأخرى ترى الحق في الخلافة للهاشميين، فهل يمكن أن يصل معاويـــة في خطابته إلى غايته – جعل الرعية تذعن له- وهو يستشهد بالقرآن الكريم ؟ لا يمكن لأنـــه في نظر الرعية غير عادل، فما من سبيل لتحقيق غايته من الخطب سوى الاعتماد على العقل. ثم إن معاوية – وهو أحد دهاة العرب – رجل سياسة يعرف من أين تؤكل الكتف، فالأحداث والواقـــع عنده في إقامة الخلافة الأموية أقوى دليل في مواجهة الرعية وجعلها تصرف فكرها عن قضية أحقية الخلافة، وبالتالي تنظر إلى معاوية كحاكم كخليفة قادر على تسيير شؤون أمرها.

لذلك نجده في النموذج الأول يؤكد منهجه الخاص به في السياسة والحكم ليحقق المنفعة له وللرعيـــة «يقف معاوية موقف القوي بذاته المعتز بمناعته وجنده ، لا يستشهد على صواب ما يقول بالآيات القرآنية كما كان يفعل الحسن والحسين وعلي أو عثمان وأبو بكر من قبل بل يبدو وكأنه أولجهم في سنته الخاصة به المستمدة من واقعهم وواقعه معهم، وإذا كان قد نوه عن مبادأتهم بما أثر عن أبي بكر وعمر من خلق سياسي، فإنه يعقب ذلك بنهجه الخاص الذي يقتضي فيه الطاعة عن صدق واقتناع بل يتظاهر بها لتحقيق رغبته – "فسلكت بها طريقا لي ولكم فيه منفعة: مؤآكلة حسنة ومشاربة جميلة " » [22] ص230. وهذا المنهج نفسه في النموذج الثاني إذ لا نجد آية قرآنية ولا حديثا شريفا. إنما خطابه مبني على العقل مستمدا حيثياته من الواقع الذي حدد مكانه بالعراق وما يتصف أهله به من شقاق وحب للفتنة فمن الواجب بل من الحكمة و العقل أن لا تتمثل الرعية بهم، وعليها إذن الرضى بالحكم الراهن لا السابق ونستطيع القول أن معاوية يدفع بالرعية إلى الاحتكام بالعقل من خلال القياس حينما مثل بأهل العراق في انشقاقهم، ومن هنا تستنتج الرعية وجوب الائتلاف والالتحام وتجنب الفتنة .

ويبدو اعتماد معاوية على الأخذ من واقع التجارب لم يقتصر على خطبه السياسية ، بل كان ذلك حتى في الخطب الدينية ، لهذا عرضنا في النموذج الثالث خطبة بطابع وعظي ، وهو على فراش الموت وكان من دوافع الاستشهاد بالقـــرآن الكريم دافعـــان قويان: الأول أنه على فراش الموت وذكر كلام الله – عز وجل- في مثل هذا الموقف هو الملائم لتطمئن النفس التي ستقبض في أية لحظة. و الدافع الثاني كون نص الخطبة وعظي قد يبنى في أغلب الأحيان على معان قرآنية أو تذكر فيه آيات كريمة، إلا أن معاوية انصرف عن ذلك ليعتمد في مخاطبة من هم حوله معتمدا على العقل أخذا بالحكمة في الكلام جاعلا أحكامه لا عن بصر بل عن بصيرة نافذة استطاع من خلالها عرض الناس في فئات فتظهر من خلال ذلك خبرته في الحياة و إدراكه لمآرب الناس وقدرته على تصنيفهم « لا ينهج فيها معاوية نهج الراشدين في الاستشهاد بالآيات القرآنية والمأثور من أحاديث النبي – عليه الصلاة و السلام- كما انه لا يقحم عليها التعاليل الإسلامية المباشرة، بل يعالجها في حدود اختياره لأهل زمانه وما ظهر وما استتر منه ...فمعاوية يأخذ بالعقل على الدين، وهو إذ يتأمل الأحداث التي تطرأ عليه ينظر فيها بعين العقل و التجربة ولا يقيمها في حدود الدين وتعاليمه » [22] ص236ا ما تساءلنا. عن المذهب الكلامي عند زياد إن كان يختلف

عنه عند معاوية الذي اعتمد على العقل و الواقع، فإننا نجد أخاه زيادا يقدم حججا لا يمكن إبطالها فحججه مبينه على ما جاء في القرآن من ذكر النار والجنة بأسلوبي الترغيب والترهيب،وذكر الآخرة بقوله الزمن السرمدي،فلا مسلم يستطيع دفع هذه الحجج أبدا،مثال ذلك أثناء مخاطبته أهل البصرة في البتراء:«..كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول ؟ أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه من تركككم الضعيف يقهر..».

وأحيانا أخرى يجعل حججه عقلية كقوله:«..فادعوا بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدبون لكم وكهفكم الذي إليه تأوون، ومتى يصلحوا تصلحوا،ولا تشربوا قلوبكم غيظهم فيشتد لذلك غيظهم ويطول له حزنكم ولا تدركوا به حاجتكم..»

فقد بنى زياد دعوته الرعية إلى طاعة الساسة والدعاء لهم بالصلاح على أسس عقلية، فاستعمل أسلوب الشرط متى – يصلحوا- تصلحوا- أي أن صلاح الرعية مقرون بصلاح الأئمة،ثم ينهاهم عن الحقد وإلا تكون نتيجته الحزن وعدم بلوغ الحاجة، أي تحصيل حاصل.

4.1.2.3.اللغة المتفجرة القادرة على الإلمام بالأفكار مهما دقت

ما يميز نصوص خطابة معاوية السياسية منها ، انتقاؤه لأسلوب متميز في تهديد الرعية ناتج عن دهائه و حنكته السياسية، فقد يستعمل التهديد واللين معا في سبيل احتواء الرعية والسيطرة عليها وبهذا تتحقق الغاية من الخطبة ويظهر ذلك في قوله: « أما بعد فإني ما وليتها بمحبة علمتها منكم ولا مسرة بولايتي ولكني جادلتكم بسيفي هذا مجالدة » إلى حد هذا القول فمعاوية يهدد ويصرح بأنه أخذ الخلافة عنوة . ثم يقول: « ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة وأردتها على عمل عمر فنفرت من ذلك نفورا شديدا وأردتها على سنيات عثمان، فأبت علي فسلكت بها طريقا لي ولكم فيه منفعة مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة، فإن لم تجدوني خيركم، فإني خيرا لكم ولاية، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له>> فكان بعد التهديد اللين« فهذا الكلام أشبه بطبيعة معاوية و خلقه ، يخاشن ويلاين ويبدي اليقظة حينا ويتغافل حينا ويعاقب تارة ويصفح تارة ويغضب مرة ويحلم أخرى ومضى معاوية يحدثهم عن سياسة الحلم و الحزم.. وإنه لصفوح .. فهذا الأسلوب في سهولته وسماحته وإقناعه والتجائه إلى استمالة القلوب ومزج اللين بالشدة والحلم بالعزم والترغيب بالترهيب، صورة أدبية جلتها خطابته » [41] ج2 ص308-309.

وهذا الأسلوب كذلك نجده في النموذج الثاني لين و شدة « فاقبلونا بما فينا فإن ما وراءنا شر لكم ..»

« .. فالرتق خير من الفتق » وهذا الأسلوب يعكسه المثل القائل« شعرة معاوية » فهو محنك سياسيا يعرف متى يستعمل الشدة ومتى يستعمل اللين حتى يضبط الرعية جاعلا من ذلك خاصية لأسلوبه

الخطابي. وبين الشدة و اللين والترهيب والترغيب والحلم والغضب يعمد معاوية إلى توظيف الصور البيانية لمضاعفة المعنى والتبين عليه متوسطا في استعمالها أي دون المبالغة، لذلك يقع التهديد موقعه من النفس وكذا اللين، فهو يقول« .. جعلت ذلك له دبر أذني وتحت قدمي» وهذه كناية على أنه لا يكترث بما يقوله البعض من الرعية ولا يعاقب عليه فعكس بذلك سياسة اللين عنده وتأكدت في نفوس المستمعين، وكذلك استعمال الأمثال يؤكد أسلوبه المتنوع بين الترغيب والترهيب « فإن السيل إذا جاد أثرى وإذا قل أغنى » وهذه كناية عن كرم معاوية وسخائه، أما قوله « إني لست أحب أن تكونوا خلقا كخلق العراق يعيبون الشيء وهم فيه فهذا تشبيه مرسل مفصل عكس تهديدا وان كان غير صريح فأهل العراق اخذوا بقبضة من حديد لردعهم ، فهل يريد مستمعوا معاوية أن يكونوا كذلك ؟

هكذا رسم طريقا يوضح فيه سياسته. أما قوله « فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثالة القرض وقراضة الجملين ».

بهذه العبارة كنى معاوية عن التحقير من شأن الدنيا فجعل لرعية سبيلا بينا في النظر إلى الدنيا ومنها إلى الخلافة و الخليفة، لأن بداية الخطبة تفضي إلى هذه النتيجة « ..فو الله ما لهم بعدي إلا الذي يسوؤهم ..»

إن الشدة التي اشتهر بها زياد وانعكست في أسلوب تهديده ووعيده وتوبيخه، شدة اقتضتها رؤيتها لسياسية، وعلى اختلاف الأوضاع السياسية بين العصرين، الأموي والذي سبقه، فهناك من يشبه زيادا بعمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فقد قال الحسن: «أوعد عمر فعفى وأوعد زياد فابتلى»«تشبه زياد بعمر فأفرط» [14] ج1 ص52.حتى يصبح زياد مثلا يحتذى من قبل الحجاج فيما بعد.

«وقد يظهر الإفراط في التشبيه بعمر،من خلال عرض هذين الموقفين المتشابهين في الحدث المختلفين في النتيجة دخل أحد الأعراب على عمر وقال له: "والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا"فتجاوز عمر عن هذا التهديد، ورأى فيه شيئا من روح الشورى التي تشرك المسلمين جميعا،في إقامة الدولة والرقابة على شؤونها. أما زياد،فلم يكن يسمع أحد المسلمين يقول واجفا "أنبأنا الله بغير ما قلت"حتى انقض عليه، وأوشك أن يصعقه وأجابه بقوله: " إنا لا نبلغ فيكم المراد حتى نخوض الباطل فيكم خوضا"».[22] ص271.

وإن كان التهديد سمة غالبة على أسلوب الخطب الأموية فإن زيادا أحسن من يمثل ذلك، ويظهر هذا بوضوح في خطبته البتراء،حيث يبلغ به الوعيد إلى درجة إزالة الحدود بين البريء والمجرم،بين الظالم والمظلوم«حتى يسوي البصرة بالأرض هدما واحرقا».

وبهذا يحيط زياد السامعين بكل ما يجعلهم يرهبونه ويتأثرون بقوله. ولا يكتفي بذلك، فلما خشي أن يتوهموا أن تهديده ليس إلا وسيلة للإرهاب،وإنه لن يصدق فيه وينفذه،يذكرهم إذا:إن«كذبة الأمير بلقاء»أي أن الناس جميعا يعرفونها لأنه يعلن قوله عليهم كافة.ولكي يؤكد كلامه، نراه يحل الناس من طاعته إذا تحقق لهم فيما بعد،أنه لم يصدق فيما أوعدهم به، فيثور من جديد،فيذكر أنه سيغرق من

أغرق،ويحرق من أحرق... وإن لان زياد في أسلوبه فإنه سرعان ما يعود إلى أسلوب التهديد، وكأنه لا يريد من سياسة اللين أن تفسد الرعية فتنظر إليه على أنه ضعف.

لاحظ كيف يبدأ هذه الفقرة من خطبته البتراء وكيف ينهيها:«فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدبون لكم وكهفكم الذي إليه تأوون ومتى يصلحوا تصلحوا، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ولا تدركوا حاجتكم،مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرا لكم».

وإن بدت بداية الفقرة وعظية فإنها ختمت بالتهديد،بحيث صلاح الأئمة يعني صلاح الرعية،وزياد يرى أن صلاح الرعية لا يأتي إلا بأسلوب القوة و الردع والزجر ثم بالسيف والدليل على ذلك خاتمة الخطبة «وايم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي».

وأمثلة أسلوب التهديد والوعيد في خطابة زياد كثيرة.أخذنا منها ما قدمنا على سبيل المثال لا الحصر.معتمدا المؤثرات المختلفة التي دعمت وزينت خطابته كالبيان بحيث أظهر مهارة بيانية فائقة، فمن التشبيه قوله من خطبته البتراء:«..فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم..وكهفكم الذي إليه تأوون»فحتى يعي من شأن الولاة ويعظمه، ويضمن طاعة الرعية لهم شبههم بالكهف الذي يحمي اللاجئ إليه حتى يحتمي من الأمر الذي يتهدده فبهذا التشبيه ينتقل زياد بالرعية من العقل إلى الإحساس،فالمشبه به«الكهف»صورة ترتسم أمام السامع وهذه المشاهدة لها مالها من عظيم الأثر في تحريك النفس وتمكين المعنى من القلب.

مما زاد في التوضيح والتوكيد، وهما خاصيتان من خصائص التشبيه، لاحظ ما يقوله أبو هلال العسكري في هذا الشأن:« والتشبيه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيدا و لهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب و العجم عليه، ولم يستغن أحد منهم عنه وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كل جيل ما يستدل به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكل لسان..» [28] ص243-244.

وقوله:«لا يكونن لسانه شفرة تجري على أوداجه»فشبه اللسان بالشفرة،ولهذا التشبيه ما يبثه في النفس من خوف ورعب، وهو تشبيه بليغ من باب الوعظ و الزجر، وبين عبد القاهر الجرجاني مدى أثر التشبيه في التعبير عن المعاني المختلفة ونأخذ من كلامه ما يناسبنا في هذا الشاهد قوله:«..وإن كان واعظا كان أشفى للصدر، وأدعى للفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر..». [43] ص96.

ونجد زيادا يلجأ إلى ضرب من التصوير المثير، يريد أن يصل به إلى أعماق النفوس عقد صلة حتمية بين عملين،أحدهما يرغب فيه بعض الناس، والآخر يخشاه جميع الناس«فمن غرق قوما غرقناه،ومن حرق على قوم حرقناه،ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه،ومن نبش قبرا دفناه حيا فيه».

أما الاستعارة، فمن مثل قوله:«..من الأمور العظام ينبت فيها الصغير..» وهذه استعاره مكنية أخرى، شبه فيها الصغير بالنبات،بحيث وضح أن الفساد طال حتى الصغار الذين فتحوا أعينهم عليه وحذف المشبه به ويبقى ما يدل عليه«ينبت"وهذه لازمة. وقوله:«ولا تشربوا قلوبكم بغضهم..» وهذه استعارة

تمثيلية فشبهت قلوب الرعية في حال عصيانها بالأوعية التي تملأ وشبه غضب الخلفاء أو الساسة بما يملأ الأوعية، وهذا الأسلوب فيه تهديد خفي في صورة نصح.

ولا يخفي علينا أن الاستعارة صورة من صور التوسع والمجاز في الكلام، وهي من أوصاف الفصاحة والبلاغة العامة التي ترجع إلى المعنى . يقول القاضي الجرجاني:«فأما الاستعارة فهي أحد أعمدة الكلام، وعليها المعول في التوسع والتصرف، وبه يتوصل إلى تزيين اللفظ، وتحسين النظم و النثر»[44] ص329. أما الكناية فقد أخذت حصة الأسد من البيان في خطابة زياد«وهذا أمر لا يقوي عليه إلا كل بليغ متمرس بفن القول» [44] ص47.

يقول زياد في خطبته بعد أن استلم رسالة معاوية: «..كتب إلي يرعد ويبرق.. »فكنى عن وعيد وتهديد معاوية له بهذا القول، لما يحدثه الرعد والبرق من خوف من أثر السماع أو الرؤية وهذا تجسيم للمعنى، بحيث تظهره للعيان كما أنها كناية عن تهديد شديد اللهجة من قبل معاوية لزياد، وبذلك تكون قد فخمت المعنى بل ويرد على هذا التهديد بلهجة أشد منها في قوله:«..وقعقع لمن روي بين صواعق تهامة.. » وهذه كناية عن عدم اكتراثه بما يقوله معاوية، فهو أي زياد تربى ونشأ بتهامة المشهورة بكثرة الصواعق .وقوله كذلك من نفس الخطبة:«..لأرينه الكواكب نهارا، ولأسطعنه ماء الخردل دونه.. »فهل سيريه الكواكب نهارا-حقا-أم سيجعله يستنشق ماء الخردل فعلا؟كلا إنما في ذلك كناية عن أنه قادر على أن كل صعب مكروه.و من خطبته البتراء قوله:«..أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات»وهذه كناية عن انحراف الرعية عن جادة الطريق، وانشغالها بالدنيا وشهواتها وملذاتها.وقوله«..حتى انتهكوا حرم الإسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوسا في مكانس الريب..»كناية عن اقتراف الآثام وستر مقترفيها. وهكذا تتوالى الكنايات تضفى على المعنى حسنا وبهاء وقوة و توكيدا. «فزياد حشد بخطبته هذه المؤثرات المختلفة ، لفظية ومعنوية وأبان عن مهارة بيانية فائقة، وقدرة على التصرف في فنون القول، فعنايته بانتقاء الألفاظ الملائمة للمعاني، المعبرة عنها أصدق تعبير وأقواه تباري عنايته بجودة النسج و حسن التأليف و براعة الصياغة »[41] ج2 ص329. ونجد هذه الشهادة على لسان الدكتور طه حسين أيضا و هو يبدي إعجابه بالبتراء« وهذه الخطبة الرائعة تصور الجمال الفني الذي يتأتى من رصانة اللفظ و قربه، وأصابته لما أراد زياد من المعاني، وإثارته لما أراد من عواطف الفزع و الطمع ، والخوف والأمل » [45] ج2 ص 234-235.

وممن جمع بين شدة التهديد وعلو المنزلة البلاغية الحجاج بن يوسف « فخطبه تمثل أوج العنف الذي أدركته الخطابة الأموية وتتعدى التهديد والعنف إلى الشتيمة واللعنة » [22] ج2 ص377. وسبيله في ذلك بلاغتــه العاليـة « حتى ليخيل إلينا أن الحجاج جمع ذروة العنف إلى ذروة البلاغة » [34] ج7 ص210. إذ تتفجر عنده اللغة لتظهر المعنى بأدق معانيه و تؤكده لاحظ قوله و هو يصف أهل العراق إذ تتوالى النعوت (يأهل العراق يأهل الشقاق و النفاق و مساوئ الأخلاق ... ياعبيد العصا وأولاد الإماء ..

يا أبناء اللكيعة) وقد تتكرر الألفاظ والعبارات والمعاني تأكيدا و غلوا، فالحجاج يقبل على الألفاظ بصيغة الجموع الكثيرة فلا يشير إلى الغدر والكفر والنزوة وإنما إلى الغدرات والكفرات والنزوات ...« وهي ألفاظ تحوي لعظم المنكر في معناها المباشر و تضاعفه و تؤكد عليه في طبيعة صيغتها التي تشير إلى تعدد لا حد له » [22] ص282.لاحظ قوله:« يأهل العراق، والكفرات بعد الفجرات، والغدرات بعد الخترات والنزوات بعد النزوات» و إن كان هذا يدل على غضبه و توتره على أهل العراق فإنه يعكس في الحين ذاته بلاغته وفصاحته. ويقول د. أحمد محمد الحوفي في هذا « ولقد كان أكثر خطباء العصر تهويلاو تخييلا ، حتى إن قسوته في الحكم وغلظته على أهل الفتن لتتجلى في أقواله ، كما تتجلى في أفعاله، ووسيلته إلى هذا التهويل والتخييل ومقدرته البيانية ، وصوره التخيلية ، وتأثيره الخطابي » [37] ص556.

فخطبه تعكس ولعه بالبيان من تشبيه واستعارة و كناية وتمثيل، تأمل قوله: « و الله لأحزمنكم حزم السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل » [34] ج7 ص210. فشبه سياسته الحازمة للرعية بحزم السلمة وهو نوع من الشجر كثير الشوك ، تعصب أغصانه و تضرب بالعصا ليتساقط الورق فتأكله الماشية كما شبه ضربه أي عقابه للرعية بضرب غرائب الإبل ويقصد بغرائب الإبل، حينما تهرب أو تخالط غيرها أو ترد الماء لتشرب فتضرب، كذلك الرعية إذا حاولت عصيان الحجاج ، وهذا تشبيه بليغ، له من الأثر ماله في نفوس الناس المستمعة لهذه الخطبة . ولا يتوقف الحجاج عن بث الرعب بين الصفوف، بل يمضي متفننا في استعمال البيان كقوله : « إني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطفها و إني لصاحبها، و كأني أنظر إلى الدماء بين العمائم و اللحي » فهذه استعارة مكنية حيث شبه الرؤوس بالفاكهة إذا ما نضجت فوجب قطفها ، فنجده بذلك قد أحال الأفكار إلى مشاهد ترى بأم العين « فكان لهذه الخطبة و قع عظيم في نفوس السامعين ، حتى قيل أن أحدهم أخذ بعض الحصى ، وهم أن يرمي بها الحجاج ، فيما كان صامتا يترقب قدوم الناس إلى المسجد إلا أنه حين سمع خطبته ، راحت الحجارة تتساقط من يده خوفا ورعبا » [22] ص276.

و لاحظ التمثيل في قوله «وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحي ...إن الشيطان قد استنبطكم، فخالط اللحم و الدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف ثم أفضى إلى المخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشش، ثم باض و فرخ، فحشاكم نفاقا وشقاقا» فقوله « كأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحي » تصوير أو تمثيل مخيف يجعل المستمع يتيقن من تحقق هذه الصورة خاصة وأن الحجاج سبقها بقوله: «وإني لصاحبها وهو أسلوب توكيد. أما قوله إن الشيطـــان قد استنبطكم » فهي كناية عن نفاق أهل العراق. والحجاج يعتمد على الخـيال ليجسد المعاني ويشخصها وبذلك تأتي خطبه شديدة التأثير في المتلقيين « فإن الحجاج يحرص في خطبته على أن يظهر للسامعيـــن ما يقوله بشكل مـادي، ملمـــوس فيشاهـــدونها « الصور» بأعينهم، بقدر ما يفهمونها في أذانهم ..ولئن كانت هذه الحلل الصـورية تجعل

الخطبة أقرب إلى السامعين، فإنها تجعلها في الآن ذاته أقرب إلى الفهم، لأنها تبث نشوة بقدر ما تفجر انفعالا » [22] ص286.

لاحظ قوله من خطبته بالبصرة:«من أعياه داؤه، فعندي دواؤه، ومن استطال أجله فعليّ أن أعجّله، ومن ثقل عليه رأسه، وضعت عنه ثقله...».

فالحجاج جعل الكنايات تتابع، فأكد بها حزمه وشدة بطشه، وأثار بها الرعب في نفوس الناس، فكل هذه الكنايات تدور معانيها حول الموت الذي يكون على يد الحجاج.

والكلام عن الأسلوب عند الحجاج من حيث القوة والبيان وحضور البديهة، والفصاحة، كلام كثير:«فحضور البديهة، واستغلال المواقف الحرجة واستخدام حجج الخصم في قهره والقدرة البيانية على تصوير الباطل في صورة الحق،كلها مواهب مرشحة لقيادة الشعوب..وإذ كان الخاصة يتأثرون بمنطق الحجاج وسحر بيانه، وتنال أقواله من نفوسهم فما بالك بمن عداهم!» [41] ج2 ص342. فلقد دعم البيان أسلوب الترهيب عند الحجاج كما أدى دوره في عكس رضاه كتشبيه نفسه بالظليم وتشبيه أهل الشام بالجنة والرداء تارة و العدة والحذاء تارة أخرى«يأهل الشام إنما أنا لكم كالظليم .. يا أهل الشام أنتم الجنة والرداء وأنتم العدة والحذاء» فبهذين التشبيهين أظهر مزاجا مخالفا لما عرف به، فقد رضي الحجاج وقلما يرضى وسماحته هنا نالت أهل الشام فبين العلاقة بينه و بينهم بوصف نفسه القائم بمسوؤلية الوالي الذي لا يفرط في من أطاعه وفي التشبيه الثاني أظهر مكانة أهل الشام عنده.

أما أسلوب التهديد عند عبد الملك بن مروان يظهر من خلال كثرة أفعال الأمر وتتابعها كقوله: « فاستقيموا ... ودعوا ... و تجنبوا » ويعقبه أسلوب النهي من مثل قوله«...ولا تكلفونا » و هذا ما يجعل المعنى يستقر في أذهان السامعين لأنه لا مجال للخيار بعد الأمر و النهي ، بل و يظهر الخليفة إنذاره ووعيده و هو يستعمل القصـر من مثل قوله «و لا أظنكم تـزدادون بعد الموعظة إلا شرا، ولن نزداد بعد الأعذار إليكم و الحجة عليكم إلا عقوبة» فقصرت الصفة على الموصوف، فلا غير رعية الخليفة توصف بالشر ولا غير الخليفة يوصف بتطبيق العقوبـة. وهذا من باب تأكيد المعنى والمراد إيصاله إلى ذهـن المتلقي و التأثير فيه به.

5.1.2.3.منهجية في المعالجة و قوة في المنطق

قال مالك بن دينار:«ما رأيت أحدا أبين من الحجاج، إنه كان ليرقى المنبر، فيذكر إحسانه إلى أهل العراق، وصفحه عنهم، وإساءتهم إليه، حتى أقول في نفسي:إني لأحسبه صادقا، وإنيّ لأظنهم كاذبين» [14] ج1 ص155. وهذا يقودونا إلى الحديث عن اعتماد الحجاج على الحجة والجدلية.

فاستعماله للبينة الصادقة أو المغالطة الخفية من خصائص أسلوبه، كخطبته التي يبدو فيها واعظا إلى درجة أنه يتمنى من الله -سبحانه وتعالى- كفاية مؤونة الآخرة والأمر بطلب الدنيا ، في حين يظهر في خطب أخرى - كالنموذجين السابقين لهذه الخطبة – شديد سفك الدماء دون أن يتردد في ذلك ولو لثانية،

ويذكر أنه كان يقسو كثيرا ويعفو ويلين قليلا بعد موقعة دير الجماجم كان لا يبايع أحدا من الوافدين عليه من أهل الكوفة إلا قال له: أتشهد أنك قد كفرت؟ فإذا قال نعم، بايعه ، و إذا قال :لا ، قتله [34] ج8 ص25.

يقول د.محمد طاهر درويش:«فهذا مذهب من القول يعتمد على كسر شوكة الخصم باستلانة جانبه، والإقرار له ببعض ما يعتقده كالاعتراف لابن الزبير بأنه كان من أحبار هذه الأمة، ثم الهجوم عليه بعد ذلك بالحجة، والإلحاح عليه بالدليل حتى يستجيب ونحن ندرك أول ما ندرك قدرة الحجاج على الانتفاع بما قي يد خصمه من سلاح واستغلال ما عنده من حجة. فابن الزبير والكعبة لهما مكانتهما عند المسلمين، وعند أتباع ابن الزبير بخاصة،والعدوان عليهما عدوان على الحرم الكبار فأبطل الحجاج هذه الحجة، وهون شأن هذه الحرمة، حينما قاسها بآدم والجنة» [41] ج2 ص341.

يقول الحجاج:«ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة،حتى رغب في الخلافة ونازع فيها، وخلع طاعة الله، واستكن بحرم الله ولو كان شيء مانعا للعصاة لمنع آدم حرمة الجنة لأن الله تعالى خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأباحه جنته،فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته، وآدم أكرم عند الله من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة».[26] ص122. ويقول أحمد الحوفي في نفس الفكرة:«البراعة في تأييد وجهة نظره،بالتدليل الخطابي،الذي يكفل الإقناع،أو على الأقل يزعزع الرأي السابق،فكأنه يقيس هذا القياس:الطاعة السابقة والعزازة العظيمة لا تمنعان من عقوبة العاصي،بدليل أن الله عاقب آدم وابن الزبير كان طائعا وعزيزا لكنه عصى وإذن فعقوبته حق.أو هو يعمد إلى التمثيل المعروف في القياس المضمر»[37] ص556. وهو واضح بين حال ابن الزبير وحال آدم في البدء والنهاية.

ويبدو أن خطباء هذا العصـر أخذوا من المنطــق بحظ و افر وهذا راجع لانتشار المناظــرات والجدل ونشاط الترجمة مما أثرى رصيدا فكريا أدبيا جديدا يضاف إلى رصيد العرب في هذا الميدان. فهذا عبد الملك بن مروان يضرب المثل حتى يجتمع المستمعون كلهم حول المعطيات ليتفقوا فيما بعد في النتائج، وكان هذا من خلال استنتاجهم لما جاء في المثل عن طريق القياس«يضرب المثل ويقاس عليه » وتأكد في الخاتمة حينما أشار إلى سياسة عمر بن الخطاب –رضي الله عنه-و النتيجة التي أسفرت عنها، ثم إلى سياسة عثمان بن عفان – رضي الله عنه- والنتيجة التي أسفرت عنها .فالنتيجتان منطقيتان بالنسبة لطبيعة قريش لأنهم ممن يجب أن يؤخذوا بالقوة. كذلك ماذا يمكن أن ينتج عن تقتيل القريشيين سوى كرههم للخليفة وماذا يمكن أن ينتج عن قتلهم عثمان سوى كره الخليفة لهم .وهذا ما يطابق الخاتمة التي خلصت إليها أحداث المثل وعرضها عبد الملك في صيغتين مختلفتين : الأولى نثرية «إني لأعلم أن نفسك لا تطيب لي أبدا و أنت ترى قبر أخيك ، ونفسي لا تطيب لك أبدا وأنا أذكر هذه الشجة» والثانية شعرية :

فقالت أرى قبرا تراه مقابلي وضربة فأس فوق رأسي فاغرة.

فلا يمكن لصاحب عقل أن ينكر هذه النتيجة بعد المقدمة التي مهدت لها، وكل هذا يصب في قالب سياسي لنص الخطبة الأموية إنما جاء بحلل تكاد تكون جديدة عكست مدى تطور نص الخطبة في هذا العصر من حيث الشكل والمضمون .

ويعكس لنا هذه الميزة المتمثلة في اعتماد المنطق في نص خطبة أبي حمزة الشاري، فقد تحقق التدرج المنطقي المحكم في نص الخطيب ذلك بمسايرة السياق التاريخي الذي اعتمد عليه حتى يصل إلى الغاية من نص خطبته المتمثل في الدفاع عن جماعته وإذا ما أردنا تبيين فائدة هذا التدرج المنطقي في ذكر الوقائـــع التاريخية المتمثلة في سيرة من ذكرهم فإن هذه الفائدة تتلخص في معرفة اليقين بنقيضه لذا نجد في نص الخطبة صورتين الأولى مثل بها فساد من تولوا الخلافة بعد الخلفاء الراشديـــن فهم أناس لا يستحقون الخلافة ولا الاحترام أثناء ذكرهم وكان أبو حمزة يبعث في نفوس المستمعين شعورا بوجـوب الثورة عليهم أما الصورة النقيض فهي صورة أتباعه الذين وصفهم بالزهد بدلا من الفحش والطمع . والتقوى بـدلا من حب الدنيا والجاه... وبما قدم الخطيب ليصل إلى هذه النتيجة فانه يبين عللا وحججا لا ترد في حتمية الثـــورة التي قام بها هو وأتباعه .

6.1.2.3.الأساليب و الأدوات التي طوعها الخطباء لخدمة أهدافهم

أ - تنوع نص الخطبة بين الخبر والإنشاء: من مميزات أسلوب الخطبة عند معاوية، اعتماده على الأسلوب الخبري لاسيما في بداية خلافته التي بنيت على أساس هش، فحتى يجعله متينا اقتضى عليه الأمر تأكيد ما يذهب إليه في خطابته، فاستعمل المؤكدات الخبرية، والنموذج الأول من خطبه استهل كالتالي « فإني والله ما وليتها بمحبة منكم و لا مسرة بولايتي ولكني جادلتكم بسيفي هذا مجالدة ولقد رضت لكم ..» ففي هذه العبارة نجد المؤكدات الخبرية تتوالى كالتالي :إن ، القسم – والله- القصر بـ- لا ولكن - ، لام التوكيد ، قد التحقيق وقبلها المفعول المطلق –مجالدة- وكل هذه الأدوات تفيد تأكيد المعنى، مما يغرسه غرسا في نفوس المستمعين، بل ويتكرر القسم في نفس نص الخطبة بقوله« والله لا أحمل السيف على من لا سيف له» وكذلك " إن"التي غالبا ما نجدها في نصوص خطابته إذ يستهل بها النموذج الثاني يا أهل المدينة:إني لست أحب ..» كما استعمل التكرار على مستوى اللفظ « فإن لم تجدوني خيركم فإني خير لكم ولاية» و التكرار بالمرادف « مؤآكلة حسنة ومشاربة جميلة » وكذا قوله في خطبته الوعظية « وليس من ذلك في مراح ولا مغدي » وقوله « إياكم و الفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة » وهذا التكرار ليؤكد على عدم إثارة الفتنة.ويعتبر توظيف الأسلوب الخبري لغاية في نص الخطبة الأموية وشي في حلتها البلاغية الجميلة في هذا العصر اقتضاه توجهها السياسي.

وتكاد تكون هذه الخاصية الفنية عامة في نصوص الخطب الأموية.فهذا الحجاج يعتمد على الأسلوب الخبري ليجعل معاني كلامه أكثر وقعا في الأذهان وأشد تأثيرا في النفـــوس، بتوظيفه لوسائل التأكيد فليس ثمة جملة في معظم خطبه إلا وتراها قد اشتملت على أداة منها مثل أن واللآم في قوله« إني لا

أحمل الشر كله، وإني لأرى رؤوسا قد أينعت، إنكم كأهل قرية.. » ولعل نون التوكيد كانت أكثر الأدوات ترددا مثل قوله « لأقرعنكم ...لأعصبنكم ...لأضربّنكم» وهنالك أيضا «قد» التحقيقية: «قد لفها الليل يعطي..قد شمرت عن ساقيها ولقد فررت عن ذكاء» كما نجد التكرار مثل قوله: «أمرؤ وعظ نفسه بنفسه، أمرؤ تعاهد..، أمرؤ وعظ بغيره.. العجب العجب!!وما هو أعجب.. » فتكررت كلمة « أمرؤ » ثلاث مرات، وكلمة «العجب» مرتين وهذا توكيد لفظي.

كما وظفت صيغة التفضيل كقوله: « فوجدني أمرها عودا وأصلبها مكسرا» ولم يغفل الحجاج وهو يسعى لتأكيد وعيده وإنذاره وترهيبه الناس،إستعمال أسلوب القسم كقوله: «..وإني والله لرؤيتكم أكره.. » وقوله: «..أما والله لئن بقيت لكم لألحونكم لحو العود ولأؤدبنكم أدبا.. » وقوله: «..والله لا أقبل لكم عثرة ولا أقبل منكم عذرة..» كما يستعمل أداة الاستفتاح «ألا» مثل قوله :«ألا وإنكم قائلون بعدي مقالة.. » وقـــوله

« ألا وإني أعلم بشراركم من ؟.. ألا وإن الدنيا..ألا وإن الآخرة..ألا فاعلموا وأنمت..ألا وإن الخير..ألا وإن الشر كله...ألا وإن من يعمل..» فاستعمال «ألا» الاستفتاحية سبع مرات بغرض بلاغي وهو التأكيد على المعنى والتنبيه إليه. في حين تنوع أسلوب الخطبة عند زياد بين الخبر و الإنشاء حسب ما تدعيه الأغراض البلاغية ، فنجد الخبر في قوله:«والله لتكفني هؤلاء أو لأبدأن بكم والله لئن افلت منهم رجل لا تأخذون العام من عصائكم درهما» فحتى يقنع أهل البصرة بالثورة على الخـوارج و قتلهم ، استعمل القسـم «والله ، ونون التوكيـد الثقيلة «لأبد أن» بل و يكرر القسـم كـذلك «والله لئن افلت...» مما يبين شدة الصراع بين الأحزاب ، و كثرة الفتن التي جعلت الوالي الخطيب زياد يلجأ إلى هذا النوع من الأسلوب .

فيستعمل«إن» مضيفا لها القسم في قوله " ... وإني اقسم بالله لآخذن المولى بالولي...» مؤكدا كلامه أكثر بنون التوكيد الثقيلة «لآخذن» .

ومن مؤكدات الخبر في خطبه استعمال ضمير الفصل كقوله :«..من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه» و قوله:«...وقد رحلت عنكم و أنا أعرف صديقي من عدوي..».

وتتكرر هذه الخاصية الأسلوبية عند الحجاج أيضا ، كقوله في خطبته بالكوفة «إني لأرى رؤوسا..وإني لصاحبها وكأني أنظر..ما يقعقع لي بالسنان..فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة» ومن خطبته بعد معركة دير الجماجم قوله: «وأنا أرميكم بطرفي..إنما أنا لكم كالظليم..»

ويعرف بنفسه وهو يهدد ويشتم أهل العراق: «يا عبيد العصا وأولاد الإماء:أنا الحجاج بن يوسف إني والله لا أعد إلا وفيت ولا أخلق إلا فريت » مستعملا في ذلك الضمير المنفصل«أنا» ثم اسمه«الحجاج بن يوسف »ثم الضمير المستتر المتصل بالفعل«أعد» أو الضمير البارز المتصل بالفعل«فريت وفيت».وحتى الشعر الذي يستشهد به فإنه يسقطه على نفسه:

أنا ابـــن جلا وطلاع الثنـــايا متى أضع العمامة تعـــرفوني

وقولـــــه:

وكنت إذا قوم رموني رميتهم فهل أنا في ذايال همذان ظالم

«ولعل هذا راجع إلى اعتداده بنفسه، واعتزازه بقوته وبطشه، ورغبته في أن يزيد السامعين خوفا منه وتوقيا لعقابه.. وهو حينما يضيف أفعـاله إلى نفسه بضمير المتكلـم يضاعف الفرق منه ومن نكاله» [37] ص558. وتتوالى مؤكدات الخبر من مثل قول زياد : " فأما عبيد فإنما هو والد مبرور أو كافل مشكور" وتتمثل في «أما»التي أفادت التفصيل و التوكيد و تقوية الحكم . ومن الشواهد التي استعمل فيها "قد" لتوكيد مضمون الجملة قوله:« فإنا قد جربنا وجربنا و سسنا وساسنا...» وقوله: «..وقد شهدت الشهود بما بلغكم..» و قوله: «..و قد قال أمير المؤمنين ما بلغكم..»، و قوله: «..فقد نظرت في أمور الناس منذ قبل..».

أما الأسلوب الإنشائي، فنجده في أكثر من موضع ربما لأن النص المدروس هو نص خطبة، فإن أول صيغة للإنشاء نستعمل فيه صيغة النداء ، لمخاطبة المستمعين و لفت انتباههم من مثل قول زياد في أهل البصرة :«يا أهل البصرة: و الله لتكفني هؤلاء أو لابد أن بكم...» و إذا تأملنا ما جاء بعد النداء، لعرفنا أن هناك غرضا بلاغيا يحققه في هذه الخطبة و يتمثل في التحريض و الحث على مواجهة الخوارح وقتلهم .ويخصص زياد كلامه لمن يهمه أن يستجيبوا للغاية التي يرمي إليها من خلال خطبته مثل: «..أيها الناس ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم، وارغبوا إلى الله في دوام العافية.. » فزياد في هذه الخطبة يبين للناس أنه غير موقفه من معاوية ، فبعد أن هاجمه و شتمه في خطبة سابقة لها هو يقبل بعرض معاوية ليلحقه بأبيه-سفيان- فاستهل خطبته بنداء عام لم يستثن منه أحدا "أيها الناس" ثم أتبعه بما يعتبر موعظة .

وأسلوب النداء عند زياد يعكس نفسيته ففي حالة الغضب، يوجه خطابه مناديا أهل البصرة دون غيرهم ليخصهم بالأمر، وفي حالة الهدوء يخاطب الناس عامة وقد يستغني عن صيغة النداء نهائيا حينما يعلن عن غضبه إزاء شخص غير حاضر أمامه، فيتكلم إلى المستمعين دون مناداتهم كخطبته ضد معاوية لما أرسل إليه يتهدده ويطالبه بالأموال ،خاصة و أن زياد لم يدخل في طاعة معاوية كما فعل غيره، ففي هذه الخطبة لم يستعمل زياد النداء لا في بدايتها و لا في عرضها و لا في خاتمتها ، والسبب في ذلك أن زيادا لا يطلب أمرا ما من جمهوره إنما، يعلن فيها عن سياسته لمن يتجاوز حدوده معه حتى وإن كان الخليفة-معاوية- لاحظ قوله من الخطبة وهو يتهدد معاوية«..لأريته الكواكب نهارا ولأسعطته ماء الخردل..» فكيف إذا بسياسته مع الرعية؟!

لقد تأكد لنا من خلال تحديد اتجاهات الخطبة في العصر الأموي أنها اكتست بحلة سياسية وكانت هي الغالبة على طبيعة موضوعاتها، فأخضع الخطباء الخصائص الفنية لخدمة الغرض السياسي، وهذا ما

تجلى منذ بداية الدراسة الفنية وحتى نهايتها، لاحظ كيف وظف الخليفة عبد الملك بن مروان أسلوب النداء، فلفظ المنادى«معشر قريش »قديم الاستعمال، فقد أستعمل في نصوص الخطابة في العصر الجاهلي، لكن توظيفه -في نص الخطبة الأموية – لغاية وهذا أمر جديد باعتبار الخطبة إسلامية و الكلام فيها موجه إلى كافة الناس إلا أن الغرض من ذلك عند الخليفة الخطيب عبد الملك بن مروان هو ربط القريشيين دون سواهم بالأحداث المذكورة في نص الخطبة ونقصد "يوم الحرة " و"قتل عثمان" هذا جانب، وجانب أخر ذكره لمثل في الجاهلية، وأدرى الناس بأمثال الجاهلية هم قريش باعتبارهم من أشهر القبائل وأعظمها، فكأن الخليفة يعود بالرعية المخطابة إلى أصلها من ناحيتين :

أ- لشهرتها فهي تمثل العرب.

ب- ربطها بالعصر الجاهلي و لعل في هذا إيحاء لبقائها على بعض جهلها كجهل من ذكروا في المثل، وكذا من باب علم الخليفة بطبيعة التفكير عند قريش وبأغوار نفسياتهم لذلك ذكرهم بخلافة عمر وعثمان، ورد فعلهم تجاه الرجلين.

ومن خلال هذا نستنتج أن توظيف أسلوب النداء بصيغة - يا معشر قريش- التي تكررت في نص الخطبة ثلاث مرات، كان يخدم غرضا سياسيا وهو بسط سياسة الخليفة عبد الملك بن مروان على القريشيين رغم كرههم له وكرهه لهم.

ومن الأسلوب الإنشائي الطلبي الأمر الذي نجده عند زياد يتكرر لأغراض تقتضيها سياسته و يعرضها في خطبه كقوله:«أيها الناس ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم، وارغبوا إلى الله..».

ونلاحظ أن الأمر هنا خرج عن معناه الأصلي إلى غرض بلاغي يتمثل في النصح والإرشاد. ومن خطبته البتراء، قوله«..وإذا سمعتموها مني فاغتمزوها في و اعلموا أن عندي أمثالها..فكفوا عني أيديكم وألسنتكم..فمن كان منكم محسنا فليزدد" إحسانا ومن كان منكم مسيئا فلينزع عن إساءته.. فاستأنفوا أموركم وارعوا على أنفسكم..فاستوجبوا عدلنا و فيئنا بمنا صحتكم لنا واعلموا أني مهما قصرت... فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم..» فقوله«اغتمزوها"»أمر بغرض الإباحة، بحيث يبيح زياد للناس عد عيوبه رغم أنه الوالي الذي يخشى جانبه ثم يقول للناس «واعلموا أن عندي أمثالها» والغرض من «اعلموا»الخبر أي يخبرهم بأن له عيوبا أخرى أما الغـــرض من الأمر في قوله « فكفوا.. فليزدد، فلينزع » هو التهديد أو الوعيــد كما يسميها ابن فارس [38] ص77. و نلاحظ أن صيغة الأمر تتنوع بين فعل الأمر أو الفعل المضارع المقرون بلام الأمر«فليزدد، فلينزع» و في مواضع أخرى لا يتوانى زياد عن استعمال صيغة النهي الذي غالبا ما يستعمله بعد صيغة الأمـــر كقوله من خطبة البتـــراء..فكفـوا عني أيديكــمو ألسنتكم أكفف عنكم يدي ولساني و لا تظهروا على أحد منكم ريبته بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه.."، و قوله من نفس الخطبة « فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظهم و يطول حزنكم و لتدركوا به

حاجتكم..». ففي المثال الأول جاء النهي «لا تظهروا»بعد الأمر«فكفوا» بغرض التهديد الذي يظهر واضحا بقوله"إلا ضربت عنقه».

وفي المثال الثاني النهي«لا تشربوا» «لا تدركوا» بعد الأمر «فادعوا» وفي هذا النهي نلمس نوعا من النصح و الإرشاد بدلا من التهديد الذي سبق وذلك حتى تطمئن الرعية لسياسته.

أما في المثال الثالث فكان الغرض من النهي «لا يكوننّ"» الذي اقترن بنون التوكيد و جاء بعد الأمر التوكيد دائما بغرض التهديد و التحذير مغبة التحريض و معارضة سياسة زياد و إلا كان المصير هو القتل.

ويكثر في خطابة زياد استعمال الإنشاء الطلبي ذلك بتوظيف الاستفهام لأغراض بلاغية كقوله: يا أهل البصرة: «ما هذا الذي اشتملتم عليه ؟ إني أعطي الله عهدا لا يخرج على خارجي بعدها فأدع من حيه وقبيلته أحدا فاكفوني بوائقكم» فهو يتعجب من أهل البصرة و يستنكر ما قدموا عليه.وقوله وهو يخطب الناس بعد أن أتاه تهديد معاوية له:«..أفمن إشفاق عليّ تنذر وتعذر؟..كيف أرهبه وبيني وبينه إبن بنت رسول الله – صلى الله عليه وسلم- وابن عمه في مائة ألف من المهاجرين والأنصار؟" والغرض من الاستفهام الأول إنكار للتكذيب والغرض من الاستفهام الثاني الاستخفاف فلاشيء يمنع زيادا من معاوية غير حفيد رسول الله -صلى عليه وسلم- و كذلك قوله: «كأنكم لم تقرأوا كتاب الله و لم تسمعوا ما أعد من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته من الزمن السرمدي الذي لا يزول؟ تكونون كمن طرفت عينه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه من تركككم الضعيف يقهر و يؤخذ ما له و هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر و العدد غير قليل؟ ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن بولج الليل وغارة النهار..أليس كل امرئ منكم يذب عن سفيهه؟ ».

فالغرض من الاستفهام الذي تكرر في هذه الفقرة من الخطبة هو اللوم والتوبيخ لأهل البصرة فكأنهم لم يقرأوا كتاب الله ولم يسمعوا بما عنده من الثواب و العذاب، وهم على ألوان البغي والإثم والشر فيستمر في تأنيبهم لأنه لم يكن منهم نهاة يمنعون الغواة ، وقد قربوا القرابة وأغضوا الطرف على المختلس،وذب كل منهم على سفيهه،وحتى يبلغ غايته هاته استعمل الهمزة:«أتكونون،ألم يكن» و الغاية منها في هذا الموضع هو التصديق، أي أنكم يا أهل البصرة تصفون بهذه الصفات؟-نعم-أم-لا-.

والناظر في خطابة زياد يجد أن هذا الخطيب المفوه قد أوتى من البلاغة قدر كبير، بحيث قام إليه عبد الله بن الأهتم فقال:"«أشهد أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب»فقال زياد: «كذبت ذاك نبي الله داود صلوات الله عليه»[41] ج2 ص326، وكان هذا بعد أن فرغ من إلقاء خطبته البتراء.

ب -التقسيم في نص الخطابة: أحسن الخليفة معاوية توظيف التقسيم وأدى به الغرض المنشود من خطابته- وهو الإقناع- ويظهر في النموذج الثالث التقسيم كالآتي:« ..فالناس أربعـــة أصناف:منهم من لا

يمنعه من الفســـاد في الأرض إلا مهانة نفسه... ومنهم المصلت لسيفه ..ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة..ومنهم من أقعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه... » فاستــوفى بذلك أقسام الناس وجمع إلى صحة التقسيــم جمال التصوير في كل قسم ، و جعل لكل صنف ما يلائمه مثلا في قوله« منهم من أقعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه و انقطاع سببه فقصرت به الحال عن أمله، فتحلى باسم القناعة و تزين بلباس الزهادة وليس من ذلك في مراح ولامغدى» فهذا القسم من الناس الذي لم يطلب الملك بسبب قلة الناصرين لهم وضعف شأنهم ، فكان ما يلائمه القناعة والزهد فيما كان يطمع.

« ولصواب التقسيم شأنه في معيار البيان وهو الذي حمل عمر بن الخطاب –رضى الله عنه- على ترديد بيت زهير و الإعجاب به ..

فإن الحــق مقطعه ثـــــلاث

يمين أو نفار أو جـــــلاء » [41] ج2 ص309.

ويمكن القول أن التقسيم ينتج عن إمعان فكر وتأمل، وهذا ليس بالغريب عن معاوية وعما قلناه في اتخاذه للمذهب الكلامي المبني على العقل. ويظهر التقسيم في خطابة زياد من خلال قوله :«هذا أمر لم أشهد أوله ولا علم لي بآخره..» فجعل الأمر قسميــن أول وآخر فخص أول الأمــر بعدم المشاهدة له، وخص أخره بعدم العلم به وفي خطبته البتراء بقول«..كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد من ثواب الكريم لأهل طاعته،والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي..».

فما الأمر الذي أعده الله؟هو قسمان كل قسم خاص بفئة الأول: ثواب كريم لأهل الطاعة.

الثاني: عذاب أليم لأهل المعصيته.

وبهذه الخاصية البلاغية يكون زياد قد نجح في إبلاغ مقاصد خطبته في هذه النقطة، بحيث جعل الناس قسمين، وأوصل فكرته إلى أذهانهم،المتمثلة في الزجر والتنبيه لما يأتون به من أعمال.

كما نجد قوله:«..إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله: لين في غير ضعف وشدة في غير عنف»فبهذا التقسيم يكون زياد قد أوضح سياسته في معاملة الرعية، وهي سياسة لم يستطع أن يجاريه فيها أحد من الولاة بعده.

وما ذكرنا لحد الآن هو من باب تقسيم المعنى إلى اثنين لا ثالث لهما.أما تقسيمه إلى أربعة فهو كقوله:«..وقد أحدثتم أحداثا وقد أحدثنا لكل حدث عقوبة من غرق قوما غرقناه، ومن أحرق قوما أحرقناه، ومن نقب عن بيت نقبنا عن قلبه،ومن نبش قبرا دفناه فيه حيا..»

لاحظ كيف قسم زياد الحدث الذي أتى به المعتدون المنحرفون عن الطريق القويم، إلى أقسام وكل قسم خصه بما يناسبه من معني، وطبعا عند زياد من عقاب.وهذا وعيد بأسلوب بليغ يبث الرعب في قلب كل من تسول له نفسه بمخالفة الوالي زياد بن أبي سفيان .وأشرنا إلى التقسيم في نص الخطابة الأموية عند معاوية وعند زياد حتى نؤكد مدى اهتمام الخطيب الأموي باستعمال هذه الخاصية ،حرصا منه على

إيصال المعنى إلى ذهن المتلقي كاملا مفصلا لا يحتمل تأويلا غير الذي يهدف إليه الخطيب من خلال نص خطبته .

جـ - الإيجاز والإطناب والمساواة: لم نتكلم عن الإيجاز لأنه سمة غالبـــة على أسلوب الخطابة في العصـــر الأموي، إنما الإطناب والمساواة لهما وضعهما في نصوص الخطابة الأمـــوية ونصوص خطب معاوية توضح ذلك، فقوله:« ولقد رضت لكم نفسي على عمل بن أبي قحافة وأردتها على عمل عمر فنفرت من ذلك نفارا شديدا. وأردتها مثل سنيات عثمان، فأبت علي، فسلكت بها طريقا لي ولكم فيه منفعة ، مؤآكلة حسنة ومشاربة جميلة » فبعد أن تكلم عن الخلافة عند أبي بكر وعند عمر بن الخطاب تكلم عنها عنده، وكان من غرض الإطناب ذكر الخاص بعد العام . كما نجد الغرض منه التكرير لداع تمثل في التأكيد على عدم إثارة الفتنة حينما قال:« وإياكم و الفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة» فكان بإمكانه أن يتوقف عند قوله – إياكم والفتنة- ليحذر المستمعين منها، إنما كرر المعنى الذي ساقه في سبيل إظهار نتائجها – تفسد المعيشة، تكدر النعمة- كذا الأمر في قوله:« إني لست أحب أن تكونوا خلقا كخلق العراق: يعيبون الشيء وهم فيه، كل امرئ منهم شيعة نفسه» فأهل العراق معروفون بانشقاقهم ونفاقهم ولكن حتى يؤكد هذا المعنى أطنب وأضاف للعبارة ما أضاف، هذا ما تقتضيه الضرورة السياسية في حكم الرعية وجعلها تنتهج النهج الذي يريده لها الخليفة.ولو كانت الخطبة كلها إطناب لا ثقلت معانيها ولاستهجن أسلوبها، لذلك قابل الإطناب بالمساواة مما أكسب الأسلوب اعتدالا وبالتالي جمالا و يتمثل في قوله « لا ننتفع بما علمنا، ولا نسأل عما جهلنا ..»

« .. أفواههم ضامرة وقلوبهم قرحة، قد وعظوا حتى ملوا وقهروا حتى ذلوا، وقتلوا حتى قلوا..» فنجد الألفاظ قدر المعاني لا اقل لتكون إيجازا ولا أكثر لتصبح إطنابا.

وكذلك الشأن في خطابة زياد ،لاحظ قوله من البتراء:«..كأنكم لم تقرأوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته،والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السرمدي الذي لا يزول..» فبعد أن أظهر المعنى في صورة مجملة، بينه بعدها في صورة مفصلة،حتى يزيد المعنى تمكنا من النفس،وتقريرا في ذهن السامع ذلك قوله:«لم تقرأوا كتاب الله»كلام مجمل فصله بعد أن شوق إليه بقوله« ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته"كذلك قوله"الزمن السرمدي"أكده بقوله"الذي لا يزول» .

ومن نفس الخطبة نجد قوله«..أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه، من تركككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله، ما هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر.. » .

فالمعنى المبهم والمجمل قوله"أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه» ثم وضحه وفصله بكلامه الذي جاء بعده.

ومن أمثلة كلامه وقد عدل بين اللفظ والمعنى، قوله من خطبته البتراء: «..وإياي ودعوى الجاهلية، فاني لا أجد أحدا دعا بها إلا قطعت لسانه»، وقوله:«لقد أحدثتم أحداثا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة» فالمثال الأول، يظهر تحذير زياد من دعوى الجاهلية وما يقابلها من عقوبة وهي قطع اللسان.وفي المثال الثاني يذكر للمستمعين من أهل البصرة أنهم أحدثوا أحداثا، فجعل لكل حدث عقابا مقابلا له.

أما عند عبد الملك بن مـروان نجد الإطناب في قوله: « إن الحـرب صعبة مرة وإن السلـم أمن ومسرة» « وقد زبنتنا الحرب وزبناها، فعرفناها وألفناها، فنحن بنوها وهي أمنا» فبتعريف الحرب يعرف السلم، والعكس صحيح، ومعرفته للحرب وألفته إياها تغني في الحقيقة عن القول« فنحن بنوها وهي أمنا» إنما مفاد الأطناب في هذه المواضع هو التأكيد لا سيما أن الخطيب يريد التمهيد لأسلوب الوعيد و التهديد، و المتوعد و المهدد يجب أن يكون في مرتبة أعلى و يتميز بصفات تجعل المخاطب يتوخى الحذر منه و يهابه و لا يجرأ على أن يرفع رأسه أمامه مخافة غضبه فبطشه.

واستعمل الحجاج الإطناب ليؤكد معانيه ويحذر الرعية يقول د.إيليا الحاوي:«ولئن كان التكرار أسلوبا شائعا في الخطابة، فإنه يتخذ (عند الحجاج)طابعا فنيا خاصا إذ يمثل قدرة الإبداع في انفعالات الخطيب وقدرته الحدسية في استنباط الأساليب الداخلية لنقل ما في نفسه دون أن يفقده عنفه وحرارته وتوتره، ولو اكتفى الخطيب بإيراد قوله بابتسار واقتضاب، من دون أن يلتفت إلى الأجزاء والتفاصيل ويحفل بذكرها لكان أدى المعنى دون أن ينيط به قدرة على التأثير ودون أن يبث جميع ما يعتمل في نفسه»[22] ص281.

تمعّن في قول الحجاج:«..فما عسى أن يكون أيها الرجل وكلكم ذلك الرجل،كأني والله بكل حيّ منكم، وبكل رطب يابسا، ونقّل في ثياب أكفانه، إلى ثلاث أذرع طولا... » فهذا إطناب من باب ذكر العام بعد الخاص حيث تكلم الحجاج عن سليمان عليه السلام-بحيث وهبه الله ما سأله إلا الخلود،ثم عمم الحجاج كلامه عن اشتراك كل البشر في هذا المصير وهو الموت أما قوله: «..مالي أرى علماءكم يذهبون وجهّا لكم لا يتعلمون وشراركم لا يتوبون؟ مالي أراكم..؟» وهذا التكرار هو إطناب بتأكيد الإنذار فهو ينذر أهل البصرة مما هم فيه من اللامبالاة وعدم الاكتراث لحالهم في الدنيا.

ونفس الشيء في نفس الخطبة حينما يكرر أداة الاستفتاح«ألا» وقد مرّ بنا هذا. كما يستعمل الحجاج الإطناب بالتذييل كقوله:«..ولأؤدبنكم أدبا سوى هذا الأدب هذا أدب ابن سمية»فجملة«هذا أدب ابن سمية»جملة لا يمكن فهم معناها إلا بمعونة ما قبلها،بحيث أنها غير مستقلة بمعناها.

وقوله كذلك«...إنما أفسدكم ترقيق ولاتكم.ومن استرخى لببه ساء أدبه..»فمعنى الجملة الثانية«ومن استرخى لببه ساء أدبه» لا يمكن أن نفهم معناها المقصود إلا إذا عدنا إلى الجملة التي قبلها«إنما أفسدكم ترقيق ولاتكم»وهو يتحدث عن فساد الرعية وسوء أخلاقها وعصيانها.

ومن الأطناب بالاعتراض بغرض التنزيه قوله:«إنما مثلكم كما قال الله –عزّوجل- كمثل قرية كانت آمنة..»فجملة«عز وجل»معترضة في أثناء الكلام لغرض بلاغي هو المسارعة إلى تنزيه المولى جل شأنه فله العزة والجلال، وكما عمد الحجاج إلى المساواة كلما اقتضى منه الموقف الخطابي ذلك مثل قوله:«إن الله كفانا مؤونة الدنيا وأمرنا بطلب الآخرة..»ومن نفس الخطبة قوله: «إن العلم يوشك أن يرفع ورفعه ذهاب العلماء..»وقوله في أهل العراق:«إني لم أجد لكم داوء أدوى لدائكم من هذه المغازي والبعوث »، وقوله من خطبة أخرى«أيها الناس قد ادعوا هذه الأنفس فإنها اسأل إذا أعطيت، وامنع شيء إذا سئلت ».

إذا تأملنا هذه الأمثلة من خطبه وجدنا الألفاظ فيها بقدر المعاني، ولو حاولنا أن نزيد فيها لفظا جاءت الزيادة لغير فائدة،أو إسقاط لفظ لكان ذلك إخلالا بالمعنى.فالألفاظ في كل مثال مساوية للمعاني، وهذا ما جعل كلام الحجاج في هذا الموضع يتميز بخاصية بلاغية هي المساواة.

وكلامنا عن الإطناب والمساواة في نص الخطبة الأموية لا يعني سهو خطباء هذا العصر عن الإيجاز و فائدته البلاغية إنما هو الغالب في كلامهم، غير أن الإطناب و المساواة اقتضته حاجة الخطابة إليهما في مثل المواقف التي أشرنا إليها أثناء حديثنا عن توجهات الخطبة في هذا العصر. و من أمثلة الإيجاز في نص الخطبة الأموية ما ورد في خطب زياد بن أبي سفيان قوله في خطبته البتراء:«..كأن لم تسمعوا بآي القرآن، ولم تقرءوا كتاب الله» فهذا إيجاز قصر معان كثيرة عبر عنها بألفاظ قليلة، فالذي يستمع للقرآن ويقرؤه له من الفوائد ماله من ذكر الحلال والحرام والالتزام بذلك.

وقوله:«فرب مبتئس بقدومنا سيسر، ومسرور بقدومنا؟» فحذفت رب من «..مسرور بقدومنا..» ولو ذكرها زياد لفقد كلامه بلاغته التي كان عليها « فمن شرط المحـذوف في حكم البـلاغة أنه متى أظهر صار الكـلام إلى شيء غث لا يناسب ما كان عليـه من الطلاوة والحسن».[30] ص173.

ومن حذفه الجملة قوله: «وقد أحدثتم أحداث لم تكن»أي لم تكن موجودة قبلكم.

وكذلك الإيجاز عند الحجاج أدى دوره البلاغي لا سيما تحقيق الغاية من الخطبة.

مثل قوله:«..فكان رابعا من الولاة المهديين الراشدين..» فحذف اسم كان إيجازا وتفاديا للتكرار الذي يثقل المعنى ويجعل الأسلوب ركيكا، وقوله:«..ولقد قال العبد الصالح سليمان بن داوود:رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي» فكان ذلك ثم اضمحل فكان لم يكن.

«أما الذين يعلمون فسيعلمون ما أقول» فقوله «فكان ذلك»إيجاز لما سبق وعدم تكريره، بمعنى أنه تحقق لسليمان غفران الله له ووهبه الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده فأوجز الحجاج هذا بلفظ«ذلك»

وقوله«أما الذين يعلمون فسيعلمون ما أقول»أي حديثه«يا أيها الرجل، وكلكم ذلك الرجل:كأني بكل حي ميتا وبكل رطب يابسا،وقد نقل كل امرئ بثياب طهره إلى حفرته فحد له في الأرض ثلاث أذرع طولا في ذراعين عرضا فأكلت الأرض لحمه ومصت من صديده ودمه وانقلب الحبيبان يقتسم أحدهما

صاحبه:حبيبه من ولده يقتسم حبيبه من ماله »، فهو لم يسترسل في كلامه بعد ذلك واعظا إنما أوجز الوعظ بقوله«أما الذين يعلمون فسيعلمون ما أقول.»

وتعكس لنا خطابة عبد الملك بن مروان الإيجاز بصورة مختلفة فلقد أوجز الخطيب بأبيات شعر أغنت عن الكثير من الكلام، وما تمثل بهذه الأبيات إلا لأنها تعبر بدقة عما في نفسه من شدة مراس وحدة طبع و استعداد لقتل كل من تسول له نفسه بالعصيان، فكما عكست نفسية الخطيب فقد عكست مآل الرعية العاصية غير العاملة بأوامر ونواهي الخليفة.

ولعل الاستشهاد أو التمثيل بالشعـر يعتبر سمة غالبـــة في أسلوب خطابة عبد المـلك بن مروان وهذا ما يضاف إلى رصيد تطور نص الخطابة في هذا العصر، خاصة وأن الخليفة كان يحفظ الكثير من الأشعار، مما يحدث في نفس المستمعين أثرا عميقا، ويزيد الكلام بهجة، و يمنحه قوة، ويحمل النفوس على الاقتناع بما يرمي إليه الخطيب.

د- الفصل والوصل: إن امتلاك الخطيب معاوية لهذه الخاصية الفنية تجعله خطيبا بليغا، واتصاف نصوص الخطب الأموية بها تجمل حلتها البلاغية التي تتصف بالجدة مقارنة مع ما كانت عليه قبل هذا. فالوصل و الفصل في الكلام من أسرار البلاغة « ..أو بعبارة أخرى العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها، و الإتيان بها منثورة نستأنف واحدة منها بعد الأخرى وإدراك مواطن الوصل والفصل في الكلام لا تتأتى إلا للعرب الخلص ..كما لا تتأتى إلا لمن طبعوا على البلاغة و أوتوا حظا من المعرفة في ذوق الكلام » [30] ص155.

من بلاغة معاوية بن أبي سفيان معرفته بمواضع الفصل و الوصل ، ومن خلال النماذج المقدمة نجد قوله« فسلكت بها طريقا لي و لكم فيه منفعة، مؤاكلة حسنة و مشاربة جميلة» فبين جملة – سلكت بها طريقا لي و لكم فيه منفعة – وجملة – مِؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة – كمال الاتصال، فالجملة الثانية بدل بعض من كل من الجملة الأولى، يعني أن المؤاكلة الحسنة و المشاربة الجميلة بعض من كل ما توصف به الطريق الذي سلكه معاوية و الذي فيه منفعة بالنسبة له و بالنسبة لهم . وقوله :« إني لست أحب أن تكونوا خلقا كخلق العراق يعيبون الشيء و هم فيه » فالجملة الثانية – يعيبون الشيء وهم فيه – جاءت بيانا للجملة الأولى – خلقا كخلق العراق- فحدد المقصود من الجملة الأولى بالجملة الثانية.

أما من مواضع الفصل قوله :« قد أصبحنا في دهر عنود و زمن شديد .. » فالجملة الأولى – في دهر عنود- لها موضع من الإعراب وهو خبر أصبح، ثم اشتركت معها الجملة الثانية – وزمن شديد – في هذا الحكم الإعرابي فهي خبر ثان لأصبح فتعين عطف الثانية على الأولى بواو العطف. وقوله:« بقي رجال غض أبصارهم ذكر المرجع وأراق دموعهم خوف المحشر» فقد اتفقت الجملتان –غض أبصارهم ذكر المرجع- و – أراق دموعهم خوف المحشر- اتفقتا خبرا مع تناسبهما في المعنى، فوجب الوصل بينهما، ونفس الشيء بالنسبة لقوله:« ...قد وعظوا حتى ملوا، وقهروا حتى ذلوا» ومن اتفاق الجملتين إنشاء قوله:

«..فلتكن الدنيا في عيونكم أصغر من حثالة القرض .. واتعظوا بمن كان قبلكم» فالجملة الأولى - فلتكن الدنيا..-إنشائية بصغة الأمر عطفت عليها الجملة – واتعظوا – وهي كذلك إنشائية بصغة الأمر.

وصف زياد بن أبيه بأنه أوتى فصل الخطاب،وذلك أنه بليغ، - وهناك من يجعل الفصل والوصل حدا للبلاغة-، وهكذا نجد زيادا، فمن الأمثلة التي جاءت في خطبه بها خاصية الفصل، قوله من خطبته البتراء«..والضلالة العمياء والفجر الموقد لأهله النار، الباقي عليهم سعيرها..»فكانت الجملة الثانية"الباقي عليهم سعيرها«توكيدا للجملة الأولى"الموقد لأهله النار»إذ بينهما اتحاد تام في المعنى الذي مفاده أن الفجور يلقي بصاحبه في النار التي لا يخرج منها أبدا وأما قوله من نفس الخطبة«ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا به، من تركم هذه المواخير المنصوبة والضعيفة...»

فالجملة الثانية«من تركم هذه.."جاءت لإيضاح إبهام الجملة الأولى«..أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا به»فلو أكتفي زياد بكلامه عند الجملة الأولى،لطرح السؤال ما الحدث الذي أحدثه أهل البصرة ولم يسبقوا به؟ وقوله دائما من نفس الخطبة:«..هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله، لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف». فالجملة الثانية « لين في غير ضعف و شدة في غير عنف"جاءت بدلا بعض من كل من الجملة الأولى«هذا الأمر..»إذ اللين في غير ضعف والشدة في غير عنف بعض من الأمر الصالح.

ونلاحظ أن الجملة الثانية في كل مثال من الأمثلة الثلاثة السابقة مفصولة عن الجملة الأولى، ولا سبب لهذا الفصل سوى ما بينهما من تمام وكمال الاتحاد فبين الجملتين كمال الاتصال.

ومن أسلوب الوصل في خطب زياد قوله في البتراء«إن الجهالة الجهلاء،والضلالة العمياء..فعطفت الجملة الثانية«والضلالة العمياء..»على الجملة الأولى «إن الجهالة الجهلاء»حيث اتّفقتا خبرا وتناسبتا في المعنى فوجب الوصل بينهما وقوله«أيها الناس،إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة..» فالجملتان اشتركتا في حكم إعرابي واحد وهو وقوعهما خبرا لأصبح ووصلت الجملة الثانية«وعنكم ذاذة» بالجملة الأولى«لكم ساسة»عن طريق حرف العطف«الواو».

أما الوصل باختلاف الجملتين خبرا وإنشاء من مثل قوله"فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ..، وحتى تصلحوا يصلحوا"فالجملة الأولى إنشائية بصيغة الأمر والثانية خبرية فالعطف بينهما يوهم بخلاف المقصود، فكأن الأئمة أي الخلفاء فاسدون وهذا وهم غير مقصود وإنما المقصود صلاح الرعية أي انقيادها للخلفاء يجعل الخلفاء صالحين في حالة الرضى عنها.

هـ- حسن الوقع في نص الخطبة : من خلال هذا العنوان يتبادر للأذهان أن الحديث يخص السجع، والواقع أن معاوية« قد أنف من الأسجاح أنفة ظاهرة، فلم يمل إليها ولم يعتمدها كأن زخرف الكلام لا يليق بهمة القوي الجاد في غايته » [22] ص239.

والنماذج المقدمة تأكد ذلك بل حتى الوصية التي تعتمد على هذا المحسن البديعي لتستقر في ذهن الموصى، فإنها عند معاوية تخلت عنه و نأتي بمثال من وصيته لابنه يزيد« أنظر أهل الحجاز فإنهم أصلك وعترتك، فمن أتاك منهم فأكرمه ومن قعد عنك فتعهده ن وانظر إلى أهل العراق، فإن سألوك عزل عامل لهم في كل يوم فأعزله عنهم، فإن عزل عامل أهون عليك من سل مائة ألف سيف، ثم لا تدري علام أنت عليه منهم، فأنظر أهل الشام فاجعلهم الشعار دون الدثار فإن رابك من عدوك ريب فارمهم بهم .. » [19] ج1 ص298. فما عدا قوله – أصلك وعترتك ثم الشعار والديثار- لا نجد سجعا في الوصية - كسابقتها في العصر الجاهلي-، فما بالك بنصوص خطب معاوية الأخرى. فكان الإيقاع الأكثر تأثيرا يتمثل في قصر الجمل حتى لا يثقل نص الخطبة بما يحمل من معانى على السامع وبالتالي يقل استيعابه لها و لغاياتها، ففي النموذج الأول تتلاحق الجمل كقوله:« أما بعد فإني والله ما وليتها بمحبة منكم ولا مسرة بولايتي، ولكن جالدتكم بسيفي هذا مجالدة ،... فنفرت من ذلك نفارا شديدا ، وأردتها على سنيات عثمان ، فأبت علي ، فسلكت بها طريقا لي و لكم فيه منفعة ، مؤاكلة حسنة و مشاربة جميلة.. » وكذلك الحال في النموذج الثاني« إني لست أحب أن تكونوا خلقا كخلق العراق، يعيبون الشيء وهم فيه كل امرئ منهم شيعة نفسه ، فاقبلونا بما فينا، فإن ما وراءنا شر لكم» ونشعر بهذا الوقع أكثر في النموذج الثالث من خطبته الوعظية « ...يعد فيه المحسن مسيئا ، ويزداد الظالم فيه عتوا، لا ننتفع بما علمناه ، ولا نسأل عما جهلناه، ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا فالناس على أربعة أصناف... » وعموما فإن خطابة معاوية بن أبي سفيان، أول خليفة أموي تتبعت نسج الخطابة الإسلامية مع وشي جديد اقتضاه العصر بما حمل من أحداث ومواقف وسبل لم يعهدها العصر الإسلامي، وهذا الجديد يصب في ميدان السياسة خاصة.

وخطب الحجاج تتسم بقصر الجمل، حتى أن الكثير من جملها مركبة من كلمتين أو ثلاث، كخطبته بالبصرة وبالكوفة وبعد وقعة دير الجماجم ،كقوله في أهل الكوفة والشام:«إن الفتنة تلقح بالنجوى وتنتج الشكوى، وتحصد بالسيف.أما والله إن أبغضتموني لا تضروني وإن أحببتموني لا تنفعوني، وما أنا مستوحش لعداوتكم، ولا المستريح إلى مودتكم»[39] ج1 ص115.

ولا نجهل أن هذه الميزة في الخطبة لها من الوقع ما لها في نفوس المستمعين، وهذه غاية الخطيب البليغة. لم يمل الخطباء إلى استعمال السجع كميلهم للأسلوب المرسل، كالخطيب عبد الملك بن مـــروان الذي استعمل السجع في مقدمة خطبته:«الحرب صعبة مرة، والسلم أمن ومسرة...وزبناها فعرفناها وألفناها » ونشعر أثناء قراءة النص أن هذا السجع غير مستكره لا تصنع فيه ، وقد أضفى على فواصل الجمل نغما موسيقيا وعلى المعنى أثرا عميقا. إذ تعلق العبارة بذهن السامع و يستقر المعنى عنده المتمثل في تفاخر الخليفة بإدراكه للحرب. أما باقي جمل نص الخطبة فهي مرسلة ،نلحظ فيها تكرار المعاني بغرض التأكيد كقوله:«فاستقيموا على سبل الهدى، ودعوا الأهواء المردية، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين » فكل جملة تحمل نفس المعنى للجملة الأخرى وتجتمع حول تجنب إثارة الفتن.

و- الاستشهاد بالقرآن الكريم والشعر والقصص: ذكرنا فيما سبق أن معاوية بن أبي سفيان لم يدعم خطبه بالقرآن الكريم وقدمنا تعليل ذلك.

ولا يعني هذا عدم اعتماد الخطباء في العصر الأموي على تقديم الحجج من نص القرآن الكريم، فهذا الحجاج في سبيل توكيد بيانه وتعميقه، نجده يقتبس من القرآن الكريم، بل ويكثر من ذلك، فهو اقتباس ينبئ عن حفظ وفهم عميق وتذوق دقيق، ولا عجب فقد كان يعلم القرآن فهو في خطبته في أهل الكوفة والشام يقول: [39] ج1 ص77:«زعمتم أني ساحر>>، وفي خطبة له بالبصرة يقول: «ألا وإن الشر كله بحذافيره في النار>>.

إذا ما تأملنا استشهاده بالقرآن، فنجده قد جعل لكل مقام مقال، لاحظ كيف أنه أتى بالحكم على أن الشر كله في النار،ثم استشهد بما يوافق هذا المعنى بأدق منه تعبيرا وهو الآية الكريمة«من يعمل مثقال ذرة...». فبعد اعتماده على الحجة الدامغة فإنه يعتمد في مواضع أخرى على ما لا يرد جملة ولا تفصيلا ألا وهو القرآن الكريم فيزداد أسلوبه بيانا ودقة.

كذلك نجد أبا حمزة الشاري - وهو من الخوارج كما نعلم- قد بدا متأثرا بالقران الكريم تأثرا واضحا من خلال نص خطبته كقوله: << ... ولم يؤنس رشده>> فقد استشهد بهده الآية وان كانت في حق اليتامى إنما الاستشهاد كان من باب الرشد وعدمه أي أن يزيد بن عبد الملك لم يكن راشدا حتى يؤتى الخلافة، وكقوله طوبى لهم وحسن مآب. من بين الخطباء الذين يستشهدون بالشعر الحجاج، وهو العربي الصميم،وهذا واضح في خطبته بالكوفة، فنجده قد تخلى عن تلك المقدمة الدينية التي عهدناها في سنة الخطابة منذ عهد النبي – صلى الله عليه وسلم-وبدأ خطبته بأبيات شعر:

- أنا ابن جلا وطلاّع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني
- صليب العود من سفلي نزار كنصل السيف وضاح الجبين

الحجاج يدرك أغوار النفس من ناحية ومن ناحية أخرى له حنكة سياسة فقد عرف طبيعة الرعية في العراق لذاك اختار الأسلوب المناسب لمخاطبتهم وحكمهم«لقد ابتدأ الحجاج بتعريف نفسه تعريفا نفسيا أكثر منه تعريف نسب»[22] ص284. ويقول د.حمد طاهر درويش:«وواضح كل الوضوح أن الحجاج كان يعد هذه الخطبة الضربة الأولى في أول جولة مع أهل العراق، وأن أثارها ستحدد طريقه وتكشف له موقفه..». [41] ج2 ص347.

كما يتمثل بالشعر في النموذج الذي أدرجناه بقول: «..وإنّ مثلي ومثلكم قول ابن براقة الهمذاني:

وكنت إذا قـــوم رموني رميتهم فهل أنا في ذا يا لهمذان ظال
متى تجمع القلب الذكي وصارما وأنفا حميّا تجتنبك المظـــالم

وكون الحجاج يكثر من الاستشهاد بالشعر والتمثل به في خطبه، فهذا لا يدعو للعجب«لأن الرجل كان شاعر النفس، ولعله لو لا الحكم والسياسة والحرب لكان من الشعراء، ثم إنه كان كلفا بسماع الشعر

وروايته ولهذا قرب إليه الشعراء، وشجعهم على مدحه، وكان ينقد ما يمدحونه به ومعروف أنه لما قدم البصرة قرب إليه جريرا،وأعانه على الفرزدق.. »[37] ص555-556.

أما الاستشهاد بالتمثيل والقصص فنجده عند عبد الملك بن مروان كمثال فإن نص خطبة الخليفة قام كله على التمثيل و جرى في صورة قصة ، واعتمد في ذلك على مثل ينتهي إليه ويتركز عنده الغرض منه. ولاستخدام الأمثال شأنه البلاغي في الخطابة ومكانه من الجلاء والتأثير والإقناع التي هي هدفها، فبعرض هذه الصورة التمثيلية يكون الخطيب قد طابق بينها و بين ما عنده، وعند قريش من الثأر القديم، الذي لا صفاء معه و لا محبة إزاءه، فجلت المطابقة وجه القضية وأبلغت خاصة وقد تمثل ضمن هذه القصة ببيت من الشعر تمثل في قول النابغة:

فقالـــت أرى قبرا تراه مقابلي و ضربة فأس فوق رأس فاغرة

ولعل انتقال الخطيب من النثر المرسل إلى الاستشهاد ببيت شعر بما يحمل من خاصيتي الوزن والقافية، مما يحدث انفعالا في نفس المستمع من خلال وقعه الموسيقي فيزداد المعنى تأكيدا في ذهن المتلقي .

ي- أثر توظيف بعض الحروف في نص الخطابة: من خصائص الخطابة الأموية الإكثار من استعمال حروف الجر، ولا تخفى علينا الفائدة من وراء ذلك، وهي ضبط المعنى وتفصيله وهذه الخاصية- نعني ضبط المعنى-من أهداف زياد بن أبيه التي يرمي إلى تحقيقها من وراء خطابته، بحيث لا يترك للسامع خيارا بين معنيين، إنما هو معنى واحد.من مثل قوله في البتراء:«فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل والإنصاف فيما ولينا..»

فحتى يوضح المعنى ويفصله للرعية من أن طاعته واجبة عليهم فيما أحب هو لا فيما يحب غيره، وبعد ذلك يكون عادلا منصفا في ولايته.فاستعمل- اللام- مرتين، و-على- مرتين، و- في- مرتين،فأفاد استعمال اللام الاختصاص حيث خص نفسه بالاستماع والطاعة من قبل الرعية،ويخص العدل والإنصاف به، وأفاد استعمال –على-الاستعلاء ولأمر هنا معنوي بحيث زياد أعلى مرتبة من الناس بقوله-عليكم-أما قوله علينا-فتفيد الوقوع والقيام. وأفادت-في-الظرفية، أي تتوجب طاعة الرعية لزياد في ظرف حدده هو ونعني- فيما يحب-. وحدد العدل والإنصاف فيما يخص ولايته.

ومن قوله في نفس الخطبة «إنا أصبحنا لكم سادة،وعنكم ذادة، ونسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ونذود عنكم بفئ الله الذي خولنا» اللام وقد أشرنا إلى فائدة استعمالها، أما-الباء- و-عن- فقد وظّفت كل منهما مرتين في هذا المثال فأخذت الباء معنى الاستعانة سواء في سياسة زياد مستعينا بالقوة الإلهية، أو في إغداقه للأموال على الناس مستعينا بمال الغنائم والخراج. وأخذت -عن- معنى البعد والمجاوزة، أي إبعاد الضرر الذي قد يلم بالرعية.

ومن الحروف التي نجدها في خطابة زياد دون سواها هو حرف الردع- كلا- كقوله وهو يرد على معاوية: «..فمن إشفاق علي تنذر وتعذر؟كلا، ولكن ذهب إلى غير مذهب..» فكلا تفيد الردع والزجر

وقد يضاف لذلك التنبيه ويبدو أن زيادا في حالة غضب لا مثيل لها،لذلك لا نتوقع منه أنه ينبه معاوية فحسب، بل نراه يردعه ويزجره عما كتب إليه وعن الأسلوب الذي استعمله معه.

أما في خطبته بعد أن أتاه عرض معاوية يلحقه بأبيه ،فيبدو هادئا لحد ما، حتى يمهد للرعية هذا الأمر من خلال خطبته:«..ولقد أفنى هذان اليومان:يوم الجمل وصفين-ما ينيف عن مائة ألف، كلهم يزعم أنه طالب حق..فإن كان الأمر هكذا فالقاتل والمقتول في الجنة.كلا ليس كذلك ولكن اشكل الأمر والتبس على القوم..» تغيرت نبرة زياد في هذه الخطبة إذا ما قورنت بسابقتها، فأفاد حرف كلا التنبيه، أي أنكر القول« القاتل والمقتول في الجنة» ونبه بهذا الرعية لخطر الاقتتال بسبب المطالبة بالحق.

كما تميزت خطابة الحجاج بالتفصيل والدقة وهذا من أثر استعمال حروف الجر، لاحظ قوله في خطبته بعد أن أبل من مرضه.«..وما رضي الله الخلود لأحد من خلقه في الدنيا إلا لأهونهم عليه إبليس» [40] ج2 ص169. فتتابعت حروف الجر: اللام- ومن- و- في- ليفصل المعني المتعلق بحقيقة الموت وإنكار قضية الخلود: ومن نفس الخطبة قوله:« وقد نقل كل امرئ بثياب طهره إلى حفرته فخد له في الأرض ثلاثة أذرع طولا في ذراعين عرضا فأكلت الأرض لحمه ومصت من صديده..» فحروف الجر: «الباء»«إلى»« اللام»« في» وكررت « في» مرتين نجدها قد أحاطت بالمعنى فضبطته حتى ارتسمت صورة الفناء فالقبر فالالتحام مع الأرض دون أن تنقصها جزئية ما.

ومن خطبته بعد معركة دير الجماجم قوله: « وسعيتم بالغدر واستجمعتم للكفر..» فحرفا الجر اللام والباء وضحا المعنى، وجاء حرف الجر «اللام» للتدليل على معنى التجاوز والوصول وعبر عن عصيان وتمرد الرعية وكرهها للحجاج ونبذها أوامره، عبر عن كل ذلك بإيجاز.

2.2.3.الاستعانة بمختلف العلوم الدينية والدنيوية لتحقيق الأمر الإيجابي في المتلقي مهما كان مستواه:

اقتضت الخطابة مراعاة المستويات المختلفة للمتلقي، فقد يستوعب ويقتنع بما جاء في الخطبة إذا ما وافق ذلك المكتسبات القبلية الموجودة عنده عقلية كانت أم دينية، و نعني بذلك أن الخطابة في العصر الأموي صارت معرضا للآراء والمذاهب السياسية ، فكل حزب في هذا العصر صاحب مبدأ سياسي، أو عقيدة دينية، فيدعو في سبيل تحقيق ذلك و يناهض الآراء والمبادئ والعقائد الأخرى، كالخوارج والزوبيرين والشيعة والأمويين ومن الطوائف المعتزلة كفرقة دينية في البداية لتجد نفسها تخوض غمار السياسة فيما بعد، فصارت الخطبة تعج بالحجج على اختلاف أسسها التي تكثر في المحاورات والمناظرات والمجادلات.

ولقد رأينا نموذجا من الخطب عند الخوارج – أبو حمزة الشاري- حيث يظهر اعتماده في الخطابة على مدى إيمانهم بعقيدتهم التي يدعون إليها و يزكون أبناءها، مقابل ذلك يذمون بني أمية واصفينهم بأبشع الأوصاف .

كما اعتمد الحجاج بن يوسف في أكثر من موقف في خطبه على القرآن الكريم كدليل لا يدفع.

وإذا كان اهتمام المعتزلة هو الكلام والتوحيد والدفاع عن الدين والوقوف في وجه أعدائه بالحجة والدليل في بادئ الأمر، إلا أنها سرعان ما تكلمت في الإمامة و شرط الإمام. لكن المهم أن قوام هذه الطائفة هو العقل« فهي مدرسة فكرية إسلامية أخذت صبغة خاصة وقامت بدور رئيسي في توجيه الحركات العقلية الإسلامية وجهة جديدة وأن ظهورها كان رد فعل للتيارات الفكرية، والأحداث السياسية، والتقلبات الدينية التي كان يزخر بها المجتمع الإسلامي في ذلك الحين » [41] ج2 ص ص70-71.فلقد رأينا كيف أن معاوية بن أبي سفيان لم يعتمد في خطابته على وسائل إقناع دينية كالقرآن الكريم و الحديث الشريف، إنما كانت وسائل إقناع عقلية، ولعلى هذا راجع إلى مبدأ المعتزلة الذي أشرنا إليه إضافة إلى المناظرات والمجادلات والمحاورات التي كانت تقوم على نفس الدعامة ألا وهي العقل، وبالتالي يؤثر الخطيب بذلك في المتلقي حتى يحقق الغاية منخطبته. وهكذا يظهر التأثر بهذه الطائفة «فإذا قلنا إن الخطابة العربية تطورت تطورا واسعا بتأثير عقول هؤلاء المتكلمين لم نكن مغالين، إذ دعمت فيها الأدلة ودقت المعاني واستتمت شعبا كثيرة من خفياتها ودفائنها » [42] ص443. كما يتبين تأثر خطباء العصر الأموي في خطابتهم بما ترجم من فلسفة الحضارات المجاورة «وفي هذه البيئة الدينية، بيئة الوعظ والقصص، أخذ يتضح رقي العقل العربي بما أصاب من كنوز الثقافات الأجنبية، فإذا جدلا كثيرا ينشب في مسائل العقيدة.. والمهم أن هذه الفرق تجادلت .. جدال رشح لقيام مناظرات عنيفة بينها، وهي مناظرات حشدوا لها كل ما يمكن من أدلة نقلية عن الكتاب والسنة وأدلة عقلية مدارها على البرهان المنطقي » [42] ص409.ولقد سبق وأن قدمنا أثناء تحليل خطبة زياد البتراء منهجه في سياسة الرعية إذ يقول: (أيها الناس إن أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع و الطاعة فيما أحببنا و لكم علينا العدل فيما ولينا.....) فنجد في هذا المنطلق تحليلين: الأول للدكتور شوقي ضيف إذ يقول:« وزياد في هذه الفقرة يستلهم فكرة التفويض اللإلهي المعروف عند الفرس، إذ كانوا يؤمنـون أن ملوكهم مفوضـــون بحكمهم من قبل ربهم، وفي ذلك دلالـــة واضحة على تأثر الخطباء بالأفكار الأجنبية » [42] ص467.

وتحليل للدكتـــور أحمد محمد الحوفي« .. قد أراد زياد أن يضفي على الولاية هـالة من الدين فقال لهم إنه يستمد سلطانه من الله وأن الله هو الذي اختار الحكام ليسوسوا رعيتهم » [37] ص295.

والتحليلان واردان لان الاحتكاك بالحضارة الفارسية وغيرها في العصر الأمـوي موجود بفعل الفتوحات الإسلامية واختلاط الأجناس وما ترتب عن ذلك من ترجمة و غيرها. و التحليـل الثاني أن الله يقدر ما يشاء لمن يشاء وهكذا الشأن في الحكم .

من خلال ما تقدم يتبين لنا أن الخطبة في العصر الأموي حققت الغاية منها بالتأثير الإيجابي في المتلقي سواء أكان هذا الأخير ممن يقتنع بالحجج الدينية من علوم نقلية أو يقتنع بالحجج العقلية التي

ظهرت عند بعض الطوائف أو من خلال التأثر بالثقافة الفارسية .إن أول ما يلفت الأنظار حين الإطلاع على نصوص الخطابة الأموية هو غلبة النزعة السياسية على النزعة الدينية لملازمتها التيارات السياسية في هذا العصر.فلقد كان الخلفاء أئمة الدين والسياسة، وفضلا عن ذلك كله، كانوا أئمة الخطابة، وإن الخطبة عندهم بين السياسة والدين، فإن الولاة الأمويين لم تكن الصفة الدينية هي الصفة الطاغية على وجدانهم إذ لم يكن يقتصر همهم على إحياء الدين وما تعلق به، بل إن همهم الأخير كان هما سياسيا،وإن لجأوا إلى الدين فذلك لتبرير أخذهم الرعية بالعنف أخذا لا مثيل له ولا عهد للمسلمين به منذ أيام الراشدين إذا«فإن طبيعة الخطبة، الأموية تبدلت غاية التبدل عن الخطبة الراشدية».[22] ص373.

وهذا ما أشرنا إليه ونحن نتحدث عن أسلوب التهديد والوعيد والتوبيخ عند هؤلاء الخطباء.

ومادامت الخطبة الأموية تعكس واقع عصرها من فتن ومحاولة، إخمادها، فقد تغيرت خصائص أسلوبها كذلك، إذ رأينا أن أساليب التوكيد تنوعت وتعددت«وقلت الأسجاع وسائر حلل الوشي والبديع والصنعة الباردة»[22] ص382.التي تغشى الخطبة بكثرة في العصر الجاهلي وتدرجت نحو القلة في صدر الإسلام، حتى تصبح عفوية في عصر بني أمية. والدراسة الفنية لنصوص خطابة النماذج المأخوذة وضحت ذلك.

فظهر التباين بين نصوص الخطب من حيث البلاغة، فإن قلت الصنعة وما يتعلق بالزخرفة اللفظية عند زياد، الذي تميز أسلوبه بالاعتدال في هذا المجال، فإننا نجد الحجاج أكثر استعمالا للصور البيانية والمحسنات البديعية كذلك، وعلى العموم فإننا نجد في الخطبة الأموية أنواعا من الإيقاع قلما خلت منها الخطابة قبل هذا العصر، والجديد هو ما أضفاه زياد والحجاج على الأسلوب من ألفاظ انفعالية كاستعمال حرف الردع عند زياد واستطالة الجمل، وهذه سمة لم نرها قبلا فصارت الأفكار بذلك تستوفي حاجتها التعبيرية في جمل متعددة متعاقبة دون كبحها بعدد هائل من الأسجاع.

إضافة إلى ما سبق، فإن جمالية الأسلوب لم تتوقف على ما ذكرنا، إنما أخذ جماله في معظم الأحيان من الاستشهاد، وإن كان الاستشهاد بالقرآن وبالشعر عرف في الخطابة الراشدية.

فإن التمثيل الذي رأيناه عند عبد الملك يعتبر أسلوبا جديدا في نقل المعنى والصورة إلى ذهن الملتقى.

كذلك استعمال القياس من قبل بعض الخطباء، كسمة جديدة، تجعل الخطبة ذات صبغة عقلية، فتعود بالجمهور إلى المنطق وإذا بها تجعله أكثر استجابة. ومن الجديد تقسيم الخطبة تقسيما يظهر العناية بهذا الفن النثري، مما يفسر إعداد الخطيب الأموي بخطبه ليصل بها في النهاية إلى تحقيق المراد منها.

ومن الخصائص التي انفردت بها الخطبة الأموية، تماسك الوحدة الموضوعية، فهي تتسلسل كقضية واحدة وتمتد من البداية إلى النهاية في حدود موضوعها، لا تستطرد فيه بالأفكار العارضة ولا تدع التفكك يغلب عليه، كما هو شأن معظم الخطب الجاهلية.ولعلنا نجد الوحدة الموضوعية تبدو أشد تماسكا في خطب الولاة منها في خطب الخلفاء لأنها أكثر التزاما للواقع السياسي كخطب زياد:«والخطبة على

هذا النحو خطبة سياسية خالصة،إذ ترسم سياسة زياد وطريقته في الحكم من جميع أطرافها،وهي مقسمة إلى فقر تتسلسل فيها الأفكار تسلسلا دقيقا» [42] ص427. إلى جانب ما ذكر، نقول أن هذه الدراسة أوضحت أن الخطبة الأموية ظهرت بحلة بلاغية جديدة، من سهولة الألفاظ والعبارات وفصاحتها وجمال وقعها مع قوة وجزالة عكست التأثر بالقرآن الكريم، وظهر إحكام في نسج العبارة وانسجام بين الألفاظ في التركيب وملائمة منها لما تدل عليه من معنى ودقة تعبيرها عنه، وتصويرها إياه، في عنفه وشدته،ولينه ورقته ،فظهر الأسلوب قويا واضح الدلالة، عاكسا للمقدرة البيانية عند الخطباء الذين أحسنوا الإيجاز في موضع الإيجاز والإطناب في موضع الإطناب، لذلك عرف هذا الفن النثري بفن الإقناع ألا وهو الخطابة في العصر الأموي مكانة وازدهارا لم ترق إليهما قبل ذلك لا في العصر الجاهلي ولا في عصر صدر الإسلام.

خاتمــة

لقد كان المنطلق في هذا البحث من نص الخطابة في أول عصر يؤرخ للأدب العربي- العصر الجاهلي- بعد أن مهدنا لذلك بحوصلة حول مفهوم – النص- لأن المحور الأساسي في الدراسة هو نص الخطبة من حيث تطوره، ثم كان التركيز على الخصائص الفنية لنص الخطبة في هذا العصر حتى تقاس به نصوص الخطابة في العصر الإسلامي، وقد تبين لنا فيما عرض بعد ذلك في الفصل الثاني أن الإسلام كان نهضة عامة شاملة في الدين و السياسة و الاجتماع، وقد نهض بالخطــابة نهضة كبرى، إذ اتخذها أداتــه الأولى إلى غايتــه، وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم- سيد الخطباء، وكان خلفاؤه فرسان البيان في هذا المجال، وقد أدت النهضة الإسلامية إلى تطور الخطابة في موضوعاتها، وكان من الضروري أن نعرض لبعض النصوص الخطابية بالتحليل والدراسة الفنية فتبيّنت خصائص نص الخطبة في هذا العصر مسجلين التطور الحاصل فيه، ليكون العصر الأموي امتدادا لعصر صدر الإسلام، بتطور الأحداث فيه وكثرة الطوائف والأحزاب، فظهرت الخطابة السياسية إلى جانب أغراض خطابية أخرى كالقصص، و قد انعكس عليها أثر القرآن الكريم. واضحا في ألفاضها ومعانيها وأساليبها وأكــدنا على اعتماد الأحــزاب على اختــلافها على الخطابة فكانت معرضا للآراء والمذاهب السياسية، وكثرت المحاورات والمناظرات والجدل وبينا تعدد اتجاهات نصوص الخطابة مؤيدة بنماذج من خلالها تم استخلاص الخصائص الفنية للخطابة في هذا العصر.

مما أتاح لنص الخطابة التأثر بمختلف العلوم نقلية كانت أم عقلية التي جعلتها تكتسي بحلة فنية لم يسبق أن ظهرت بها لا في العصر الجاهلي ولا حتى في صدر الإسلام حيث تأصلت قواعدها مصبغة بما جاء به الدين الإسلامي، ذلك أن العصر الأموي مثلما نعرف عصر اختلف فيه نظام الحكم من الشورى إلى توارث الخلافة ومن حكم قائم على مبادئ الدين الحنيف إلى حكم سياسي قلبا و قالبا ورأينا من النماذج ما لا يعتمد على آية واحدة من القرآن الكريم كنص الخطابة عند معاوية وإن كان يعظ، لأن سبيله في الحكم سياسة مختلفة كل الاختلاف عما كان نظام الحكم عليه سابقا، أضف إلى ذلك أن انتقــال الخلافة لم يكن انتقالا طبيعيا، بل كان بعد مقتل علي – رضي الله عنه- فظهرت الأحزاب والطوائف الإسلامية: من شيعة وخوارج ومعتزلة وغيرهم ولننظر مدى حاجة هذا الواقع إلى أداة معبرة وما كانت إلا الخطابة

التي عكست في نصوصها شخصيات أصحابها. مما جعل خصائصها الفنية تتنوع وترسم في الأخير نص الخطبة متكاملا من حيث تنوع موضوعاتها وبالتالي تعكس واقع عصرها، ومن حيث خصائصها الفنية المختلفة و بالتالي تعكس القدرة البيانية عند الخطباء هذا العصر، وإذا بنص الخطبة يتطور تطورا لا نظير له في العصر الأموي.

قائمة المراجع

1- أبي فضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، "لسان العرب"، دار صادر، طبعة 3، بيروت، (1994).

2- ابن حجر العسقلاني، تـ: توفيق محمد شاهين، "غراس الأساس"، مكتبة وهبة، القاهرة (1990).

3- لمحمد بن إدريس الشافعي، تـ : أحمد شاكر، "الرسالة".

4- أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، تـعبد المجيد تركي، " المعونة في الجدل"، دار العرب الإسلامي، طبعة 1، بيروت، (1988).

5- "التصور اللغوي عند المصولين"، شركة مكتبة عكاظ، ط1، جدة،(1981).

6- نصر حامد أبو زيد، "مفهوم النص (دراسة في علوم القرآن)"، المركز الثقافي العربي، طبعة5، بيروت، (2000).

7-Dictionnaire quillet de la langue francaise (Q-Z) librairie Aristide quillet, Paris, (1983).

8- "في أصول الحوار وتجديد علم الكلام"، المركز الثقافي العربي.

9- محمد مفتاح، "مساءلة مفهوم النص"، منشوارت كلية الأداب و العلوم – جامعة محمد الخامس وجدة، (1997).

10- محمد خير البقاعي، "نظرية النص رولان بارت"، مجلة العرب والفكر العالمي، طبعة3، (1988).

11- عبد العزيز حمودة، "المرايا المحدبة سلسلة عالم المعرفة"، الكويت، (1998).

12- صلاح فضل، "بلاغة الخطاب وعلم النص"، الشركة العالمية للنشر، القاهرة، (1996).

13- من النص إلى الجنس الأدبي مجلة الفكر العربي المعاصر،(1988).

14- درويش جويدي، "البيان و التبين للجاحظ، المكتبة العصرية"، بيروت،(2001).

15- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي– العصر الجاهلي، المعارف، طبعة 9، القاهرة.

16- أبي الفرج الأصفهاني، تـ: عبد الستار أحمد فراح الأغاني، الدار التونسية للنشر، تونس.

17- مجمع الأمثال للميداني مطبعة البهية المصرية، (1342 هـ).
18- محمد عبد المنعم خفاجي، "الشعر الجاهلي"، منشورات مكتبة النهضة بغداد، طبعة1، (1967).
19- أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، ت: محمد سعيد العريان، العقد الفريد، طبعة 2، مطبعة المستقامة، القاهرة، (1953).
20- الزمخشري، تـ: محمد مرسي عامر، "الكشاف عن حقوق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"، دار المصحف، القاهرة، دون سنة نشر.
21- محمد طاهر درويش، "الخطابة في صدر الإسلام الجزء الأول العصر الديني، عصر البعثة الإسلامية، طبعة 2 ، دار المعارف مصر، القاهرة، (1968).
22- إيليا حاوي، "فن الخطابة و تطوره عند العرب"، دار الثقافة، بيروت.
23- عبد الرحمان بدوي، "الخطابة لأرسطو"، دار الرشيد، بغداد، (1980).
24- أحمد الحوفي، بدوي طبانة، "المثل السائر لابن الأثير"، النهضة، القاهرة، (1959).
25- الأمالي للقالي، دار الكتب.
26- أحمد محمد الحوفي، "كتاب الحياة العربية من خلال الشعر الجاهلي".
27- زكي مبارك، "النثر الفني في القرن الرابع الهجري" دار الجيل، بيروت.
28- محمد الحاوي، أبو الفضل إبراهيم، "الصناعتين لأبي هلال العسكري"، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، (1952).
29- محي الدين عبد الحميد، "العمدة لابن رشيق القيرواني"، دار الجيل، بيروت.
30- عبد العزيز عتيق، "فن البلاغة العربية –علم المعاني –البيان – البديع".
31- ابن كثير، "البداية و النهاية"، مطبعة السعادة،(1351 هـ).
32- مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري ،عبد الحفيظ الشلبي، "السيرة النبوية لابن هشام "، طبعة2.
33- عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، "عيون الأخبار"، نسخة مصورة عن دار الكتب المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة و الطباعة والنشر، القاهرة، (1963).
34- محمد أبو الفضل إبراهيم، تاريخ الرسل والملوك، طبعة 2، دار المعارف، القاهرة، (1967).
35- ابن الأثير أبو الحسن عز الدين علي، "الكامل في التاريخ"، دار الطباعة المنيرية، القاهرة، (1356 هـ).
36- - إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، شرح زكي مبارك، تـ: محمد محي الدين عبد الحميد، "زهر الآداب وثمر الألباب"، دار الجيل، بيروت، (1972 هـ).
37- محمد أحمد الحوفي، "أدب السياسة في العصر الأموي"، دار مصر للطبع و النشر، طبعة3.

38- محمد بن سعد بن منيع الزهري، "الطبقات الكبرى لابن سعد"، دار الإحياء تراث العربي، بيروت، (1996).
39- حسن تميم، "شرح نهج البلاغة– لابن أبي الحديد-، دار مكتبة الحياة، بيروت، (1963).
40- المسعودي أبو الحسن علي بن الحسن، تـ: محمد محي الدين عبد الحميد، "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، المكتبة التجارية الكبرى ، طبعة3، القاهرة، (1958).
41- محمد طاهر درويش، "الخطابة في صدر الإسلام الجزء الثاني العصر السياسي، عصر الدولة الأموية، دار المعارف، القاهرة، (1967).
42- شوقي ضيف، "تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي"، المعارف 1119 كورنيش النيل، طبعة8، القاهرة.
43- عبد القاهر الجرجاني، "أسرار البلاغة"، دار المعارف، بيروت.
44- عبد القاهر الجرجاني، "دلائل الإعجاز" – طبعة1، القاهرة،(1372 هـ).
45- طه حسين، "الفتنة الكبرى"، دار المعارف، طبعة8 ، القاهرة.